

سنة ١٤٠٠ هـ



وسيلة إلى بغداد



0200121



Abdullah Al-Azhar

Abdullah Al-Azhar



0200121

أَغَاثَا كَرِيشْتِي

وَصَلُوا إِلَى بَغْدَادَ

مِس مَارِبِل

شماره ۵۵۱۰۲



THEY CAME TO BAGHDAD

by

AGATHA CHRISTIE

ترجمة

شارل شهوان

ARABIC EDITION 1993

© SAWT AL-NAS

P.O.Box:7038 - Limassol

CYPRUS

P.O.Box:113/5796 -Beirut

LEBANON

ISBN 1-85513-154-4

جميع الحقوق العربية محفوظة



الطبعة الاولى، تموز/يوليو ١٩٩٣

الغلاف، تصميم رملة شماعة

رسوم شيفون كوريقان



الفصل الأول

- ١ -

خرج الكابتن كروسبي من البنك، منفرج الأسارير كواحد قبض شيكاً واكتشف أن في حسابه أكثر بقليل مما كان يظن.

وكان الكابتن كروسبي، رجلاً قصيراً ممتلئ الجسم ذا وجه أقرب إلى الاحمرار وشاربين عسكريين غليظين وكان يبدو بطبعه، راضياً بحاله، يتمشى بخيلاء مرتدياً ثياباً فضفاضة.

كان محبوباً بين أقرانه من الرجال، لطيف المعشر وغير متزوج، وما عدا ذلك فقد كان رجلاً عادياً، مثل الكثيرين من أمثاله في شرق البلاد.

ويسمى الشارع الذي انطلق منه الكابتن كروسبي بشارع البنوك وذلك لأن معظم بنوك المدينة تقع فيه.

وكان الجو داخل البنك قاتماً وبارداً ورطباً، يسيطر على أجوائه ضجيج الآلات الكاتبة، الذي ينبعث من كواليسه. أما خارج شارع البنوك، فقد كان الطقس مشمساً، مفعماً بالغبار وصاخباً بأنواع مريعة من الضجيج حيث تختلط أصوات زمامير السيارات

المتواصلة، بصراخ الباعة من مختلف الأصناف. كانت هناك مشاجرات ساخنة بين مجموعات صغيرة من الناس تبدو وكأنها مستعدة لقتل بعضها بعضاً، غير أنها في الواقع خليط من أصدقاء أوفياء. كانوا رجالاً، وصبية وأولاداً يبيعون من كل أصناف الأشجار والمربى، البرتقال والموز. مناشف الحمام، الأمشاط، شفرات الحلاقة، وبضائع أخرى متنوعة يحملونها على صوان ويتنقلون بها عبر الشوارع بسرعة.

كان هناك أيضاً صخب متواصل ومتجدد من السعال والبصاق، وفوق كل هذا النحيب الهزيل والحزين لرجال يقودون الحمير والأحصنة بين سيل السيارات والمشاة زاعقين: «بالك... بالك!».

كانت الساعة الحادية عشرة صباحاً في مدينة بغداد.

استوقف الكابتن كروسبي صبيّاً يهرول بكدسة جرائد وابتاع واحدة، ثم انعطف إلى شارع البنوك ودخل شارع الرشيد، وهو الشارع الرئيسي في بغداد، الممتد عبرها حوالي الأربعة أميال بموازية نهر دجلة.

رمى الكابتن كروسبي العناوين الرئيسة في الصحيفة ودسها تحت ذراعه، مشى حوالى المتنّي ياردة ثم انعطف الى زقاق صغير منحدر، ودخل خاناً واسعاً وعند الجهة الأبعد فيه دفع باباً مصفحاً بالنحاس فوجد نفسه داخل مكتب.

ترك موظف عراقي شاب أنيق آلتة الكاتبة واقترب مرحباً بابتسامة:

- «صباح الخير كابتن كروسبي. ماذا يمكن ان افعل من اجلك؟».

- «السيد داكين في غرفته؟ عظيم، سادخل».

اجتاز باباً ونزل بضع درجات حادة ليقطع ممراً قذراً نوعاً ما ثم قرع باباً عند آخر الممر، فقبل له: «ادخل».

كانت غرفة مرتفعة وخالية الى حد ما. كان هناك مدفأة مازوت وضع عليها إناء ماء وكنبة واطنة وطويلة، عليها مساند، مع طاولة صغيرة امامها مكتب ضخم وبال الى حد ما. جلس وراءه رجل بثياب بالية ايضاً، ذو وجه متعب، وغير معبر، يبدو عليه انه شخص لم ينجح في هذا العالم ويعرف ذلك ولم يعد يكثرث.

نظر كروسبي المرح الواثق من نفسه، وداكين الحزين المتعب الى بعضهما.

بادر داكين: «مرحباً يا كروسبي. هل عدت توأ من كركوك؟».

اوما كروسبي بالإيجاب. ثم أقفل الباب وراءه بعناية. كان باباً رديء المظهر ومدهوناً بطريقة بشعة، إلا انه كان يمتلك ميزة غير متوقعة، فقد كان يقفل بإحكام من غير شقوق او فراغ في الأسفل.

كان في الحقيقة عازلاً للصوت.

مع اقفال الباب تغيرت شخصيتا الرجلين بعض الشيء. فقد أصبح الكابتن كروسبي اقل عدائية وثقة بالنفس، وتضاءل هبوط كتفي السيد داكين، وأضحى سلوكه اقل تردداً. ولو قدر لأحد ان يسمعهما في الغرفة لكان فوجئاً مكتشفاً ان داكين كان صاحب القرار.

سأل كروسبي: «هل من أنباء يا سيدي؟».

«أجل»، أجاب داكين متنهداً. وكان قد وضع أمامه ورقة يعمل لتوه على فك رموزها. ثم كتب كلمتين أخريين وقال:
- «ستعقد في بغداد».

ثم أشعل ثقاباً، وأضرع النار في الورقة وهو يراقب احتراقها. حين استحالت رماداً نفخ برفق، فتطاير الرماد وتناثر.
«نعم» قال «لقد صمموا على اعتماد بغداد. في العشرين من الشهر القادم. علينا «المحافظة على السرية التامة»».
«رواد السوق يعلمون بذلك منذ ثلاثة أيام» أردف كروسبي بجفاف.

أفلت الرجل الطويل العنان لابتسامته المريبة.

- «سرية تامة! لا وجود لما يسمى بأسرار تامة في الشرق، اليس كذلك يا كروسبي؟».

- «لا سيدي. إن كنت تسألني، في الواقع ليست هناك سرية تامة في أي مكان. خلال الحرب غالباً ما لاحظت أن أي حلاقٍ لندني كان يعرف أكثر من القيادة العليا».

- «لا اشكال في ذلك، فإذا تقرر عقد الاجتماع في بغداد فلا بد أن يعلن عنه وعندئذ سيبدأ العمل الممتع، عملنا نحن على الأخص؟».

سأل كروسبي مشككاً: «هل تعتقد يا سيدي أن هذا الاجتماع سيتم؟ وهل ينوي «العم جوس» فعلاً أن يأتي هذه المرة؟».

وكان كروسبي يقصد، مزدرياً كعاداته، زعيم القوى الأوروبية العظمى.

«أظن يا كروسبي انه سيأتي هذه المرة»، رد داكين وهو مستغرق في التفكير. «نعم أظن هذا. وإذا انعقد الاجتماع - انعقد من غير عقبات - حسناً قد يكون المنقذ لكل شيء. إن تم الوصول الى تفاهم ما....» ثم توقف فجأة.

كان كروسبي لا يزال يساوره بعض الشك: «عذراً، هل ان اتفاقاً من أي نوع يبدو ممكناً؟».

- «لا اعتقد يا كروسبي ان الأمر ممكن في المعنى الذي تقصده. على الأرجح لا! إن كان الأمر يتعلق فقط بجمع رجلين يمثلان ايدىولوجيتين مختلفتين تماماً لربما انتهى الأمر برمته، كالعادة، بشكوك متزايدة وسوء فهم. لكن هنالك العامل الثالث. إن كانت رواية كار مايكل الغربية صحيحة».

توقف بغتة عن الكلام.

- «ولكن بالتأكيد يا سيدي لا يمكن أن تكون صحيحة. انها غريبة الى أقصى الحدود».

بقي الرجل الآخر صامتاً بضع دقائق. كان يرى بوضوح شديد، وجهاً مضطرباً جذي الملامح، ويسمع صوتاً هادئاً غير قابل للوصف يقول أشياء غريبة غير قابلة للتصديق. كان يحدث نفسه قائلاً كما انبرى يقول بعدها: «واحدة من اثنتين إما أن أفضل رجالي وأكثرهم جدارة قد فقد عقله، وإما أن هذا الامر حقيقي....».

وتابع بصوته الناعم الكئيب: «كار مايكل يعتقد بذلك. كل ما

استطاع العثور عليه أكد له هذه الفرضية. لقد أراد التوجه الى هناك للحصول على مزيد من الاثباتات. ولا أدري، إذا كنت قد تصرفت بحكمة عندما سمحت له بالذهاب. إذا لم يرجع فلن يكون لدي سوى روايتي كما أخبرني إياها كار مايكل، وهي أيضاً رواية سمعها من شخص آخر. هل هذا يكفي؟ لا أظن ذلك. إنها كما تقول رواية عجيبة.. لكن ماذا لو كان الرجل بنفسه هنا، في بغداد في العشرين من الشهر ليخبر قصته بنفسه، فتكون رواية شاهد عيان مدعومة بالاثباتات!..

«إثباتات؟» قال كروسبي بحدة.

أوماً الآخر إيجاباً.

- «نعم لديه اثباتات».

- «كيف عرفت؟».

- «الصيغة المتفق عليها. وصلت الرسالة عبر صلاح حسن.

أورد بدقة المعلومات التالية: «جمل ابيض محمل ثوباناً قادم عبر الممر».

توقف ثم تابع:

«إذن استطاع كار مايكل الحصول على المعلومات التي ذهب من أجلها. ولكنه لم يستطع أن ينجو من الشبهات انهم يلاحقونه، ويراقبون أي طريق سيسلكها. ولكن الأمر الأشد خطورة هو أنهم سيكونون في انتظاره هنا. أولاً عند الحدود. وإن نجح في عبور الحدود فإنهم سوف يضربون طوقاً حول السفارات والقنصليات. انظر الى هذا».

وانبرى ينبش الأوراق المكسدة على مكتبه، فقرا:

«قتل بالرصاص رجل انكليزي مسافر في سيارته من إيران الى العراق. من المرجح على يد لصوص. وقع تاجر كردي مسافر عبر التلال في مكنم وقتل. قتلت الشرطة كردياً آخر يشتبه بأنه مهرب سجناء. عثر على طريق رواندوز على جثة رجل تبين فيما بعد أنه سائق شاحنة أرمني».

«والفت انتباهك الى أن لديهم بصورة تقريبية مواصفات كار مااكل نفسها. إنهم لا يجازفون البتة. لقد خرجوا للنيل منه. وفي اللحظة التي يدخل فيها العراق سيزداد الخطر وقد يكون الأمر بواسطة بستاني في السفارة، أو خادم في القنصلية، أو موظف رسمي في المطار، في الجمارك، في محطات الخطوط الحديدية... كل الفنادق مراقبة... طوق، مشدود بإحكام».

رفع كروسبي حاجبيه.

- «هل تظن يا سيدي انهم منتشرون الى هذا الحد؟».

- «ليس لدي أدنى شك في الموضوع. حتى ان هناك تشرباً في صفوفنا. وهذا هو الأشد سوءاً من أي شيء. كيف بوسعي أن اتأكد من أن الاجراءات التي نعتمدها لإرجاع كار مااكل سليماً الى بغداد لم تصل إلى الطرف الآخر؟ كما تعلم إنه احد قوانين اللعبة الأكثر بدائية، ان ترشو أحداً ما في المعسكر الآخر».

- «هل تشتبه بأحد؟».

هز داكين رأسه نافياً.

زفر كروسبي تنهيدة ثم قال:

- «في غضون ذلك نحن نتابع».

- «أجل».

- «ماذا في شأن كروفتون لي؟».

- «لقد وافق على الحضور الى بغداد».

أجاب كروسبي: «الجميع آتٍ الى بغداد. حتى العم جو وفقاً لكلامك يا سيدي. لكن ان حصل للرئيس أي مكروه - بينما هو هنا - فسينطلق البالون منذراً بالثأر».

«ليس من المفترض أن يحدث أي شيء»، رد داكين، «هذه وظيفتنا، أن نعمل على منع ذلك».

حين غادر كروسبي جلس داكين منحنياً على مكتبه. متمتماً:

- «لقد حضروا الى بغداد...».

على الورقة النشافة رسم دائرة وكتب تحتها بغداد. ثم نقط حولها. رسم جملاً، طيارة، سفينة بخارية، وقطار صغير نقّاث. كلها تميل الى الالتقاء حول الدائرة. ثم عند زاوية الورقة رسم نسيج عنكبوت. في وسط نسيج العنكبوت كتب اسماً: أنا شيل. تحت الاسم وضع علامة استفهام كبيرة. ثم تناول قبعته وغادر المكتب. بينما كان يقطع ماشياً شارع الرشيد، سمع رجلاً يسأل رجلاً آخر: «من هو ذلك الرجل؟».

- «آه، هذا داكين. انه يعمل في احدى شركات النفط. رجل طيب ولكنه لا ينسجم أبداً مع أحد. لا مبالٍ للغاية، يقال إنه يتعاطى الخمرة. لن يحقق شيئاً. ينبغي أن تكون نشيطاً لتفعل في هذا الجزء من العالم».

- «آنسة شيل هل أحضرت التقارير الخاصة بأمالك كروغنهورف؟».

- «أجل سيد مورغانثال».

دفعت الآنسة شيل الهادئة والقديرة الأوراق أمام مستخدمها وراح يقرأها مهمهماً:

- «انه مرضٍ على ما أظن».

- «مرضٍ بدون شك يا سيد مورغانثال».

- «هل شوارتز هنا؟».

- «انه ينتظر في المكتب الخارجي».

- «فليدخل فوراً».

ضغطت الآنسة شيل على أحد الأجراس الكهربائية الستة.

- «هل أنت بحاجة إليّ يا سيد مورغانثال؟».

- «لا. لا أظن ذلك يا آنسة شيل».

وهكذا انسحبت أنا شيل من الغرفة في سكون. لقد كان شعرها أشقر بلاتينياً؛ ولكنها لم تكن بالشقراء الفاتنة.

كان شعرها مرفوعاً عن جبهتها الى الخلف بتسريحة انيقة ملفوفة عند العنق. عيناها الزرقاوان الشاحبتان والذكيتان تنظران الى العالم من خلف نظّارتين سميكتين. كانت ملامح وجهها ناعمة وصغيرة، ولكنها غير معبّرة. وقد استطاعت ان تشق طريقها في الحياة معتمدة على كفاءتها وليس على مفاتها. وكانت تستطيع ان

تحفظ أي شيء مهما يكن معقداً، وتذكر أسماء التواريخ والأوقات من غير أن تستعين بمفكرتها. وكان بوسعها تنظيم مجموعة موظفين في مكتب ضخم بدقة توازي حركة آلة مزينة بشكل خارق. كانت هي الحذر بعينه، وتملك طاقة لا تفتر رغم انضباطها وانتظامها.

كان أوتو مورغانثال رئيس شركات: «مورغانثال»، «براون وشيبيرك»، «المصرفيون العالميون» مدركاً جيداً أنه مدين لآنا شيل بما لا يمكن أن يعوضه أي مال. كان يثق فيها كلياً وكانت بذكرتها، وخبرتها، واحكامها، وحدة ذكائها الهادئة اكبر من أن تقدر بثمن. وكان يدفع لها أجراً كبيراً، وهو على استعداد لزيادته لو طلبت اليه ذلك.

لم تكن تعرف فقط تفاصيل أعماله، إنما أيضاً تفاصيل حياته الشخصية. حين استشارها بشأن قضية زوجته الثانية، نصحته بالطلاق واقترحت بدقة مبلغ النفقة. لم تظهر نحوه عطفاً أو فضولاً. فهي لم تكن - إذا جاز التعبير - من ذاك الصنف من النساء. وهو لم يخطر في باله أبداً أنها تمتلك أية مشاعر، ولم يحدث له أن تساءل عن الأفكار التي كان يمكن أن تراودها. كان يمكن أن يفاجأ فعلاً لو قيل له أنها تراودها أية أفكار أخرى بعيدة عن الأفكار المتعلقة بشركتي «مورغانثال» و «براون شيبيرك» ناهيك بمشاكل أوتو مورغانثال الشخصية. ولذلك كانت دهشته فائقة وهو يسمعها تقول وهي تستعد لتغادر المكتب:

- «سيد مورغانثال أرغب في إجازة لثلاثة أسابيع إن كان هذا ممكناً. ابتداء من نهار الثلاثاء القادم».

محدثاً فيها، قال مرتبكاً: «سيكون هذا احراجاً مربكاً للغاية».

- «لا أظن أن الأمور ستكون صعبة جداً يا سيد مورغانثال.
فالآنسة وايغايت مؤهلة لتهتم بالأمور. سأترك لها ملاحظاتي
وتعليمات شاملة. ويستطيع السيد كورنويل الاعتناء بشأن
الـ «آشير ميرغر»».

سألها وعلامات عدم الارتياح ما زالت تسيطر عليه:

- «لست مريضة أليس كذلك؟ أو أي شيء من هذا القبيل».

لم يكن في مقدوره أن يتخيل الآنسة شيل مريضة. حتى
الجراثيم كانت تحترم أنا شيل وتبتعد عن سبيلها.

- «آه لا يا سيد مورغانثال. أود الذهاب الى لندن لرؤية شقيقتي
هناك».

- «شقيقتك؟»

لم يكن يعرف أن لها شقيقة. لم يتصور البتة أن لديها عائلة أو
أقارب. لم تذكر مرة أن لديها أيّاً من ذلك. وما هي تشير عرضاً أن
لديها شقيقة في لندن. كانت سافرت معه الى لندن في الخريف
الماضي، غير أنها لم تُشِرْ إطلاقاً آنذاك الى أن لها شقيقة.

سألها وهو يشعر بالأسى:

- «لم أعرف إطلاقاً أن لديك شقيقة في انكلترا!».

ابتسمت الآنسة شيل.

- «آه، أجل يا سيد مورغانثال. انها متزوجة من رجل انكليزي
يعمل في المتحف البريطاني. من الضروري أن تخضع لعملية
جراحية خطيرة. وتريدني أن أكون معها. أنا أرغب في الذهاب».

بكلام آخر رأى أوتو مورغانثال انها عقدت النية على الذهاب
فقال متذمراً:

- «حسناً، حسناً... عودي بأسرع وقت ممكن. لم أرَ أبداً السوق
مضطرباً كما هو الآن. إنها الشيوعية الملعونة! قد تندلع الحرب في
آية لحظة. انه الحل الوحيد، هكذا يخطر لي أحياناً. الشيوعية
تفسد معظم البلاد. انها تفسدها، ان الرئيس مصمم الآن على
الذهاب الى هذا الاجتماع السخيف في بغداد. أظن أنها مؤامرة.
ها قد خرجوا للنيل منه. بغداد! من بين كل الأمكنة الهمجية!». «آه.
انا متأكدة انه سيكون محروساً بعناية». قالت الانسة
شيل بهدوء.

- «لقد نالوا من شاه إيران السنة الفائتة، ألم يفعلوا؟ لقد
نجحوا في القضاء على برنادوت في فلسطين. انه الجنون - هذا هو -
الجنون بعينه».

«وعلى كل حال»، أضاف السيد مورغانثال بجديّة، «العالم كله
مجنون».

الفصل الثاني

كانت فيكتوريا جايمس جالسة بكآبة على مقعد في حدائق
فيتز جايمس. مستغرقة كلياً في التفكير لا بل في التأويل الاخلاقي
للسيئات المتأتية عن توظيف المواهب الاستثنائية لأحدهم في
اللحظة الخطأ.

كانت فيكتوريا مثلنا جميعاً، فتاة تمتلك ميزات حسنة وعيوباً.
من حسناتها أنها كانت كريمة، محبة وشجاعة. وهي تميل بطبعها
الى المغامرة؛ وهذا أمر يخضع للتقدير الشخصي في هذا العصر
الذي تعتبر الطمأنينة فيه هي الهدف الاسمى في الحياة، ومن ابرز
عيوبها قدرتها على الكذب في اللحظات الملأمة وغير الملأمة في آن.
لم يكن بوسعها مقاومة سيطرة الخيال على الواقع. كانت تكذب
بطلاقة، وبسهولة، وبتوهج فني. فإذا تأخرت عن موعد (وكان هذا
غالباً ما يحدث)، لم يكن يكفيها ان تهمس اعتذاراً بأن توقفت
ساعة يدها (وكان هذا هو السبب غالباً)، أو بسبب تأخر غير
محسوب للباص. ولكنها كانت تدعي مثلاً ان فيلاً هارباً تمدد في
عرض طريق الباص الرئيسة، أو انها تأخرت عن الموعد بسبب غارة
لمخربين لصوص حيث لعبت هي دوراً مهماً في معاونة الشرطة في
مكافحتهم.

إن عالم فيكتوريا الأكثر روعة هو بالتأكيد ذاك الذي تختبئ فيه النمرور في صالة الستراند ويقوم مجرمون خطيرون بغزو متجر توتينغ.

فتاة نحيلة، ذات وجه فاتن وساقين من الدرجة الأولى، في الواقع يمكن وصف قسمات فيكتوريا بالوضوح. قسمات دقيقة وناعمة حجت بمهارة مميزة فيها. إذ أن ذلك «الوجه المحاة»، كما كان أحد المعجبين بها يدعوه، يمكن أن يحول تلك القسمات الجامدة إلى مقلد ساخر لأي كان تقريباً.

وكانت هذه الموهبة بالذات هي التي أدت بها إلى مأزقها الراهن. فقد كانت موظفة كطابعة على الآلة الكاتبة عند السيد غرينهولز في شركته «سيمونز وليدر بتر» في شارع غرايسهولم ف س ٢. وكانت تحاول قتل الوقت الملل صباح كل يوم بإلهاء زميلاتها الطابعات الثلاث الأخريات وكذلك ساعي المكتب بتقديم استعراض حيّ لزيارة تقوم بها السيدة غرينهولز لمكتب زوجها. فقد كانت مطمئنة لعلمها أن السيد غرينهولز قد خرج في زيارة لحاميه، وهكذا أفلتت فيكتوريا لخيالها العنان.

«لماذا تقول أننا لا نستطيع شراء تلك الكنبه يا دادي؟». سألتها بصوت مرتفع ساحر، «أن السيدة ديتاكييس تملك كنبه من الساتان الأزرق المشع. تقول أنك تعاني من ضيق مالي؟ لماذا إذن تصطحب تلك الفتاة الشقراء إلى العشاء والرقص - أه، تظن أنني لا أعرف - ولو كنت تصطحب تلك الفتاة - فسأحصل على تلك الكنبه وكل تلك الأرائك المذهبة والأرجوانية. وحين تقول أنه عشاء عمل لا بد أنك ستكون بمنتهى الحماسة، إذ ستعود بأحمر شفاه على قميصك.

لا بد انك ستشتري لي تلك الكنبه كما انني سأوصي على معطف من الفراء - يشبه تماماً فراء المنك وبسعر بخس ولا شك أنه بسعره المعروف يبدو صفقة ممتازة!«.

وفجأة صمت الجميع.. وأخذت الطابعات تضرب بحركة عفوية على آلاتهن مما جعل فيكتوريا تتوقف وتستدير لتواجه السيد غرينهولز الواقف أمام الباب مراقباً إياها.

فيكتوريا العاجزة عن التفكير في قول أي شيء مناسب تقوله قالت «آه» وحسب.

صرخ السيد غرينهولز واندفع الى داخل مكتبه الخاص. وعاد الفور سُمع جرسه الكهربائي. رنتان قصيرتان ثم واحدة طويلة وكان هذا يعني استدعاء لفيكتوريا.

«هذا استدعاء لك يا جونيبي»، أشارت إحدى زميلاتنا من غير طائل، ولع بريق عينيها بحبور سببه تعاسة الآخرين. الموظفات الأخريات انتابهن أيضاً هذا الشعور نفسه وهتفن بقوة: «لقد نال منك يا جونز» و«ازحفى يا جونيبي». ساعي المكتب الصبي السمج أخذ يمرر إبهامه على حنجرته بغبطة ويصدر أصواتاً شريرة.

تناولت فيكتوريا دفتر ملاحظاتها وقلماً وانسلت داخل مكتب السيد غرينهولز بكل ما تيسر لها من ثقة بالنفس.

تمتعت محدقة فيه في هدوء كامل: «هل طلبتني يا سيد غرينهولز؟».

كان السيد غرينهولز يخشخش بثلاث ليرات معدنية ويبحث في جيوبه عن قطع نقد أخرى.

- «إذن ها أنت، أولاً لقد ضقت ذرعاً بك يا سيدتي الشابة.
وثانياً، هل يمكنك أن تقدمي لي أي سبب خاص أو مبرر يمنعني من
دفع أجرك الأسبوعي وطردك فوراً؟».

كانت فيكتوريا (اليتيمة) على وشك أن تفتح فاهما لتشرح كيف
ان حالة أمها الحاضرة والتي خضعت مؤخراً لعملية جراحية
خطيرة، جعلتها طائشة كلياً. وكيف أن أجراها الحقير كان كل ما
اعتمدت عليه أمها. غير أنها امتنعت وأذعنّت بعدما ألقت نظرة على
وجه السيد غرينهولز الكريه.

«لا يمكن أن نكون أكثر اتفاقاً»، بادرت بكل مودة ونعومة، «أظن
أنك تماماً على حق، ان كنت تفهم ما أقصد».

فوجيء السيد غرينهولز قليلاً. لم يكن معتاداً أن تواجه قراراته
بالصرف بردة الفعل هذه الموافقة والمهنتة. ولكي يخفي قليلاً من
ارتباكها جعل يفرز كومة قطع النقد على المكتب أمامه. ثم أخذ يفتش
مرة أخرى في جيوبه. وتمتم بعدها عابساً: «ينقصني تسع
بنسات».

ردت فيكتوريا بلطف: «لا تهتم، اذهب بها الى السينما أو
اصرفها على شراء الحلوى».

- «لا يبدو ايضاً انه لدي طوابع».

«يمكنني أن أبعثها اليك لاحقاً»، قال السيد غرينهولز.

«لا تتعب نفسك - ماذا بشأن كتاب التوصية؟»، سألت
فيكتوريا.

استعر غضب السيد غرينهولز من جديد: «سحقاً لماذا يتوجب علي أن أعطيك توصية» سأل غاضباً.

ردت فيكتوريا: «هكذا جرت العادة».

سحب السيد غرينهولز ورقة و«خربش» بضعة أسطر. ثم دفعها نحوها.

- «هل يفي هذا بغرضك؟».

وكان كتب على الورقة:

الآنسة جونز عملت عندي لمدة شهرين كضاربة على الآلة
الكاتبة ومختزلة. اختزالها غير دقيق واملأها سييء. انها تغادر
العمل بسبب إضاعتها للوقت اثناء الدوام.

كشّرت فيكتوريا ولاحظت: «لا أظن أن هذه توصية».

رد السيد غرينهولز: «لم يكن مقصوداً أن تكون كذلك».

«أظن»، انبرت فيكتوريا قائلة، «انه يجدر بك على الأقل أن تقول
بأنني نزيهة، رزينة ومحترمة. أنا كما تعرف كذلك. وربما أيضاً
يمكنك أن تضيف أنني كاتمة أسرار».

«كاتمة أسرار؟»، زعق السيد غرينهولز.

واجهت فيكتوريا نظراته المكددة بنظرة بريئة.

«نعم كاتمة أسرار»، قالت بنعومة.

متذكراً رسائل متعددة نصتها فيكتوريا وطبعتها على الآلة
الكاتبة، قرر السيد غرينهولز أن الاحتراس هو أفضل ما في

الضعيفة. فعاد وانتزع منها الورقة، ومزقها وشرع في كتابة واحدة جديدة:

عملت الآنسة جونز عندي لمدة شهرين كضاربة على الآلة الكاتبة ومختزلة. وهي تترك العمل بسبب الفانوس في عدد موظفي المكتب.

- «ما رأيك؟» -

- «كان من الممكن أن تكون أفضل». وأضافت، «لكنها وافية».

وهكذا تركت فيكتوريا المكتب وجلست متأملة على مقعد في حدائق فيتز جايمس وفي حقيبتها أجر أسبوع إلا تسعة بنسات. تلك الحدائق المؤلفة من مزروعات مثلثة الشكل، أو على الأصح شجيرات كثيفة تطوق كنيسة ويطل عليها مستودع مرتفع.

كان من عادة فيكتوريا في أي يوم غير ممطر أن تبتاع من أحد المطاعم غداء بسيطاً في تلك الأمكنة الريفية هو عبارة عن سندويش من الجبنة والخس والبندورة. واليوم وبينما هي تمضغ متأملة، كانت تتحدث مع نفسها وليست هذه المرة الأولى. فقد كانت تقول ان لكل وضع زمانه ومكانه، وان المكتب لم يكن قطعاً المكان المناسب لتقليد زوجة رئيس العمل. وانه يجدر بها في المستقبل ان تكبح حماسها الطبيعية التي قادتها الى تلك المسرحية البائسة خلال وظيفة مملة. غير أنها في الوقت الحاضر متحررة من غرينهولز وشركة «سيمونز وليدريتر»، واحتمال حصولها على وضع مختلف في مكان آخر ملأها احساساً لذيداً بالامل.

كانت فيكتوريا تشعر دائماً بالسعادة قبيل حصولها على وظيفة جديدة. لا أحد يعلم ما قد يحدث، هكذا شعرت على الدوام.

كانت قد فرغت لتوها من توزيع آخر كسرة خبز على ثلاثة عصفير كانت تتناقر على التقاطها، حين استرعى انتباهها شاب يقعد عند نهاية الجانب الآخر من المقعد. كانت فيكتوريا قد سبق ولاحظته بشكل عابر بينما كان خيالها مستغرقاً في التخطيط للمستقبل، ولم تكن قد تأملته عن كثب حتى هذه اللحظة، ولكن ما تراه الآن (خارج زاوية عينها) أعجبها جداً. كان شاباً بهي الطلعة، وسيماً بملائكية، لكن بذقن حازمة وعينين زرقاوين بعمق. عياناً كانتا كما خيل إليها تتفحصانها بإعجاب خفي منذ فترة من الزمن.

لم يكن لدى فيكتوريا أي مانع من التعرف على الشبان في الأماكن العامة. وكانت تعتبر أنها تحسن الحكم على الناس، وقادرة جيداً على تقييم ملاحظة جمال ونضارة الرجال غير المتزوجين. وهكذا أخذت تنظر إليه وتبتسم له بعفوية فاستجاب الشاب كدمية تتحرك وكأنها تشد أسلاكها بأصابعها.

«مرحباً»، قال الشاب، «هذا مكان ظريف، هل تأتين الى هنا غالباً».

- «كل يوم تقريباً».

- «لسوء الحظ أنا لم آت أبدأ الى هنا من قبل. هل كنت تتناولين غداءك؟».

- «أجل».

- «لا اظن أن ما تأكلينه كاف. قد أموت جوعاً لو تناولت سندويشين فقط. ماذا تقولين لو نذهب معاً ونأكل السجق في مطعم «سبو» في شارع محكمة توتنهايم؟».

- «لا. شكراً. لقد اكتفيت. لا أستطيع تناول أي شيء آخر الآن».
وكانت تتوقع في الحقيقة أن يقول لها: «ربما في يوم آخر»، لكنه
لم يفعل. واكتفى بتنهيده ثم قال:

- «اسمي ادوارد، وأنتِ؟».

- «فيكتوريا».

- «ما الذي جعل أهلك يختارون لك اسم محطة قطارات؟».

- «فيكتوريا ليس فقط اسم محطة قطارات، هناك الملكة فيكتوريا
أيضاً».

- «أجل. ما هو اسم عائلتك؟».

- «جونز».

«فيكتوريا جونز» قال إدوارد وهم يكرر لفظ الاسم. ثم هز رأسه
قائلاً: «الاسمان غير متناسقين».

قالت فيكتوريا مأخوذة: «معك حق. لو كنت أدعى جيني لكان
هذا اللطيف: جيني جونز. لكن اسم فيكتوريا يحتاج اسماً أعلى شأنًا
إلى جانبه. فيكتوريا ساكفيلويست مثلاً. هذا هو المطلوب. اسم
يتدحرج في الفم».

قال ادوارد باهتمام وتعاطف: «تستطيعين ضمّ شيء آخر إلى
جونز:

«بيدفورد جونز».

«كاريسبروك جونز».

«سانت كلير جونز».

«لوندسيل جونز».

نظر ادوارد الى ساعة يده وقال متردداً بعد أن قطع عبثهما:

- «ينبغي أن أعود فوراً الى مديري - آه - ماذا بشأنك؟».

- «لقد فقدت عملي. لقد طردت هذا الصباح».

«آه، أنا آسف» رد ادوارد باهتمام شديد.

- «حسناً، لا حاجة للشفقة، لأنني لست آسفة على الإطلاق. أولاً

لأنني أستطيع الحصول على وظيفة بسهولة، وإلى جانب هذا لقد كان الأمر مسلياً».

جعلته فيكتوريا يتأخر أكثر عن ميعاد عمله إذ قصّت عليه تفاصيل كل ما حدث في الصباح. وقامت مجدداً بتمثيل تقليدها للسيد غرينهولز، وكان إدوارد يستمتع كثيراً بذلك.

- «أنت خفيفة أخاذة يا فيكتوريا»، وأضاف «ينبغي أن تمثلي على المسرح».

تلقت فيكتوريا هذا المديح بابتسامة امتنان واقترحت على ادوارد أن يسارع إلى الذهاب إذا كان لا يريد أن يطرد هو أيضاً.

«أجل. ولا أظن أن بمقدوري أن أحصل مثلك بسهولة على وظيفة. لا بد أنه أمر رائع أن تكوني ضاربة على الآلة الكاتبة ومختزلة»، قال ادوارد بحسد.

«في الواقع لست ضاربة ومختزلة جيدة»، اعترفت فيكتوريا بصراحة، «لكن لحسن الحظ في هذه الأيام، تستطيع أسوأ السكرتيرات الحصول على أي نوع من العمل - قد تكون وظيفة تنقيفية أو خيرية أحياناً - هؤلاء لا يستطيعون دفع أجور كبيرة لذا يستطيعون توظيف أناس مثلي. أحب العمل في المؤسسات العلمية».

قد تكون الأسماء والمصطلحات العلمية مربعة، لكنك على أية حال لا تخجل ان كنت لا تعرف تهجئتها بشكل صحيح، ذلك أن لا أحد يستطيع أن يفعل. ما هي وظيفتك؟ أظن أنك خارج من الخدمة العسكرية...».

- «لقد حزرت».

- «طيار حربي؟».

- «لقد حزرت مجدداً. لقد وقوا بوعودهم وأمنوا لنا الوظائف والمساعدات. لكن بصراحة المشكلة هي أننا لسنا أذكاء كفاية. أعني أن الواحد ليس بحاجة أن يكون ذكياً في الجيش. لقد وضعوني في مكتب بين مجموعة ملفات وأرقام ولا يتوجب علي سوى القليل من التفكير، لكنني أخفقت إخفاقاً تاماً. بدا لي الأمر برمته من دون فائدة. لكن في النهاية نجد أن الأمر يتطلب بعض الوقت لنكتشف أننا غير نافعين».

وافقته فكتوريا بعطف. وتابع ادوارد بمرارة:

- «لقد فقدنا مهارتنا. لم نعد ننفع. كان الوضع جيداً خلال الحرب. كان في مقدورنا تحقيق أشياء. أنا مثلاً حصلت على... لكن الآن أظن أن لا موقع لي على الخارطة».

- «لكن ينبغي أن يكون هناك...».

لم تكمل.. شعرت أنها عاجزة عن التعبير عن قناعاتها بأن تلك الصفات التي كللت صاحبها بـ... لا بد أن يكون لها مكانها المناسب في عالم الخمسينات.

- «إن هذا يهبط من عزيمتي على أية حال». وتابع: «أعني

أن أكون فاشلاً في كل شيء. من الأفضل أن أرحل. أقصد، هل تسمحين لي؟ هل سأكون وقحاً؟ لو كنت أستطيع فقط البقاء...».

وبينما حدثت فيكتوريا مذهولة، متلعثمة ومتوردة خجلاً، انتشل ادوارد آلة فوتوغرافية صغيرة. - «أود من كل قلبي أن ألتقط لك صورة. في الواقع أنا مسافر غداً الى بغداد».

«إلى بغداد؟»، سألت فيكتوريا بتعجب وخيبة.

- «أجل. أعني انا أتمنى لو لم أكن مسافراً، خصوصاً الآن. لقد فرحت جداً، هذا الصباح حين أنبتت بالرحلة. ولهذا السبب قبلت في الواقع هذه الوظيفة؛ كي أخرج من هذا البلد».

- «ما هو نوع عملك؟».

- «وظيفة بائسة. لها علاقة بالثقافة والشعر وما شابه. مديري هو الدكتور راسبون. تصله كدسات من الرسائل ويصدق بي من خلف نظارة أنفية، مفعماً بالعطف، هاجسه الأوحده هو أحداث نهضة ثقافية والعمل على نشرها الى أبعد وأوسع مساحة ممكنة. انه يفتتح مكتبات في أماكن نائية. ويعمل على افتتاح واحدة في بغداد. ويعمل على ترجمة أعمال شكسبير وميلتون الى العربية والكردية وكذلك اللغتين الفارسية والأرمنية، وجعل هذه الترجمات في متناول الجميع. أظن أن هذا تصرف سخيف لأن القنصل البريطاني يعمل على تحقيق الأمر نفسه هناك. وطالما أن هذا يؤمن لي وظيفة فلا يجدر بي أن أتذمر».

- «ما هو الذي تقوم به بالتحديد؟».

- «ليس شيئاً محدداً. وفي الحقيقة، لقد صرت في النهاية رجله المطيع أو كلبه الوفيّ. اشتري بطاقات السفر، أقوم بالحجوزات، أملا طلبات جواز السفر، أتحقق من توضيب كتيّبات الشعر الصغيرة المقيّنة، والتجوال في كل الامكنة. ومن ناحية أخرى يتطلّب مني أن أتأخى مع ما يشبه - حركة شباب متألق - حيث تجتمع كل الأمم معاً في سبيل النهضة». صوت إدوارد ازداد حزناً وختم قائلاً: «بصراحة كل هذا شنيع، اليس كذلك؟».

لم يكن في وسع فيكتوريا مؤاساته فصمتت عاجزة.

انبرى إدوارد يقول: «ها قد فهمت. فإن كنت لا تعترضين، أود أن ألتقط لك صورة من الجنب وأنت تنظرين إليّ مباشرة. آه هذا عظيم».

نكّت آلة التصوير مرتين وقامت فيكتوريا راضية كل الرضى باستعراض كل إغرائها كفتاة تعلم تماماً أن عليها إغراء الجنس الآخر.

- «لكن هذا بشع في الحقيقة، أن أضطر للمغادرة وبالكاد التقيتك». وأضاف إدوارد: «يخطر لي أن أصرف النظر عن الرحلة. لكنني أظن أن هذا مستحيل الآن في اللحظة الأخيرة، ليس بعد كل المشقات المزعجة التي عانيت في اجراء الطلبات وسمات الدخول وفي كل شيء. لن يكون هذا ظريفاً، اليس كذلك؟».

قالت فيكتوريا معزّية: «ربما لا تكون هذه الرحلة سيئة في النهاية».

«لا»، ردّ إدوارد بصوت ملؤه الشك، «الشيء العجيب انه

يملكني شعور أن هناك أمراً محيراً في هذه الرحلة».

- «محيراً؟».

- «أجل. في الأمر زيف. لا دليل لدي. انه مجرد شعور يملك الشخص أحياناً. خالجنى هذا مرة في شأن فتحة الزيت في سيارتي. تقصيت الأمر حينذاك في تلك السيارة الملعونة، واكتشفت في الحقيقة أن حلقة مطاطية سدّت مضخة المحوّل الاحتياطية».

كان حريصاً على استخدام تلك التعابير التقنية المعقدة أمام فيكتوريا. ولكنها فهمت الفكرة الأساسية.

- «هل تعتقد أن راسبون كاذب؟».

- «ليس بمقدوري أن اتخيل كيف يمكن أن يكون كذلك. أعني انه محترم جداً ومثقف وينتمي الى تلك المجتمعات الودودة حيث الأساقفة ومدراء المدارس. لا، انه شعور لا أكثر. حسناً الوقت سيكشف ذلك. وداعاً. أتمنى لو تأتين أنت أيضاً».

قالت فيكتوريا: «هذا ما سأفعله؟».

- «ماذا ستفعلين؟».

«سأذهب الى مكتب سانت غيلدريك في شارع غوير ، وسوف أحاول الحصول على وظيفة أخرى». تمتت فيكتوريا حزينة.

- «وداعاً يا فيكتوريا». وقال بالفرنسية: «الغياب هو موت قصير، أولئك الفرنسيون يعرفون جيداً ماذا يعني الأمر. شباننا يهزون معتبرين الغياب حزناً محبباً. انهم مجرد حمير».

- «وداعاً يا إدوارد وأتمنى لك الحظ الجيد».

- «لا أعتقد أنك ستفكرين بي بعد اليوم».

- «لا، سأفكر بك».

- «أنت مختلفة تماماً عن أي فتاة عرفتتها من قبل. أتمنى فقط...».

قرعت ساعة المدينة ربع قرعة، فقال ادوارد: «يا للشيطان - ينبغي أن أطيّر عائداً...».

معجلاً بالعودة سرعان ما ابتلعه عدة لندن الهائلة وبكلام آخر توارى كلياً. فيكتوريا التي تركها وراءه وحيدة على المقعد كانت مأخوذة بالتأمل يتنازعها تياران متناقضان من الأفكار.

أحد التيارين كان يتعلق بموضوع روميو وجولييت، حيث شعرت انها وإدوارد كانا تقريباً في وضع مماثل لوضع ذاك الزوج التعس. على الرغم من أن روميو وجولييت ربما عبّرا عن عواطفهما بلغة أرقى بكثير. لكن خامر فيكتوريا أن الوضع كان مماثلاً. اللقاء، الانجذاب الفوري، الخيبة، قلبان هائمان مطعونان ممزقان إرباً. وتذكرت مقطعاً من قصيدة كانت تلقىها باستمرار مربيتها القديمة:

قال جامبو لاليس: أحبك

قالت اليس لجامبو: لا اصدق ذلك

لو كنت تحبني كما تدّعي

لما كنت تذهب إلى أميركا وتتركني في حديقة الحيوانات.

وإن وضعنا بغداد بدل أميركا فسيكون الأمر سيان!

نهضت فيكتوريا أخيراً نافضة بقايا الخبز عن حضنها، وخرجت بسرعة من حدائق فيتز جايمس في اتجاه شارع غوير. كانت قد

اتخذت قراراتين. كان الأول انها مثل جولبيت تعشق هذا الشاب وترغب في الحصول عليه.

وكان قرارها الثاني كالتالي: بما ان إدوارد سيكون قريباً في بغداد فالشيء الوحيد الذي كان يجب أن تفعله هو الذهاب أيضاً الى بغداد. ما يشغل بالها الآن هو الوسيلة التي تمكّنها من تحقيق ذلك. ولم يكن لديها أدنى ريب في أن هذا الأمر سيتحقق بطريقة أو بأخرى. كانت شابة قوية الشخصية وممتلئة تفأؤلاً.

لم تكن تروقها فكرة «حزن البعاد المحبب» ومثل إدوارد لم تعجبها إطلاقاً.

خاطبت فيكتوريا نفسها قائلة: «بطريقة ما، يجب أن أذهب الى بغداد!». .

الفصل الثالث

- ١ -

رحب فندق سافوي بالآنسة آنا شيل في حفاوة يفرضها حضور زبون قديم ومعتبر. سألوا عن صحة وأحوال السيد مورغانثال وأكدوا لها أن كل ما عليها أن تقوله إذا لم يعجبها جناحها هو: لا. لأن الآنسة شيل كانت بالنسبة لهم تمثل ببساطة الدولارات.

أخذت الآنسة شيل حماماً، ارتدت ثيابها، قامت باتصال هاتفى الى رقم في مدينة كينسيفتون، ثم هبطت في المصعد. عبرت الأبواب الدوارة وطلبت سيارة أجرة. حين حضرت السيارة ركبتها وانطلقت متوجهة الى متجر «كارتيه» في شارع بوند.

ما إن ابتعدت السيارة عن محيط فندق سافوي ودخلت شارع ستراند، حتى تطّلع فجأة رجل نحيل أسمر كان يقف متفرجاً على واجهة متجر الى ساعة يده. ثم أشار مستوقفاً سيارة أجرة تعبر بسرعة وكان سائقها تخطى منذ دقيقة وبعماء كلى امرأة منفعة تحمل مشترياتا بعلب كرتونية.

طارد التاكسي طوال شارع ستراند سيارة الأجرة الأولى حيث

حرص على ابقائها في مجال نظره. وفجأة استوقفت السيارتين شارة ضوئية في منعطف ساحة «الطرف الاغر»، فتطلع الرجل الذي في التاكسي الثانية عبر نافذة الجهة اليسرى وقام بإشارة ضئيلة بيده. وعلى الفور، انطلقت سيارة خاصة كانت متوقفة في الطريق الجانبية قرب قوس أميرالي واندست داخل سيل الازدحام ملاحقة سيارة الأجرة.

وعندما تحرك السير من جديد. كانت سيارة الأجرة التي تستقلها أنا شيل تواجه سيل الازدحام المتوجه نحو شارع «بول مول»، وانعطفت سيارة الرجل النحيل الأسمر في اتجاه اليمين متابعة الدوران حول ساحة الطرف الاغر، بينما كانت السيارة الخاصة الرمادية اللون من نوع «ستاندارد» تقترب أكثر فأكثر من السيارة التي تقل أنا شيل. وكان في داخلها راكبان أحدهما السائق وهو شاب وسيم ذو وجه خال من التعبير والآخر امرأة شابة أنيقة.

لاحقت سيارة «ستاندارد» سيارة الأجرة التي تقل أنا شيل طوال شارع البيكاديلي وصعداً حتى شارع بوند ستريت، وهناك توقفت برهة عند حافة الطريق وغادرتها المرأة الشابة، شاكرة سائقها. وبينما تابعت السيارة سيرها، كانت الفتاة الشابة تتمشي على الرصيف وهي ترمق بين الحين والآخر نوافذ السيارات. وعندها توقفت سيارة أنا شيل أمام مدخل محلات «كارتييه» فدفعت أنا شيل أجر التاكسي وولجت متجر الجواهر. بقيت وقتاً تتفحص قطعاً مختلفة من الجواهر. وفي النهاية اختارت خاتماً من الياقوت الأزرق والماس. وحررت شيكاً مسحوباً على أحد المصارف اللندنية، وعند رؤية الاسم المطبوع عليه أصبح الموظف أكثر لطافة معها.

- «أنا سعيد برؤيتك مجدداً في لندن يا آنسة شيل. هل السيد مورغانثال برفقتك؟».

- «لا».

- «كنت أتساءل لأن لدينا مجموعة من الياقوت الفاخر، وأعرف انه مهتم جداً بالياقوت، هل تودين رؤية المجموعة؟».

أبدت الآنسة رغبتها برؤيتها وأعجبت بها بالتأكيد ووعدت أن تتوّه بها أمام السيد مورغانثال.

خرجت بعدها الى شارع بوند ستريت بينما تملّصت المرأة الشابة من البائع، وكانت تتفحص أقراطاً من الحلق، مدعية انها غير قادرة على الاختيار وانسلت الى الخارج.

السيارة الستاندرد الرمادية، التي كانت انعطفت الى يسار شارع غرافتون وانحدرت وصولاً الى شارع بيكاديلي، كانت تصل الآن أعلى شارع بوند ستريت، غير أن المرأة الشابة لم تبدِ أبداً أي انتباه لها.

انعطفت أنا شيل ودخلت شارع الأركايد، حيث دخلت هناك متجر زهور وطلبت ثلاث دزينات من الورد بجذوع طويلة، وباقة كبيرة من البنفسج القرمزي الرائع، ودزينة من الشقائق البيضاء وأخيراً جرة ميموزا. ثم كتبت عنواناً على بطاقة وطلبت ارسال الزهور الى ذلك العنوان.

- «المجموع هو اثنا عشر جنيتهاً وثمانية عشر شلناً يا سيدتي».

دفعت أنا شيل المبلغ وغادرت. بينما كانت المرأة الشابة قد دخلت للتو الى محل الزهور فسألت عن سعر زهور الربيع، إلا أنها

لم تشتر شيئاً وانطلقت تطارد أنا شيل.

قطعت أنا شيل شارع بوند ستريت، ثم شارع بيرلينغتون وتحولت لتدخل شارع «سافيل رو». وهناك دخلت مؤسسة أحد الخياطين المختصين بالملابس الرجالية، الذي يتنازل أحياناً ويخط بدلة لسيدة من سيدات المجتمع المتميزات.

استقبل السيد بولفورد الأنسة شيل استقبالاً يليق بزوج من مهم واستعرض لها مجموعة من الأقمشة.

- «لحسن الحظ أستطيع أن أقدم لك النوع الذي نستورده نحن. متى ستعودين الى نيويورك يا آنسة شيل؟».

- «في الثالث والعشرين من الشهر الجاري».

- «نستطيع انجاز البدلة خلال هذا الوقت».

- «جيد».

- «كيف هي الأحوال في أميركا؟ الأحوال هنا تعيسة جداً - بائسة جداً في الواقع». هز السيد بولفورد رأسه مثل طبيب بصدد تصوير حالة مريض. وأردف قائلاً: «لا روح في الأشياء. أتفهمين ما أقصد. لم يعد أحد يفتخر بانجاز عمل جيد. هل تعرفين من سيفصل بدلتك يا آنسة شيل؟ السيد لانتويك، عمره ٧٢ عاماً وهو الوحيد الذي أستطيع أن أثق به ليفصل بدلات أفضل زبائننا. أما الآخرون...».

وعندها بلع السيد بولفورد ريقه وتنحنح وتابع قائلاً:

«الجودة هذا ما اشتهرت به هذه البلاد. الجودة! لا للأشياء الرخيصة، لا للأشياء المبهرجة. حين نجرب افتاح كميات كبيرة

نفشل، وهذه حقيقة جليّة. هذا اختصاص بلدك يا آنسة شيل وهذا ما يجب أن تكافح من أجله، وأقولها ثانية انها الجودة، ننجز عملنا برويةً وبعناء ونقدم أصنافاً ليس بمقدور أحد مضاهاتها. أي يوم نحدد موعد التجربة الأولى للثوب؟ الأسبوع القادم في مثل هذا اليوم؟ عند الساعة الحادية عشرة؟ شكراً جزيلاً».

شَقَّتْ أنا شيل طريقها وسط أكداس القماش البالية والقاتمة، وخرجت الى ضوء النهار مجدداً ولوّحت لسيارة أجرة وعادت الى السافوي. في هذا الحين توقفت سيارة أجرة وفي داخلها الرجل النحيل الاسمر الى الجانب الآخر من الطريق، بعدما سلكت الطريق نفسها. غير أنها لم تدخل باحة فندق السافوي. ثم انطلقت لتدور حول سور الفندق، وفي مكان ما هناك توقفت لتتنضم اليها امرأة قصيرة سمينة كانت خرجت لتوها من باب الخدمات التابعة للفندق.

- «ماذا اكتشفت يا لويزا؟ هل تسلّلت الى غرفتها؟».

- «نعم. لا شيء».

تناولت أنا شيل طعام الغداء في المطعم. حيث كانت قد حجزت لنفسها طاولة قرب النافذة، وباهتمام بالغ استعلم مدير الفندق عن صحة السيد مورغانثال.

بعد الغداء أخذت مفتاحها وصعدت الى جناحها. كان السرير مرتباً ووضعت مناشف جديدة في الحمام وكان كل ما في الجناح في منتهى الأناقة. اقتربت أنا من حقيبتتي السفر الخفيفتين، وكانت احدهما مفتوحة والآخرى مقفلة. حدقت في محتويات الحقيبة المفتوحة، ثم انتشلت مفاتيحها وفتحت الأخرى. كان كل شيء فيها مرتباً ومطوياً كما وضّبت هي، وفي الظاهر لم يبدو أن أحداً لمس أو

نبتش أي شيء فيها. على رأس المحتويات تمددت حقيبة يد جلدية صغيرة، وفي إحدى الزوايا وضعت آلة تصوير من نوع لايكا وفيلمين. كان الفيلمان لا يزالان مختومين. مررت أنا أحد أظافرها فوق حاشية الحقيبة ورفعتها. ثم ابتسمت برقة. فالشعرة الشقراء غير المرئية تقريباً التي كانت وضعتها هناك لم تكن. نثرت برشاقة قليلاً من البودرة على جلد حقيبة اليد اللمّاع ونفخته. بقيت حقيبة اليد نظيفة ولمّاعة. لم يكن هناك بصمات. مع أنها كانت في الصباح قد أمسكت الحقيبة بيدها بعدما مسحت بها قليلاً من المستحضر الزيتي على قبعتها؛ فكان من المفروض أن يكون على الحقيبة بصمات، بصماتها هي نفسها.

وابتسمت مرة أخرى.

- «عمل جيد» تمتعت لنفسها، «لكنه ليس جيداً كفاية».

جعلت توضع بصمت حقيبة للاستخدام اليومي ونزلت من جديد الى بهو الفندق حيث أقلتها سيارة تاكسي انطلقت بها الى الرقم ١٧ في شارع حدائق «إلس لايت».

كان شارع حدائق «إلس لايت» هادئاً. دفعت أنا أجر التاكسي وهرولت صاعدة الدرجات الى الباب الأمامي المتقشر، وضغطت الجرس وخلال دقائق معدودة فتحت امرأة كهلة بوجه تبدو عليه الريبة والحذر، ولكنه سرعان ما تحول مرحباً.

- «سوف تبتهج الآنسة إلسي كثيراً برؤيتك! إنها في غرفة الجلوس في المؤخرة. ان فكرة قدومك كانت الشيء الوحيد الذي رفع معنوياتها».

عجلت آنا عبر الرواق وفتحت الباب عند نهايته. كانت الغرفة ضيقة وبالية ولكنها مريحة بكنباتها الجلدية الرثة. المرأة الجالسة على احداها قفزت واقفة في الحال.

- «آنا، حبيبتي».

- «إلسي».

تعانقت المرأتان بحرارة.

- «كل شيء معد» انبرت إلسي، «سأذهب الليلة. أمل ذلك...».

- «تشجعي». وأضافت آنا، «كل شيء يسير على ما يرام».

- ٢ -

دخل الرجل الاسمر النحيل بمعطفه كشك الهاتف العمومي في محطة شارع «هاي كينسيغتون» وطلب رقماً.

- «هل هنا شركة فتح الله للفونوغراف؟».

- «نعم».

- «هنا ساندروز».

- «ساندروز النهري؟، أي نهر؟».

- «نهر دجلة. هذا تقريرى عن أ. ش. وصلت هذا الصباح من نيويورك. توجهت الى متجر كارتية وابتاعت خاتماً من الياقوت والماس ثمنه مئة وعشرون باونداً. ثم ذهبت الى متجر زهور لصاحبه جاين كنت واشترت زهوراً بمبلغ ١٢ جنيهًا و١٨ شلناً لتسلم الى مستشفى في «بورتلاند بلايس». أوصت بعدها على

معطف وتنورة في مؤسسة بولفورد وأفوري للخياطة. لا يشتبه بأي من هذه المؤسسات أو المتاجر، لكنها ستبقى تحت المراقبة في المستقبل. جرى التسلل الى غرفة أ. ش. لم يوجد أي شيء مثير للشبهات فيها. حقيبة يد داخل حقيبة سفر احتوت أوراقاً تخص شركة بايبر هيرغر وولفينشتاينز. كل الأشياء كانت موضوعة بشكل طبيعي. كاميرا وفيلمان غير مستعملين ظاهرياً، محتمل أن يكونا من نوع التسجيلات الفوتوستاتية. بذلنا الفيلم وتحققنا لاحقاً أنهم الأساسيان: فهما غير مستخدمين أبداً. حملت أ. ش حقيبة صغيرة وتوجهت الى عند شقيقتها في ١٧ شارع «إلمس لايت». ستدخل شقيقتها هذا المساء مستشفى في بورتلاند بلايس لإجراء عملية جراحية داخلية. تأكدنا من ذلك عبر المستشفى ومن دفتر مواعيد الطبيب الجراح.

زيارة أ. ش تبدو كلياً خارج الشبهات. لم تُظهر أي ارتباك ولم يبد عليها أنها لاحظت أنها ملاحقة. علمنا أنها ستقضي هذه الليلة في المستشفى. اختفظت بجناحها في السافوي. ستعود الى نيويورك في الثالث والعشرين من هذا الشهر، وقد حجزت بطاقتها مسبقاً. وقف الرجل الذي دعا نفسه ساندروز النهري وأضاف قائلاً وكأنما لا علاقة له بالتقرير:

«وإن كنت تسأل رأيي فكل هذا سراب. انها تبدد أموالاً كيفما كان، هذا كل ما تقوم به. تصرف ١٢ جنيهها و١٨ شلناً على الزهور! ما رأيك؟».



الفصل الرابع

- ١ -

كان مزاج فيكتوريا العفوي المرح يمنعها من التوقع، ولولديقة واحدة، أي احتمال لفشل هدفها. لم تكن بالفتاة الحاملة أو المستسلمة. وكان من سوء حظها أن تقع في غرام شاب جذاب، وإن يكون ذلك الشاب على وشك الرحيل الى مكان ناء يبعد ما يقارب الثلاثة آلاف ميل. كان يحتمل بكل بساطة ان يغادر الى أبردين أو بروكسيل أو حتى برمنغهام.

خطر لففيكتوريا أن من سوء طالعها ان تكون وجهة سفره بغداد. وقررت الوصول الى بغداد بطريقة أو بأخرى. ومهما كانت صعوبة الامر. مشت على امتداد شارع محكمة توتنهام وهي تستنبط الوسائل والطرق التي تؤدي إليها.

بغداد... ماذا يجري في بغداد؟

حسب إدوارد: «مهمة ثقافية». هل تستطيع بطريقة ما الوصول عبر قناة الثقافة؟ اليونسكو؟ منظمة اليونسكو التي تقوم باستمرار بارسال البعثات الى هنا وهناك ومعظم الامكنة وأحياناً الى الامكنة

الأكثر بهجة. لكن فيكتوريا عادت وفكرت أن الفتيات الموفدات هن عادة من الفتيات المتميزات والحائزات على شهادات جامعية ومنخرطات في هذا النشاط منذ زمن طويل.

قررت فيكتوريا أنه ينبغي أولاً التصرف حسب الأولويات، وهكذا انعطفت لتدخل وكالة سفريات وهناك استعلمت عن الأمر. كان يبدو أن لا صعوبة في السفر الى بغداد. يمكن السفر جواً وبحراً أيضاً الى ميناء البصرة، وبالقطار عبر مرسيليا، وكذلك أيضاً في الباخرة الى بيروت ومنها عبر الصحراء بواسطة السيارة. ويمكن الوصول أيضاً عبر مصر. وبالإمكان أيضاً قطع كل الرحلة بواسطة القطار. غير أن سمات الدخول الى بغداد صعبة المنال حالياً ولا يمكن التأكد من منحها؛ ويحصل أحياناً أن تنتهي فترة السمة المعطاة قبل حصولك عليها. كانت بغداد ضمن منطقة نفوذ الجنيه الاسترليني، فلن تشكل قضية العملة أي عقبة. وقد اكتشفت بعد كل تحرياتها في النهاية أن لا مشكلة إطلاقاً في الحصول على سمة دخول الى بغداد طالما أن في حوزتك بين الستين والمئة جنيه نقداً.

كان كل ما في حوزة فيكتوريا ثلاثة جنيهات (إلا تسع بنسات) إضافة إلى ذلك خمسة جنيهات في حسابها المصرفي، لذا كانت هذه الطريقة رابع المستحيالات.

استعلمت بجدية عن امكانية العمل كمضيفة طيران أو خادمة على ظهر باخرة. غير أن هاتين الوظيفتين حسبما فهمت مرغوبتان بشكل غير معقول، وأن هناك لائحة انتظار لهما طويلة.

قامت فيكتوريا بعدئذ بزيارة لوكالة غيلدريك، الأنسة سبانسر

الجالسة وراء مكتب أنيق رحّبت بها ترحيباً خاصاً باللواتي يترددن مراراً الى المكتب.

- «ربّاه. لا تقولي لي يا آنسة جونز انك فقدت وظيفتك مرة أخرى. كنت أرجو أن تكون هذه الأخيرة...».

ردت فيكتوريا بحزم: «كارثة بالفعل ليس بوسعي أن أخبرك بما عانيت».

لوح احمرار خجول وجنتي الأنسة سبانسر الشاحبتين. وانبرت قائلة: «لا. أتمنى ألا تفعلي. لم أتصور أنه من هذا الصنف. ولكنه بالطبع فظ بعض الشيء، أرجو أن...».

- «ان الأمر على ما يرام»، وقد رسمت على وجهها ابتسامة رائعة، استطيع تدبّر أموري».

- «آه. بالطبع. اقصد أن في الأمر مرارة».

- «أجل» وأضافت فيكتوريا: «هذا مزعج. على أية حال...»، وابتسمت بشجاعة مرة أخرى.

تفحصت الأنسة سبانسر دفاترها. وبدأت بالقول: «مركز سانت ليونارد لمساعدة الأمهات غير المتزوجات يطلب سكرتيرة. وهم بالطبع لا يدفعون الكثير...».

سألتها فيكتوريا مقاطعة: «هل من الممكن الحصول على وظيفة في بغداد؟».

سألت الأنسة سبانسر بدهشة عارمة: «في بغداد؟». رأت فيكتوريا أنه كان من الأفضل لو أنها قالت في كامشاتكا في القطب الجنوبي.

وأردفت فيكتوريا: «أود من كل قلبي الذهاب الى بغداد».

- «لا اظن.. انقصددين العمل كسكرتيرة؟».

ردت فيكتوريا: «في أي شكل، كمرضة، أو طبّاخة، أو لإعثناء
بمجنون. في أي شكل ممكن».

هزت الأنسة سبانسر رأسها سلباً:

- «أخشى أنني لا أستطيع أن أعدك بالشيء الكثير. حضرت
البارحة سيدة مع فتاتين صغيرتين وهي ترغب في استخدام احداهن
في استراليا».

رفضت فيكتوريا كلياً فكرة استراليا.

نهضت وقالت: «إن جاك أي عرض من هذا القبيل. ولو باجرة
السفر فقط أعلميني. هذا كل ما أحتاج اليه». وواجهت حشيرة
عيني المرأة الأخرى مفسّرة: «لدي اقارب هناك، وعلمت أن هناك
الكثير من الوظائف العالية الأجر. لكن بالطبع ينبغي أن نصل الى
هناك أولاً».

- «أجل»، رددت فيكتوريا لنفسها وهي تغادر مكتب سانت
غيلدريك، «ينبغي أن يصل الواحد الى هناك».

ضاعف من ضيق فيكتوريا، وكما يحدث عادة حين ينشُد انتباه
مطلق فرد الى اسم أو غرض معين، احساسها أن كل الأشياء
وكأنما تتآمر فجأة لاجبارها على التفكير في بغداد.

قرأت في فقرة صغيرة في جريدة المساء التي ابتاعتها أن الدكتور
باونسيفوت جونز وهو عالم أثار مشهور بدأ التنقيب في مدينة
مورف القديمة والتي تبعد مئة وعشرين ميلاً عن بغداد. وقرأت

كذلك اعلاناً عن خطوط شحن بحري الى البصرة (وكذلك في
القطار الى بغداد والموصل و... الخ). ولاحظت في صحيفة
قديمة عند حافة جارور جواربها، سطوراً قليلة عن تلامذة
يدرسون في بغداد.

في صالة السينما المحلية كانوا يعرضون فيلم «لص بغداد». وفي
مكتبة رفيعة المستوى، اعتادت التحديق في واجهتها، عرضت
بشكل بارز سيرة جديدة لهارون الرشيد خليفة بغداد.

بدا لها وكأن العالم بأسره أصبح فجأة منتبهاً الى بغداد.
والعجب أنها قبيل تلك الظهيرة وتقريباً عند الساعة الثانية إلا ربعاً،
لم تكن سمعت ببغداد. وبالتأكيد لم تفكر بها البتة.

كانت احتمالات الوصول الى هناك ضئيلة، إلا أنها لم تفكر
بالاستسلام أبداً. لقد كانت خلّاقة متفائلة ومقتنعة بأن هناك دائماً
سبيلاً للفلاح إن أراد المرء تحقيق أمر ما.

صرفت معظم العشية وهي تستعرض لائحة بالأساليب المحتملة
لتحقيق مرادها؟ وكانت اللائحة كالآتي:

- المحاولة عبر وزارة الخارجية؟

- عبر اعلان في الصحف؟

- المحاولة عبر المفوضية العراقية؟

- مصانع التمر؟

- شركات الشحن البحري؟

- القنصلية البريطانية؟

- مكتب سلفريدج للاستعلامات؟

- مكتب خدمة المواطن؟

كانت في طيات نفسها مقتنعة تماماً أن أياً من هذه الاحتمالات
لم يكن محتملاً. وأضافت إلى اللائحة:
«بطريقة أو بأخرى، احصلي على مئة جنيه».

- ٢ -

الجهد الذهني الكثيف الذي بذلته فيكتوريا في الليل الفائت،
وربما أيضاً الاكتفاء الذاتي الداخلي بعدم اضطرابها للمثول إلى
المكتب عند تمام الساعة التاسعة، جعلها تستغرق ارادياً في النوم.
استفاقت عند الساعة العاشرة وخمس دقائق. وعلى الفور وثبت
من الفراش وبدأت ترتدي ملابسها. كانت على وشك الانتهاء من
تمشيط شعرها الأسود الأشعث حين رن الهاتف.
رفعت فيكتوريا السماعة.

من الجانب الآخر سُمع صوت الأنسة سبانسر المهتاج.

- «ماذا؟»، صرخت فيكتوريا.

- «إنها مصادفة مذهلة. ثمة سيدة تدعى هاميلتون كليب
مسافرة بعد ثلاثة أيام إلى بغداد، وقد أصيبت بكسر في يدها فهي
في حاجة إلى من يساعدها أثناء الرحلة. لقد اتصلت بك توأ. لا أعلم
إن كنت اتصلت أيضاً بمكاتب توظيف أخرى».

- «أنا قادمة حالاً»، وأردفت فيكتوريا، «أين هي؟».

«في فندق سافوي».

- «ما هو الاسم السخيف الذي تحمله؟ اهو ترتيب؟».

- «أجل يا عزيزتي كليب. ذلك لأنها أميركية». هكذا أنهت
الآنسة سبانسر مفسرة لها كل شيء.

- «السيدة كليب في فندق السافوي».

- «السيد والسيدة كليب. في الواقع كان الزوج هو من اتصل».

انبرت فيكتوريا قائلة: «أنت ملاك. وداعاً».

مسحت ثوبها بالفرشاة على عجل وتمنت لو أن حالته أفضل
بقليل. سرحت شعرها مجدداً لكي يبدو اصفر حجماً وأكثر ملاءمة
لدورها كملاك حارس، ورخالة متمرسة. ثم انتشلت كتاب توصية
السيد غرينهولز وحققت فيه وهي تهز برأسها.

قالت فيكتوريا: «ينبغي أن أكتب واحدة أفضل».

وصلت فيكتوريا بواسطة الباص رقم ١٩ إلى شارع غرين بارك
ودخلت فندق ريتز. دخلت غرفة المطالعة ونصت لنفسها كتاب
توصية فاحراً ووقعته باسم الليدي سينتيا برادبوري.

كتبت فيكتوريا: «تعتني بالمرضى بشكل عظيم» ويمكن
الاعتماد عليها في معظم الأمور».

مغادرة فندق ريتز، قطعت الطريق واجتازت معبراً لتصل الى
شارع البر مارل وأدركت أخيراً فندق بالدرتون المشهور كماوى
لكبار الاساقفة والعجائز المحترمين القادمين من القرى. فدخلت الى
غرفة المطالعة وكتبت لنفسها بخط يد أقل حيوية توصية من أسقف
منطقة لانغو.

وهكذا بعثاد كامل ركبت فيكتوريا مجدداً الباص رقم ١٩
وتابعت نحو فندق سافوي.

سألت في مكتب الاستعلامات عن السيدة هاميلتون كليب.
وعرّفت عن نفسها بأنها مبعوثة من قبل وكالة سانت غيلدرينك
للتوظيف. كان الموظف على وشك انتشارال سماعة الهاتف حين توقف
ناظراً وقال:

- «ها هو السيد هاميلتون كليب».

كان السيد هاميلتون كليب طويلاً جداً، نحيلاً جداً ذا شعر
رمادي على الطريقة الأميركية. كان لطيف السيماء ويتكلم بهدوء
وتأن.

عرّفت فيكتوريا بنفسها وذكرت اسم الوكالة التي أرسلتها.
لقد تأخرت يا آنسة جونز، من الأفضل أن تصعدي فوراً وتقابلي
السيدة كليب. فهي لما نزل في جناحنا. أقدّر أنها تقابل فتاة ما
أخرى. وقد تكون غادرت الآن.

انعصر قلب فيكتوريا خوفاً بارداً وأخذت تتسائل: «هل من
المعقول أن يكون الامر قريباً وبعيداً الى هذا الحد؟».

استقلا المصعد الى الطبقة الثالثة.

بينما كانا يخترقان الرواق العميق المكسو بالسجاد، اندفعت
امرأة شابة من باب عند نهايته وتقدمت نحوهما. أصاب فيكتوريا
ما يشبه الهلوسة انها هي بالذات تلك الفتاة المنافسة لها. خطرلها
أن ثوب تلك الشابة الأنيق والذي كانت تود لو كانت هي من يرتديه،
كان ربما سبب ما حل بها. «ثم انه يناسب قياسي. إنها ترتدي

قياسي بالذات»، قالت في سرها ثم أردفت، «آه كم أود أن أنتزعه عنها». وكأنما تملكها فجأة ردة الى وحشية الأنثى البدائية.

تجاوزتهما المرأة الشابة. كانت تعتمر قبعة مخملية على جهة من شعرها الجميل فتحجب قسماً من وجهها، لكن السيد هاميلتون استدار ونظر اليها وبدا مندهشاً.

- «يا للمصادفة»، مخاطباً نفسه، «ما كان يخطر هذا ببالي! أنا شيل؟».

أضاف بعدها مبرراً:

- «عفواً يا آنسة جونز. كل ما في الأمر أنني فوجئت برؤية امرأة شابة كنت شاهدتها في نيويورك منذ أسبوع فقط. انها سكرتيرة في أحد أضخم مصارفنا العالمية».

توقف عن الكلام عند أحد المداخل في الرواق. كان المفتاح داخل القفل. قرع السيد هاميلتون بخفة ثم فتح الباب وتنحى جانباً مفسحاً ليفيكتوريا كي تتقدمه الى داخل الغرفة.

كانت السيدة هاميلتون كليب مستريحة على كنبه ذات ظهر مرتفع إزاء النافذة، وهبت واقفة عند دخولهما. كانت امرأة قصيرة، جسمها أشبه بجسم عصفور وذات عينين حادتين. كان ذراعها الايمن مكسوً بالجص.

بعد أن قدمها السيد هاميلتون أجابت السيدة كليب: «يا لسوء الحظ، ها قد كنّا في أوج رحلتنا، ونستمتع بإقامتنا في لندن وكل برامجننا جاهزة والحجوزات مؤكدة. أنا متوجهة لزيارة شقيقتي المتزوجة في العراق يا آنسة جونز. لم أشاهدها منذ سنتين تقريباً.

ما كنت أتصور البتة أن أسقط وأكسر يدي. في الواقع حدث ذلك في دير وستمينيستر. تدرجت فوق درجات حجرية وها أنذا. نقلوني بسرعة الى المستشفى وعالجوني. الأمر برمته غير مريح البتة. ولكنه حصل. أشعر أنني عاجزة، كيف سأندبر أمري وأسافر. لا أعرف. لدى زوجي جورج ارتباطات عمل وليس بوسعه أن يغادر قبل ثلاثة أسابيع. أقترح علي أن أستعين بمرضة لمرافقتي. لكن الحقيقة أنني لست بحاجة الى أي ممرضة ما إن أصل هناك، تستطيع شقيقتي سادي أن تقوم بكل ما هو متوجب، بما في ذلك دفع ثمن بطاقة العودة للممرضة. وهكذا قررت الاتصال بوكالات التوظيف إن كان هناك أحد يرغب في مرافقتي من أجل السفر فقط.

- «لست ممرضة تماماً» قالت فيكتوريا بطريقة توحى انها عملياً تمارس هذه المهنة: «لكن لدي خبرة جيدة في مجال التمريض. ثم قدمت شهادة التوصية الأولى قائلة: «كنت مرافقة لليدي سينتيا برادبوري لمدة سنة. وإن كنتم بحاجة الى تحرير بعض الرسائل أو عمل سكرتاري، في وسعي القيام بذلك، لقد عملت كسكرتيرة عند عمي لبضعة أشهر». وأضافت فيكتوريا بتواضع «عمي هو اسقف لانغو».

- «هل حقاً عمك اسقف؟ رياه كم هذا رائع!».

خطر ليفيكتوريا انها قد أعطت ولا بد، انطباعاً حسناً لدى السيد والسيدة كليب، (ولا بد أنهما سيوافقان بعد كل هذه المشقة التي بذلتها).

ناولت السيدة كليب شهادتي التوصية الى زوجها.

- «هذا رائع بالفعل» انبرت تقول بوقار، «انها العناية الإلهية.
لقد استجيبَت الصلوات».

وخطر ليفيكتوريا أن هذا هو ما حدث بالفعل.

سألتها السيدة كليب: «هل تسافرين للالتحاق بوظيفة ما هناك؟
أم لزيارة قريب لك؟».

ابان اضطرابها الشديد في اختلاق شهادات التوصية، نسيت
فيكتوريا كلياً أنها قد تضطر الى تبرير نيتها في السفر الى بغداد.
تحت وطأة المفاجأة كان عليها أن ترتجل سبباً وفي سرعة. وعاد الى
ذهنها الفقرة التي كانت قراتها في الامس.

- «إنني ذاهبة للتحق بعلمي هناك. انه الدكتور بانسفوت جونز».

- «حقاً؟ عالم الآثار؟».

- «أجل». وتساءلت فيكتوريا للحظة ما إذا كان من المناسب أن
تذكر كل هذا العدد من الأعمام المتميزين. «أنا مهتمة جداً بعمله.
لكنني لا املك بالتأكيد أية مؤهلات خاصة، لهذا كان من غير الممكن
أبداً أن تدفع بعثة التنقيب تكاليف سفري! نفقاتهم محدودة. ولكن
ان قدر لي السفر على حسابي الخاص، فسأستطيع عندها
الانضمام اليهم وسأفعل ما بوسعني لمساعدتهم».

قالت السيدة كليب: «لا بد وانه عمل مثير للغاية. وبلاد ما بين
النهرين هي بالتأكيد مكان عظيم لعلم الآثار».

انبرت فيكتوريا قائلة: «أخشى أن يكون عمي الأسقف في طريقه
الآن الى اسكوتلندا. لكنني أستطيع أن أعطيك رقم هاتف سكرتيرته.
انها باقية في لندن. الرقم هو ٨٧٦٩٣ (ببيليكو) وهو أحد امتدادات

منطقة قصر فولهام. انها هناك في أي وقت بعد الساعة (ورمقت فيكتوريا ساعة الحائط في المقابل) ١١:٣٠. يمكنك ان أردت الاتصال بها والاستعلام عني».

- «ما الداعي. أنا واثقة...» بادرت السيدة كليب إلى القول، إلا أن زوجها قاطعها قائلاً:

- «ليس لدينا متسع من الوقت كما تعرفين. الطائرة ستغادر بعد غد. هل لديك جواز سفر يا آنسة جونز؟».

- «نعم». وشعرت فيكتوريا بالامتنان لرحلتها القصيرة الى فرنسا في العام المنصرم، لأن جواز سفرها لم يزل صالحاً. «لقد أحضرته معي في حقيبتني».

انبرى السيد كليب إلى القول في حماسة: «ممتاز، هذا ما أدعوه بالروح العملية». لو كان هناك أي منافس لها، لكان الآن مُني بالفشل. كانت التوصيات الجيدة، وأهمية أعمامها اضافة الى جواز سفرها الجاهز مواصفات أكثر من كافية لحسم الموقف.

قال السيد كليب: «سوف تحتاجين الى سمات دخول»، وتناول منها جواز السفر، «سوف أذهب الى صديقنا السيد بورجيون في «الأميركان اكسبريس»، وسوف يرتب كل شيء. من المفضل أن تعودي هذا المساء ربما هو بحاجة الى توقيعك».

وافقت فيكتوريا بطيبة خاطر.

ما إن انغلق باب الغرفة وراءها حتى سمعت السيدة هاميلتون تقول لزوجها:

- «يا لها من فتاة مستقيمة. إننا، حقاً، محظوظان».

توردت فيكتوريا خجلاً وهي تسرع عائدة الى شقتها وتسمرت
قرب الهاتف تستعد للإجابة بلكنة راقية ورقيقة تليق بسكرتيرة
أسقف ولتأكيد قدراتها في حال اتصلت السيدة كليب للاستعلام.
إلا أن السيدة كليب كانت أخذت انطباعاً حسناً جداً بشأن
استقامة شخصية فيكتوريا. ولهذا لم تكلف نفسها عناء القيام
بهذه التقنيات. في النهاية كان ارتباطهما مع فيكتوريا لمدة أيام قليلة
فقط كرفيقة سفر.

جرت الأمور كما كان مقرراً لها، أنجزت الأوراق المطلوبة
وسمات الدخول التي تحتاجها. وكان على فيكتوريا أن تقضي الليلة
الآخيرة في فندق سافوي لتساعد السيدة كليب على النهوض باكراً
عند الساعة السابعة ومرافقتها الى مطار هيثرو.

الفصل الخامس

المركب الذي كان قد غادر المستنقعات قبل يومين تقدم الآن بهدوء عبر شط العرب. كان التيار سريعاً وما كان على الرجل العجوز الذي كان يسيّره القيام بالشيء الكثير. كانت حركته لطيفة ومتواترة. كانت عيناه نصف منغلقتين. كان يهمهم مغنياً بنعومة أغنية عربية لا متناهية.

في مناسبات أخرى غير معدودة قطع عبدالسليمان أحد عرب المستنقع، النهر الى البصرة. هذه المرة كان هناك رجل آخر معه في المركب. كان ذا هيئة مألوفة هذه الايام تخلط في زيّها بشكل شاذ بين الشرقي والغربي. فوق ثوبه الطويل من القطن المقلّم كان يرتدي سترة كاكية بالية، عتيقة مبقعة وممزقة. كان يضع أيضاً شالاً أحمر باهتاً حشره في معطفه المهلهل. غير أن رأسه أنقذ أخيراً شرف الرداء العربي؛ حيث كانت الكوفية وهي الزي التقليدي سوداء وبيضاء مشدودة في مكانها بواسطة عقال حريري. كانت عيناه غير المركّزتين محمّلتين وتنظران بضعف الى رصيف النهر. وفي الوقت نفسه بدأ هو أيضاً يهمهم الأغنية نفسها وبالوقع عينه. كان يشبه آلفاً من الوجوه الأخرى في منطقة بلاد ما بين النهرين. لم يكن هناك أبداً ما يدل على أنه انكليزي ويحمل معه سراً يجاهد رجال

مهمون في كل بلدان العالم تقريباً من أجل اعتراضه وتدمير السرحامله.

عاد بذهنه وأخذ يستعرض بغموض الأسابيع الأخيرة الماضية الكمين في الجبال، الصقيع الجليدي للثلج القادم عبر المعبر، قافلة الجمال. الأيام الأربعة التي قضاها مجاهداً بقدمين عاريتين عبر الصحراء برفقة رجلين يحملان آلة عرض سينمائي صغيرة. الأيام في الخيمة السوداء والتجوال مع قبيلة عنيزة، أصدقائه القدماء. كل هذا كان شاقاً ومحفوفاً بالمخاطر. وكذلك عمليات التسلل تبعاً وتكراراً عبر النطاق المضروب للإمساك به ومنعه من المتابعة.

كان يدعى هنري كارمايكل وهو عميل بريطاني. عمره حوالي الثلاثين. شعره بني. عيناه سوداوان. طوله خمسة أقدام. يتكلم اللغات العربية، الكردية، الفارسية، الأرمنية، الهندوستانية، التركية وعدداً من لهجات الجبال. صديق لرجال القبائل. خطير.

ولد كارمايكل في كاشغر حيث كان والده موظفاً رسمياً من قبل الحكومة البريطانية. نطق منذ الطفولة عدة لهجات ولغات محلية. كانت مربياته من أصول عرقية مختلفة. وكان له أصدقاء في كل الأمكنة الغربية في الشرق الأوسط.

كانت علاقاته شبه معدومة في المدن والعواصم. والآن وبينما كان يقترب من البصرة أيقن أن اللحظات الأشد خطورة في مهمته قد بدأت. أعاجلاً أم أجلاً سيدخل ولا بد المنطقة المتحضرة. على الرغم من أن بغداد كانت مقصد رحلته الوحيد، فقد كان قرر أنه لن يكون أبداً خياراً حكيماً التوجه إليها مباشرة. في كل بلدة عراقية كان يصلها كانت تنتظره التسهيلات التي كانت نوقشت وحضرت

بعناية قبل أشهر عديدة. كان قد ترك له تقرير مكان توقفه حسبما يرتئي هو بالذات. لم يكن يبعث أي كلمة الى مروؤسيه حتى عبر القنوات غير المباشرة حيث كان بوسعه أن يفعل. كان الأمر هكذا أكثر أماناً. الخطة السهلة - الطائرة التي كانت في انتظاره في موعد محدد - فشلت. كما كان يتوقع أن يحدث. استطاع الأعداء معرفة تاريخ الموعد. تسرب معلومات! دائماً ذلك التسرب القاتل، ذلك التسرب المبهم.

وهكذا تضاعفت خشيته من الخطر. هنا في البصرة وسط المشهد الآمن استشعر، غريزياً، أن الخطر المهدق به قد يكون أعظم ما سيصادفه في رحلته الطائشة. ولم يكن في مقدوره مجرد التفكير بالفشل في هذه المرحلة الأخيرة.

محركاً مجذافيه بتواتر ايقاعي، كان العجوز العربي يهيمهم من غير أن يدير رأسه:

- «لقد دنت اللحظة يا بني. فليباركك الرب».

- «لا تمكث طويلاً في المدينة يا والدي. عد الى المستنقعات. لا أريد أن يصيبك أي سوء».

- «هذه إرادة الله ومشيتته».

وردد الرجل الآخر: «إن شاء الله».

لبرهة تمنى فعلاً لو كان رجلاً شرقياً وليس ذا دم غربي. فلا يقلق بشأن احتمالات النجاح والفشل، ولا يحسب مراراً وتكراراً المصادفات، أو لا يسأل نفسه باستمرار إن كان خطط بذكاء، بل يضع كل المسؤوليات في يد الكلّي الرحمة، الكلّي الحكمة.

- «إن شاء الله سوف أنجح!».

حتى وهو يردد في دخيلته هذه الكلمات أحسّ بسكونية وقدرية هذه البلاد تغمرانه فرحاً.

الآن بعد بضع دقائق سوف يترك القارب ويمشي في شوارع المدينة بين الأبنية والأعين الحادة. قد يتمكن من النجاة بطريقة واحدة فقط هي أن يشعر كعربي وأن يبدو مثله.

انعطف القارب في هدوء في مجرى المياه وفي اتجاه المينة في النهر. حيث كانت أوثقت كل أنواع القوارب النهرية، وكانت مراكب أخرى تدخل أمامهما أو تلحق بهما. كان مشهداً محبباً وأشبه بمنظر البندقية. القوارب بمقدماتها المعقوفة واللوان طلائها الشاحب واللطيف. كان هناك مئات منها مربوطة ملتصقة ببعضها البعض.

سأل الرجل العجوز بكياسة:

- «لقد حانت الساعة. هناك ترتيبات بانتظارك اليس كذلك؟».

- «أجل. خططي جاهزة بالفعل. لقد آن الأوان لكي أغادر».

- «جعل الله طريقك آمنة وأطال عمرك».

شمّر كارمايكل قفطاناه المقلّم وعقده حول خصره وصعد الدرجات الحجرية الزلقة حتى الرصيف في الأعلى.

انتشر حوله أشخاص يوجدون عادة عند ضفتي النهر. صبية صفار، يائعو يرتقال يتجولون بصوانيهم المكسدة بالبضاعة. مربعات حلوى ومربيات دبة. صوانٍ عليها شرائط أحذية وأمشاط رخيصة وقطع من المطاط. كان رجال دين يعبرون وبين الوقت

والآخر يبصقون بصوت أجش. يتجولون في الأرجاء وسبحاتهم تطلق في أيديهم. في الجانب الآخر من الشارع حيث كانت المحال التجارية والمصارف، كان الشبان يسرون بنشاط في بدلات أوروبية مشوبة بمسحة أرجوانية. كان هناك أوروبيون أيضاً، انكليز وأجانب. أحد لم يهتم أو يتطلع بحشوية؛ لأنه لم يكن غير واحد مما يقارب الخمسين رجلاً عربياً نزلوا الى المرفأ من القوارب.

تقدم كارمايكل صامتاً وكانت عيناه تستوعبان المشهد في بهجة تشبه انشداه ولد عاد الى حيّه. بين حين وآخر كان يتنخّع ويبصق لكن ليس بعنف، كان يفعل هذا فقط ليمثل دوره خير تمثيل. تمخّط مرتين بواسطة أصابعه.

وهكذا وصل الغريب إلى المدينة. أدرك الجسر عند آخر القناة، فاجتازته، ثم عبر الى داخل السوق.

هناك كان الصخب والحركة عارمين. كان رجال أقوياء من القبائل يتجولون في كافة الاتجاهات وهم يدفعون كل الذين اعترضوا سبيلهم. كانت الحمير تتجول محملة وكان الباعة يزعمون بأصوات خشنة: «بالك، بالك»... كان صبية يتعاركون، ويطلقون الصرخات ويطاردون الأوروبيين منادين على أمل الحصول على المال: «بخشيش.. يا مدام.. بخشيش. مسكين، مسكين...».

هنا كان انتاجا الغرب والشرق يباعان جنباً الى جنب. قدور من الألومينيوم. كؤوس وأباريق شاي. أوان نحاسية مزينة، وحلي فضية ساعات بخسة، أباريق خزفية مطلية، مطرقات وسجادات مقطعة من إيران. صناديق مطلية بالنحاس الأصفر من الكويت. معاطف و«بنطلونات» مستعملة. سترات من الصوف المحبوك للأطفال.

أغطية للفراش من صنع محلي. مصابيح زجاجية ملوّنة. أكداس من أوعية الماء المصنوعة من الطين وقدر فخارية. كل البضاعة البخسة من الحضارة الى جانب منتجات محلية بدائية.

كان كل شيء طبيعياً وكالمعتاد. بعد رحلته المديدة في الأماكن البرية بدأ الازدحام والفوضى غريبين عليه بعض الشيء، لكنه شعر أن كل شيء كان كما هو معهود، وكذلك لم يسمع أي صوت نافر، ولا إشارة الى أن أحداً ينتبه لوجوده. لكن بالحدس الذي يمتلكه عرف جيداً ولدة سنوات ماذا يعني أن يكون مطارداً، أحس بضيق لا بل باحساس غريب بالخطر. رغم أنه لم يكن قادراً على تبين أي امر يثير الشبهة. لم يتطّلع اليه أحد. كان تقريباً واثقاً أن أحداً لم يكن يطارده أو يراقبه، لكنه شعر واثقاً بخطر محقق ومبهم.

تحول صعوداً في منعطف ضيق مظلم، ومجدداً الى اليمين ثم الى اليسار. أخيراً من بين مجموعات أكشاك صغيرة أطل على مدخل خان ثم تدرّج وعبر المدخل الى الباحة، التي تحيط بها الباحة من كل جانب متاجر مختلفة. توجه كارمايكل نحو أحدها حيث كانت معلقة بعض الفروات وهي معاطف من جلود خراف الشمال. وقف هناك متفحصاً إياها في انتباه. كان صاحب المتجر يقدم القهوة الى زبون. وكان الزبون رجلاً طويلاً ملتحيّاً ولافتاً. حول طربوشه النّفّ شريط أخضر يدلّ على أنه حاجّ كان قد توجه الى مكة المكرمة.

وقف كارمايكل يتفحص باصبعه الفروة.

سأل: «كم ثمنها؟».

- «سبعة دنانير».

- «كثير».

قال الحاج: «هل ستقوم بتسليم السجادات في الخان؟»
رد التاجر «من دون أدنى تأخير. هل ستنتقل غداً عند الفجر
الى كربلاء؟».

انبرى كارمايكل يقول: «أنا من كربلاء. آخر مرة رأيت قبر
الحسين كانت منذ خمس عشرة سنة».

قال الحاج: «إنها مدينة مقدسة».

قال البائع من غير أن يستدير مكلماً كارمايكل: «هناك فروات
أرخص ثمناً داخل المتجر».

- «فروة بيضاء من الشمال، هذا هو مرادي».

أشار البائع الى باب يقع في الجدار الخلفي من المتجر.

تمت الشعائر حسبما خطط سابقاً - حوار يشبه أي حوار يومي
في أي سوق. كان التسلسل دقيقاً. كل الكلمات المفاتيح: كربلاء -
الفروة البيضاء...

إلا أن كارمايكل وهو يعبر المتجر ليدخل الغرفة الداخلية نظر الى
وجه البائع وأيقن على الفور أنه ليس ذاك الذي توقع رؤيته. وعلى
الرغم من أنه لم يكن رأى ذاك الرجل، المتوقعة رؤيته، بالتحديد غير
مرة واحدة من قبل، كان هناك شبه قريب جداً بينهما: غير أنه لم
يكن الرجل نفسه.

توقف قائلاً بنبرة تشوبها مفاجأة فاترة: «أين هو إذن صلاح
حسن؟».

- «كان شقيقي. لقد مات منذ ثلاثة أيام. لقد توليت أنا أعماله».

أجل قد يكون هذا شقيقه فالشبه كان قريباً جداً. وكان يعقل أن

تكون المخابرات قد استخدمته. كانت رداً فعله بالتأكد صحيحة. على أية حال دخل كارمايكل الغرفة الداخلية المعتمة بحذر متعاضم. هناك أيضاً كانت البضاعة مكدسة على الرفوف. أباريق لتحضير القهوة ومطارق من النحاس الأبيض والأصفر لطحن السكر. أوان فضية إيرانية قديمة، كدسات من المطرقات، صوان مطلية من الشام وطقوم فناجين قهوة.

كانت فروة بيضاء مطوية بعناية موضوعة على طاولة صغيرة. توجه كارمايكل نحوها وانتشلها. كان وضع تحتها مجموعة ملابس أوروبية. بدلة عمل مستعملة ومبهرجة بعض الشيء. في الجيب الداخلي حشرت محفظة ومال وأوراق ثبوتية.. الرجل العربي الغريب الذي دخل المتجر سوف يخرج حاملاً اسم السيد والتر وليامس الموظف في شركة السادة كروس وشركاهم وكلاء الاستيراد والشحن البحري. إضافة إلى هذا كانت حددت له مقدماً مجموعة مواعيد ضرورية. لم يكن السيد والتر وليامس شخصية مبتكرة. كان هناك في الواقع رجل حقيقي يحمل الاسم نفسه، (كانوا دقيقين إلى هذه الدرجة) ولهذا الرجل ماضٍ تجاري محترم. تنهد كارمايكل بارتياح وراح يفك أزرار سترته العسكرية الرثة. كان كل شيء على ما يرام.

لو كانوا اختاروا مسدساً ليستخدمه كارمايكل في مهمته لكانت فشلت ولا بد في مرحلة ما. فللخنجر أفضليات قد يكون أهمها الصمت.

على الرف قبالة كارمايكل برز إبريق قهوة نحاسي وكان جرى تلميع ذلك الإبريق بناء لطلب سائح أميركي سوف يعود لابتياحه. انعكس بريق الخنجر على تلك الصفحة المصقولة اللامعة. ظهر

المشهد بكامله لكن بصورة مشوهة. فقد اندفع الرجل المنسل من بين البضاعة المعلقة خلف كارمايكل وهو يستل خنجره من ثنايا ثوبه. كانت تكفي دقيقة واحدة كي ينغرز الخنجر في ظهر كارمايكل.

استدار كارمايكل بسرعة البرق، وعالج الرجل بضربة أسقطته أرضاً. طار الخنجر عبر الغرفة. حرر كارمايكل نفسه في سرعة، وثب فوق جسم الرجل وهرب مخترقاً الغرفة الخارجية. ملقياً نظرة خاطفة لمحت وجه البائع المذهول والحاقد. ثم أصبح خارجاً، عبر الخان وأدرك من جديد السوق المزدحمة. انعطف بعدها متحولاً الى الشارع الاول، ثم آخر. إنه يمشي الآن متمهلاً من غير أن يظهر أي علامة استعجال في بلاد يعتبر فيها السير في سرعة امرأ غير طبيعي.

كان يمشي تقريباً من دون هدف، يتوقف أحياناً لتفحص شيء ما، ليتحسس تركيباً ما، كان عقله يعمل في نشاط عنيف. لقد تعطلت آلية كل المخطط؛ ومرة جديدة وجد نفسه أعزل في مدينة معادية. كان يدرك تماماً معنى ما جرى ولم يكن مرتاحاً لذلك. لم يكن عليه أن يخشى فقط مطارديه من أعدائه. ولم يكن الأمر مجرد أعداء يحرسون مداخل المدينة. كان عليه أن يخشى أعداء من داخل جهاز المخابرات نفسه. لقد انكشفت كلمة السر الآن وأنت ردة الفعل مدروسة ودقيقة. وتم توقيت الهجوم تماماً في اللحظة التي أخذ يشعر فيها بالاطمئنان ولا عجب في ذلك. لا بل ربما تكون هناك خيانة من الداخل. فقد سعى العدو دائماً الى تسريب عميل أو أكثر داخل الجهاز نفسه. أو ربما تمت رشوة الرجل الذي يحتاجون اليه. ان رشوة رجل ما هي امر أسهل بكثير مما نعتقد. يمكن الرشوة بأشياء كثيرة غير المال.

على أية حال لا يهم كيف انكشف المخطط. ها قد حصل. كان فاراً لا شيء يعتمد عليه سوى وسائله الخاصة. من غير مال، ومن غير مساعدة جديدة مزيفة. قد يكون مطارداً في هذه الدقيقة بالذات.

لم يلتفت. ما الفائدة؟ لم يكن مطاردوه مجرد مبتدئين في اللعبة. في هدوء ومن غير هدف تابع يتمشى. خلافاً لتصرفه الكسول كان يراجع في دخليته احتمالات مختلفة. غادر أخيراً السوق وقطع الجسر الصغير فوق القناة. تابع يمشي حتى رأى فتحة كبيرة مطلية فوق مدخل كتبت فوقه عبارة: القنصلية البريطانية.

نظر الى أعلى وأسفل الشارع. لم يظهر أن أحداً أعاره أدنى اهتمام. بدا له أن شيئاً لم يكن أسهل من الدخول الى القنصلية البريطانية. توارد ذلك إلى ذهنه لحظة مشاهدته مصيدة فئران. مصيدة فئران مشرعة وفيها قطعة الجبن المغرية. كان ذلك المشهد سهلاً وبسيطاً جداً في نظر الفأر...

على أية حال كان لا بد من المجازفة. لم يكن يرى حلاً آخر. تقدم ودخل عبر الباب.

الفصل السادس

جلس ريتشارد بايكر في المكتب الخارجي للقنصلية البريطانية في انتظار أن يصبح القنصل قادراً على استقباله.

كان وصل إلى المرفأ ذلك الصباح على متن الباخرة «إنديان كوين» ومر بحقائبه عبر الجمارك. وكان معظمها يضم كتباً تتناثر وبينها بيجامته وقمصانه وكأنما وضعت في آخر لحظة.

كانت الباخرة «إنديان كوين» وصلت من غير تأخير. وهكذا كسب ريتشارد يومين اضافيين، إذ انه كان توقع أن يتأخر وصوله يومين. وكانت البواخر الصغيرة على شاكلة «الانديان كوين» تتأخر عادة. أمامه الآن يومان إضافيان قبل أن يتابع إلى بغداد وبالتحديد إلى «تل أسود» التي هي هدف رحلته الوحيد وموقع مدينة «مورق» القديمة.

كان البرنامج الذي وضعه لهذين اليومين جاهزاً. زيارة هضبة مشهورة بآثارها القديمة في موقع قرب شاطئ الكويت. كانت هذه فرصة منحتها له السماء ليكتشف تلك الهضبة.

توجه في سيارة اجرة الى فندق المطار واستفهم عن طرق الذهاب الى الكويت. علم أن طائرة سوف تنطلق متوجهة الى الكويت عند

الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي. كان كل شيء بمنتهى السهولة. بالطبع كان يتوجب القيام بالاجراءات الضرورية، مثل سمة الخروج، وأيضاً سمة الدخول الى الكويت. لانجاز هذا كان يتوجب عليه التوجه الى القنصلية البريطانية. كان ريتشارد التقى منذ عدة سنوات القنصل العام الحالي لمدينة البصرة السيد كلايتون في إيران. فكر ريتشارد انه سيكون أمراً طيباً أن يلتقيه مجدداً.

كان للقنصلية مداخل عدة. مدخل أساسي للسيارات. مدخل صغير آخر يمتد من الحديقة الى الطريق الموازية لشط العرب. أما مدخل المراجعات الخاصة فكان على الطريق الرئيسية. دخل ريتشارد وأبرز بطاقته الى الموظف المسؤول، فأفاده أن القنصل مشغول في الوقت الحاضر وسيستقبله بعد وقت قليل. كان عليه أن يتوجه الى غرفة انتظار صغيرة عند يسار الممر الممتد بين المداخل والحديقة في الأعلى.

كان هناك مجموعة أشخاص ينتظرون أيضاً في الغرفة وبالكاد ألقى ريتشارد نظرة اليهم. لم يكن بأية حال مهتماً بأعضاء الجنس البشري. كانت قطعة من إناء أثري عتيق أكثر إثارة لديه من مجرد إنسان مولود في مكان ما في القرن العشرين.

راح يفكر هائناً بتفاصيل تتعلق بحروف الـ «ماري»، وتنقلات قبائل «البنجامينيت» في عام ١٧٥٠ قبل الميلاد.

كان من الصعب بالتأكيد تفسير ما أيقظ فيه حسّ الحاضر الحيّ بأقرانه البشر. شعر أولاً بضيق، بتوتر مخيم. توجّس ذلك وكأنما عبر أنفه، لم يكن متأكداً. ولم يكن بوسعه تشخيص ذلك في

تعابير واضحة. لكن الشعور الغريب هذا كان موجوداً، لا مجال للخطأ وقد عاد به الى الماضي الى أيام في الحرب العالمية الأخيرة. تذكر حادثة معينة حين هبط هو وأربعة رفاق بالمظلات فوق سهل. ثم انتظروا طوال ساعات الفجر الوقت المناسب للقيام بمهمتهم. كانوا محبطين إذ أدركوا بوضوح خطورة ما قد يتعرضون له من مصادفات. كانت فترة الانتظار تلك مرعبة، فترة يتقلّص فيها لحم الإنسان. شعر الآن بالسعة القارصة نفسها، برائحة الهواء المبهمة تلك.

رائحة الموت...

انطبع هذا الشعور لدقائق في لاوعيه. كان نصف عقله لا يزال مأخوذاً بحقبة ما قبل الميلاد. غير أن نداء الحاضر كان أقوى بكثير.

كان أحد ما في الغرفة يعيش رعباً قاتلاً...

جال نظره حوله. كان هناك رجل عربي يرتدي سترة كاكية بالية وكانت أصابعه تنزلق بكسل على السبحة الكهربائية التي أمسكها - كان هناك أيضاً رجل انكليزي بدين بشاربين رماديين. كان تاجراً على ما يبدو وكان يسجل أرقاماً على دفتر صغير وبدا مأخوذاً وجدياً. رجل آخر هزيل ذو وجه متعب، أسمر البشرة، تهالك بارتياح على مقعده. بدا وجهه هادئاً وغير مهتم. رجل آخر بدا وكأنه موظف عراقي. كان هناك أيضاً عجوز إيراني يرتدي ثوباً أبيض. بدوا جميعهم غير مهتمين.

بعثت طقطقات السبحة إيقاعاً متشابهاً. وبدأت في طريقة ما مألوفة. حوّل ريتشارد كل انتباهه الى الصوت. فقد كان على وشك

ان يغفو. كان الايقاع قصيراً - طويلاً - طويلاً - قصيراً - كانت هذه رموز نظام مورس - اشارات نظام مورس بالتأكيد. كان يألف طريقة المورس لأن قسماً من وظيفته إبان الحرب كان يتعلق بسلاح الإشارة. وفي مقدوره قراءة الاشارات بسهولة تامة، أ - و - ي - ل - ف - ل - و - ر - ي - أ - ت - أ - ي - ت - و - ن - أ. يا للشيطان! أجل. هذه هي الرسالة. كان يتردد تباعاً فلولريات إيتونا. شيفرة كان يقرعها (أو بالأحرى يقطعها) عربيّ في ثياب بالية. ماذا يعني هذا؟ أويل. إيتون. أويل.

كان إيتون لقبه هو في مدرسة إيتون - كما أرسل الى هناك بنظارتين عريضتين وغريبتين.

حدق الى الجانب الآخر في الغرفة في الرجل العربي، متبنيًا كل تفاصيل في هيئته: الثوب المقلّم - السترة الكاكية القديمة - الشال الرث، الأحمر المشغول باليد، والمليء بالقطب المحلولة. كان يبدو كأبي واحد من المئات الذين تشاهدهم عند رصيف المرفأ. تلاقى أعينهما من غير أدنى تعبير ولا علامة تدل على معرفة سابقة. غير أن خرزات السبحة تابعت الطقطة. فقير منا. ساعده. مازق.

فقير؟ فقير؟ أجل بالطبع! الفقير كارمايكل! انه طفل ولد وعاش في منطقة نائية من العالم: تركستان، أو أفغانستان؟

انتشل ريتشارد غليونه. أخذ منه نفساً عميقاً مجرباً إياه. حدق في تجويفه ثم طرقه على منفضة مجاورة: «تلقينا الرسالة».

بعد ذلك جرت الأحداث بسرعة فائقة. ولاحقاً وجد ريتشارد صعوبة في تبين ما جرى.

وقف الرجل العربي وقطع الغرفة نحو الباب . تعثّر وهو يمر أمام ريتشارد فمدّ يده وتعلّق به ليحافظ على توازنه . تحامل بعدها ، اعتذر وتابع باتجاه الباب .

ما حدث كان مباغتاً وسريعاً جداً وخيل لريتشارد انه مشاهد من فيلم سينمائي أكثر مما هو حقيقة واقعة . رمى التاجر البدين دفتر ملاحظاته وغرز يده في جيب معطفه بحثاً عن شيء ما . تأخر ثانية أو اثنتين بسبب بدانته وضيق معطفه وهذا كان كافياً كي يتدخل ريتشارد . انتشل الرجل مسدسه . انقض ريتشارد ، وانتزعه من يده . انطلقت الرصاصة لتنتهي مدفونة في أرض الغرفة .

كان الرجل العربي قطع آنذاك باب الغرفة ثم تحوّل نحو مكتب القنصل . لكنه توقف لحظة ليُلْتَف راكضاً بخفة في الاتجاه المعاكس نحو المدخل وإلى ازدحام السوق مجدداً .

عجل حارس القنصلية الى حيث وقف ريتشارد ممسكاً بذراع الرجل الضخم . في هذا الوقت كان الموظف العراقي يقفز مثاراً ، بينما حدق الرجل الأسمر النحيل بانشداه ، وحملق الايراني العجوز في الفضاء من غير انفعال .

قال ريتشارد :

- «بحق الشيطان ماذا تفعل ملوّحاً بمسدس بهذا الشكل؟» .

حلّ الصمت لدقيقة ثم انبرى الرجل البدين بلكنة سوقية :

- «عذراً أيها العجوز . انه مجرد حادث . لقد كنت أخرق» .

- «هراء . كنت ستطلق النار على ذلك الرجل العربي الذي فرّ

للتو» .

- «لا . لا أيها الرجل العجوز. لم أنو أن اطلق النار عليه. وددت فقط أن أفزعه. لقد تعرّفت عليه فقد غشّني مرة وباعني آنية أثرية مزيفة. كان هذا في سبيل المزاح فقط».

كان ريتشارد بايكر رجلاً منطوياً يكره الإعلام. أملى عليه حدسه تقبل التفسير كما هو. في النهاية لم يكن في وسعه إثبات أي شيء. وهل ستكون مكافأته أغنية ورقصة سيقوم بهما من أجله الفقير كارمايكل. وربما كان الأمر يتعلق بمهمة سرية أو تجسسية فلا رقصة ولا أغنية.

أرعى ريتشارد قبضته عن ذراع الرجل. ولاحظ أن هذا الأخير كان يتصبّب عرقاً.

كان حارس القنصلية يتكلم في حماس قائلاً أن ادخال أسلحة الى القنصلية البريطانية هو تصرف سيئ جداً. لم يكن هذا مسموحاً. سوف يغضب القنصل كثيراً.

قال الرجل البدين: «أنا اعتذر. انه حادث بسيط ليس إلّا». ثم حشر بعض المال في يد الحارس الذي رفضه ساخطاً.

انبرى الرجل البدين يقول: «من الأفضل أن أرحل. لن انتظر لأقابل القنصل». ثم ناول ريتشارد بطاقة صغيرة. «هذه بطاقتي أنا أقيم في فندق المطار إن استجد أي شيء، غير أنه كان في الواقع مجرد حادث. مجرد مزحة إن فهمت ما أعني».

راقبه ريتشارد على مضض وهو يبتعد مختالاً ثم ينعطف نحو الشارع في الخارج.

تمنى أن يكون تصّرف بشكل جيد. كان من الصعب على الفرد

التصرف حين تكون الأمور غامضة الى هذا الحد .

انبرى الحارس قائلاً: «في مقدور السيد كلايتون استقبالك الآن» .

تبع ريتشارد الحارس عبر الرواق . وبدأت فتحة ضوء الشمس أكثر اتساعاً . كان مكتب القنصل الى اليمين عند نهاية الرواق . كان السيد كلايتون جالساً وراء مكتبه . كان رجلاً هادئاً أشيب الشعر وبدأ منشغل البال :

- «لا أعرف إن كنت تذكرني؟» ، وأردف ريتشارد ، «لقد التقينا في طهران منذ عامين» .

- «بالطبع ، كنت مع الدكتور باونسفوت جونز . اليس كذلك؟ هل ستلحق به أيضاً هذه السنة؟» .

- «أجل أنا في طريقي اليه الآن ، لكن لدي بضعة أيام قبل ذلك وأود أن أزور الكويت . هل في الأمر صعوبة ما؟» .

- «آه لا . هناك طائرة ستنطلق غداً صباحاً . الرحلة تستغرق ساعة ونصف الساعة . سأبعث برقية الى آرشي غاونت - إنه مقيم هناك . سوف يستقبلك . ويمكنك أن تمكث هنا هذه الليلة» .

اعترض ريتشارد في لطف :

- «في الواقع لا أريد ازعاجكما : أنت والسيدة كلايتون . في مقدوري التوجه الى فندق ما» .

- «لن تجد غرفة شاغرة في فندق المطار . أعرف أن زوجتي ستفرح برؤيتك من جديد . دعني أر . لدينا الآن ضيفان هما السيد كروسبي من شركة النفط وشاب قريب للدكتور راسبون يعمل على

تخليص حقائب كتب من الجمارك. تعال نصعد ونر روزا».

نهض ورافق ريتشارد ليخرجا معاً ويعبرا حديقة مشمسة.
صعدا بضع درجات وأدرگا مسكن القنصل.

دفع جيرالد كلايتون الباب السلكي الواقى عند قمة الدرجات
وقاد ضيفه الى داخل رواق طويل معتم مكسو ببسط جذابة وقطع
مختارة من الاثاث على الجانبين. كان امراً مبهجاً الدخول الى هذه
العملة الباردة بعد وهج الحر في الخارج.

هتف كلايتون: «روزا، روزا» فأطلت السيدة كلايتون التي
عرفها ريتشارد امرأة مرحة ذات حيوية خارقة.

- «هل تذكرين ريتشارد بايكر يا عزيزتي؟ لقد زارنا بمعية
الدكتور باونسفوت في طهران».

- «بكل تأكيد»، ردت السيدة كلايتون مصافحة، «لقد ذهبنا معاً
الى الاسواق وابتعت سجادات رائعة».

كانت السيدة كلايتون تجد متعة كبيرة في اقناع أصدقائها
ومعارفها بابتياح ما كانت تعتبره صفقات تجارية من السوق المحلي،
ولو لم تكن هي من يشتري. فقد كان لديها المام عظيم بالبضاعة
القيمة وكانت تحرز صفقات ممتازة.

رد ريتشارد: «كانت تلك أفضل المشتريات التي قمت بها، أنا
شاكر جداً لنصائحك».

بادر السيد كلايتون قائلاً: «يريد السيد بايكر السفر الى الكويت
غداً. لقد قلت له إنه في وسعنا استقباله هذه الليلة».

انبرى ريتشارد قائلاً: «إن لم يكن هناك أي ازعاج...».

قالت السيدة كلايتون: «بالطبع ليس هناك اي ازعاج. لن تستطيع الحصول على أفضل غرف الضيوف، لأن الكابتن كروسبي يحتلها الآن. لكن في وسعنا أن نؤمن لك اقامة مريحة بمطلق الأحوال. الآن تقوم بشراء صندوق كويتي مزخرف؛ لديهم أشياء جميلة في السوق الآن. جيرالد يمنعني من شراء واحد إضافي على الرغم من أنه سيكون مفيداً جداً لاستيعاب البطانيات الإضافية».

قال السيد كلايتون في هدوء: «إن لديك ثلاثة حتى الآن. الآن ينبغي أن أعود الى المكتب إن كنت تسمح يا سيد بايكر. يبدو أن هناك مشكلة ما في المكتب الخارجي. لقد أطلق أحدهم الرصاص من مسدس، كما فهمت».

انبرت السيدة كلايتون قائلة: «لا بد أنه أحد الشيوخ المحليين. انهم عصبليون للغاية ويعشقون الأسلحة النارية».

قال ريتشارد: «على العكس، لقد كان رجلاً انكليزياً. كان ينوي كما ظهر لي اطلاق النار على رجل عربي». وأضاف في لطافة، «لقد لويت له ذراعه».

قال السيد كلايتون: «لقد شهدت إذن كل ما جرى. لم أعرف أبداً».

ثم انتشل بطاقة من جيبه وقراء، «روبرت هول، أشغال أخيل في أنفيلد. يبدو أن هذا هو اسمه. لا أعرف لماذا رغب في رؤيتي. هل كان سكران؟».

قال ريتشارد ممتعضاً: «ادعى أن الأمر مجرد مزح، وأن الرصاصة انطلقت صدفة».

رفع كلايتون حاجبيه وقال:

- «التجار لا يحملون عادة مسدسات محشوة في جيوبهم».

فكر ريتشارد بأن كلايتون لم يكن أبداً ساذجاً.

- «ربما كان يتوجب عليّ أن أمنعه من المغادرة».

- «لا يعرف الواحد عموماً ماذا ينبغي أن يفعل في ظروف مماثلة.

الم يصب الرجل الذي أطلقت عليه النار؟».

- «لا».

- «ربما من الأفضل إذاً أن نتناسى الأمر».

- «أتساءل ماذا كان وراء ذلك».

- «أجل، أجل... أنا أتساءل أيضاً».

بدا كلايتون شارداً الذهن قليلاً.

- «حسناً ينبغي أن أنطلق عائداً» تمتم هذا وعجل مغادراً.

قادت السيدة كلايتون ريتشارد الى قاعة الجلوس، وكانت غرفة داخلية زينت بوسائد وستائر خضراء اللون. وخيرته بين شرب القهوة أو الجعة. اختار الجعة فأحضرتها له مثلجة لذيذة.

سألته عن هدف زيارته للكوييت، فأخبرها.

سألته بعدها لماذا لم يتزوج بعد، وردّ ريتشارد انه ليس من النوع الصالح للحياة الزوجية. وهنا انبرت السيدة كلايتون في حدة: «هذا هراء. إن علماء الآثار يصبحون عموماً أزواجاً ممتازين. هل ستشارك هذه السنة أيضاً فتيات في التنقيب عن الآثار؟».

«واحدة أو اثنتان»، أجاب ريتشارد، «وبالتأكيد السيدة باونسفوت جونز».

ثم سألت السيدة كلايتون آملة ان كانت الفتاتان القادمتان لطيفتين. وأجاب ريتشارد انه لا يعرف كونه لم يلتقهما من قبل. وأضاف ان ليس لديهما أدنى خبرة.

لسبب ما جعل كلامه الأخير هذا، السيدة كلايتون تضحك.

دخل بعدئذ رجل قصير قوي البنية وفض السلوك. عُرف عنه بأنه الكابتن كروسبي. «انه السيد بايكر»، وأردفت السيدة كلايتون، «كان عالم آثار واكتشف أشياء غريبة ومهمة جداً عمرها آلاف السنين». وقاطعها الكابتن كروسبي قائلاً انه لم يستطع أن يفهم البتة كيف أن في وسع علماء الآثار تحديد عمر معين لمكتشفاتهم. وأضاف: «كنت أفكر دائماً أنهم ولا بد دجالون مقيتون»: وقهقه الكابتن: «ها ها». رفق ريتشارد في طريقة متعبة. وأضاف الكابتن: «قل لي كيف السبيل الى أن يحدد عالم الآثار مدى قدم الأشياء؟». أجابه ريتشارد ان هذا يتوجب شرحاً طويلاً. واصطحبته السيدة كلايتون في سرعة كي يرى غرفته.

قالت السيدة كلايتون: «انه شخص لطيف، لكن الى حدود ما. أنت تفهمني. لا علاقة له أبداً بالثقافة».

وجد ريتشارد غرفته مريحة الى أقصى الحدود. وشعر ان تقديره للسيدة كلايتون كمضيعة قد تضاعف. متحسناً جوف جيب معطفه عثر على ورقة فأخرجها ووجدها نسخة ومطوية. نظر اليها في دهشة لانه كان متأكداً انها لم تكن هناك في الصباح.

تذكر كيف أن الرجل العربي تعلّق به حين تعرّث. كان في مقدور رجل رشيق الأصابع أن يدس هذه الورقة في جيبه من غير أن ينتبه. فضّ الورقة. كانت متّسخة وبدت وكأنها فضّت وطويت مرات عديدة قبل ذلك.

في الأسطر الستة المكتوبة بخط يد رديء ما فحواه أن الميجور جون ويلبر فورس أوصى بعامل يدعى أحمد محمد شارحاً أنه عامل اختصاصي وقدير. يستطيع قيادة شاحنة وانجاز تصليحات بدائية. عامل أهل للثقة. كان كل ذلك في الواقع رسالة من النوع العادي ولا تختلف أبداً عن تلك التوصيات الحمقاء المستخدمة في الشرق. كان تاريخها يعود الى ١٨ شهراً وهذا لم يكن أيضاً غير اعتيادي إذ أن أصحاب هذه التفاهات يحتفظون بها بعناية فائقة.

تجهم ريتشارد وراح يراجع في فكره أحداث الصباح بترتيب دقيق وبالطريقة التي اعتادها.

انه واثق جيداً الآن من أن الفقير كارمايكل كان خائفاً على حياته. كان رجلاً مطارداً احتّمى في القنصلية. لماذا؟ ألكي يجد الأمان؟ لكن عوضاً عن هذا تعرض على الفور للخطر. كان العدو أو عميل له في انتظاره. ذاك التاجر السمين كان أعطي ولا بد أوامر مشددة، كي يخاطر ويقوم بإطلاق النار على كارمايكل داخل القنصلية وفي حضور شهود عيان. لا بد وأن الأمر كان ملحاً للغاية. كارمايكل استغاث بصديق الدراسة القديم للمساعدة، واستطاع تمرير هذه الورقة الصغيرة اليه. لا بد إذاً أن الورقة أو الوثيقة فائقة الأهمية. ولو استطاع أعداء كارمايكل القبض عليه ووجدوا انها لم تعد بحورته فلسوف يقومون من دون أدنى ريب

بتحليل كل ما جرى وسيبحثون عن أي شخص أو أشخاص كان يستطيع كارمايكل تمريرها اليهم.

ماذا كان في وسع ريتشارد بايكر أن يفعل بها؟

في مقدوره تمريرها الى كلايتون. كونه ممثل الامبراطورية البريطانية.

أو ربما يستطيع الاحتفاظ بها الى أن يعود كارمايكل لاسترجاعها؟

بعد تأمل قليل قرر تبني الاختيار الثاني. ولكن ينبغي أولاً اتخاذ بعض الاحتياطات.

اقتطع ورقة بيضاء صغيرة من رسالة قديمة، وقعد يحاول اكتشاف مرجع آخر لتعبير «سائق شاحنة» ولكن بخريطة الأحرف. هذه الرسالة احتوت شيفرة معينة تدل الى هذا. إضافة طبعا الى امكانية وجود رسالة مكتوبة عليها بحبر خفي.

مسح رسالته المزينة بغبار مسحه عن حذائه. ثم فركها بيديه. طواها ثم طواها مجدداً الى أن أعطت انطباعاً يوحى بالقدم والاتساح.

ثم جَعَدَها ودسها في جيبه. حَذَقَ بعدها دقائق في الوثيقة الأصلية بينما كان يستنبط ويستبعد عدة احتمالات لاخفائها.

في النهاية ابتسم في نعومة وبدأ يطوي تكراراً الوثيقة الى أن أضحت مستطيلاً صغيراً. ثم انتشل من حقيبته اصبعاً من مادة بلاستيستين (مادة لدائنية تشبه الطين تستعمل لتعليم الصغار صنع الاشكال المختلفة)، لم يكن يسافر من دونها أبداً. لَفَّ أولاً

وثيقته بورق مشمّع ثم وضعها داخل اصبع البلاستيستين. حين انتهى جعل يرقق ويطرق الإصبع الى أن أصبح أملس الصفحة. على هذه الصفحة الملساء طبع رسماً من أسطوانة طابعة كان يحملها.

تفحص النتيجة في إعجاب متجهماً.

ظهر رسم محفور بروعة لآلهة الشمس، شمس يحمل بيده سيف العدالة.

- «لنتمنّى أن يكون هذا قألاً حسناً» ردد في أعماقه.

تلك العشية حين فتش في جيب المعطف الذي كان يرتديه ذاك الصباح لم يعثر على الورقة المجعدة. كانت اختفت.



الفصل السابع

ها هي الحياة، فكرت فيكتوريا، ها هي الحياة أخيراً، جالسة في مقعدها في قاعة انتظار «إيرواي ترمبنال»، وقد حانت اللحظة السحرية لتسمع «يرجى من جميع المسافرين الى القاهرة، بغداد وطهران التوجه نحو قاعة الذهاب».

أسماء سحرية، كلمات سحرية. لكن هذه الكلمات كانت خالية من أي تألق بالنسبة للسيدة هاملتون كليب. فهي حسبما قدّرت فيكتوريا، أمضت قسماً كبيراً من حياتها تقفز من البواخر الى الطائرات، ومن الطائرات الى القطارات ويتخلل هذا فسحات، كانت تقضيها في فنادق فخمة. ولكن الأمر بالنسبة لفكتوريا كان يشكل تحولاً مثيراً، فمن ترديد جمل مثل: «اكتبي يا أنسة جونز»، أو «هذه الرسالة مليئة بالأخطاء، يتوجب أن تطبعها من جديد يا أنسة جونز»، «القدر يغني. هلاً حضرت الشاي»، «أعرف أنه يمكنك الحصول على إجازة أفضل».

جمل يومية اعتيادية ومملة!

القاهرة، بغداد، طهران. كل رومانية الشرق وأمجاده، (ووراء كل هذا إدوارد)...

عادت فيكتوريا الى أرض الواقع لتسمع مستخدمتها، وكانت اكتشفت أنها من النوع الثرثار جداً، تطلق مجموعة من الملاحظات وتقول:

- "... تقريباً لم يكن أي شيء نظيفاً، افهمي ما اعني. أنا عادة أنتبه جداً جداً لطعامي. ليس في وسعك تصوّر القذارة في الشوارع وفي الأسواق، لن تصدّقي. وتلك الأثواب غير الصحيّة التي يرتديها الناس. وبعض الحمّامات، لا يمكنك في الطبع أن تقولي انها حقّامات أبداً».

استمعت فيكتوريا مرغمة الى تلك الملاحظات المكربة، غير أن انبهارها بسحر الشرق لم يبهت البتة. ولم تكن القذارة أو الجراثيم تعنيان لها شيئاً بأي شكل من الأشكال: وهي الشابة.

عند وصولها الى مطار «هيثرو» قامت فيكتوريا بمساعدة السيدة كليب في النزول من الباص. وكان عليها أن تهتم أيضاً بجوازي السفر والبطاقات والمال و... الخ.

- «ياه»، بدأت تلك المرأة، «كم أنا سعيدة بوجودك معي يا آنسة جونز. لا اعرف ماذا كنت سأفعل لو سافرت بمفردتي».

خطر لفىكتوريا أن السفر في الطائرة يشبه الذهاب الى حفلة مدرسية. حيث يتوافر أساتذة يتمتعون بكامل نشاطهم، لطفاء، لكنهم جديون يقفون بالمرصاد أبداً لتأنيك. ومضيفات الطيران في زي وقور كممرضات دار حضانة يتعاملن مع المسافرين كأطفال سذج، ويفسّرن في لطافة ماذا في مقدورك أن تفعل وحسب. وتوقعت فيكتوريا أن يبدآن ملاحظاتهن بعبارة: «والآن أيها الأطفال».

كان هناك موظفون شبان متعبون يمدّون أيديهم المنهكة من وراء مكاتبهم للتحقق من جوازات السفر. وكانوا يفتشون في حميمية عن المال والجواهر. وكانوا ينجحون في زرع الشعور بالذنب في نفوس من كانوا يستجوبونهم. فيكتوريا السهلة التأثر بالسليقة شعرت فجأة برغبة عارمة بالإدعاء أن حليتها الحقيمة هي في الواقع لماسة فاخرة يبلغ ثمنها عشرة آلاف جنيه، وكل هذا لترى ردة الفعل على وجه الموظف الشاب الضجر. لكن التفكير بإدوارد منعها من القيام بذلك.

بعد عبورهما كافة الحواجز، جلستا تنتظران مرة أخرى في غرفة واسعة تطل مباشرة على مدرج المطار. في الخارج كان هدير الطائرات المنطلقة يمنح المكان الخلفية المناسبة. وكانت السيدة كليب مأخوذة في حبور بالتعليق عرضاً على تصرفات المسافرين الآخرين.

- «أليس هذان الطفلان أجمل من أن تصفهما الكلمات؟ ان السفر برفقة طفلين هو تعذيب خالص. أظن أنهما بريطانيان. ان والدتهما ترتدي ثوباً جميلاً. غير أنها تبدو تعباً. هذا رجل جذاب - من أميركا اللاتينية على الأرجح. يا للهول كيف يتحدث هذا الرجل بصوت مرتفع. أنا أدعو هذا قلة ذوق. انه رجل أعمال على الأرجح. ذلك الرجل الواقف هناك هو هولندي. كان يقف أمامنا عند التفتيش. تلك العائلة هناك أقدر انها تركية أو إيرانية. يبدو انه لا يوجد أميركيون معنا. أعتقد أنهم يسافرون عموماً مع شركة (بان أميركان). أظن أن أولئك الرجال الثلاثة هناك يعملون في مجال النفط، ألا توافقين؟ أعبد مراقبة الناس والتساؤل بشأنهم. السيد

كليب يقول ان لدي توقاً شديداً الى الطبيعة البشرية. انا اعتبره
أمراً طبيعياً الاهتمام بال مخلوقات. الاتقولين ان ذلك المعطف من فرو
المثك هناك كلف ما يزيد على الثلاثة آلاف دولار؟».

تنهدت السيدة كليب. بعد ان انتهت من تقويم المسافرين
الآخرين، كانت قد فقدت صبرها.

- «أحب أن أعرف ما الذي ننتظره هكذا؟ تلك الطائرة شغلت
محركها أربع مرات حتى الآن. والكل موجود هنا. ما الذي يعوقهم؟
لا أظن أنهم مشددون الى هذا الحد في شأن برنامج الاقلاع».

- «هل تودين أن احضرك كوباً من القهوة يا سيدة كليب؟ أرى
أن هناك مطعماً عند نهاية القاعة».

- «آه، لا شكراً آنسة جونز. لقد شربت قهوة في الغرفة، وأجد أن
معدتي ليست على ما يرام الآن ومن الأفضل أن لا أتناول أي شيء.
ماذا ننتظر، أحب أن أعرف؟».

جاء الجواب عن سؤالها تقريباً قبل انتهائها من لفظه. فقد
انفتح الباب المؤدي الى المعبر المواجه للجمارك ولقسم الجوازات
وانبثق رجل طويل الى الداخل. ثم تحلق مسؤولون من شركة الطيران
حواله وتقدم اليه أحد الموظفين وهو يحمل كيسين كبيرين من القماش
مختمين.

وقفت السيدة كليب بغبطة، ولاحظت:

- «لا بد انه رجل مهم».

كان هناك إشارة وانتباه شديد في معالجة أمور هذا المسافر
المتأخر. كان يرتدي معطفاً فضفاضاً خاصاً بالأسفار. لونه رمادي

غامق بقلنسوة واسعة على الظهر. كان يعتمر قبعة تشبه القبعات
المكسيكية المسماة «سومبريرو»، إلا أن لونها كان رمادياً فاتحاً. كان
شعره أشيب فضياً ينسدل خصباً طويلة. وتحلّى بشاربين جميلين
فضيين معقوفين عند الطرفين. كان جذاباً كممثل يلعب دور رجل
عصابات وسيم. كانت فيكتوريا تكره الرجال المتكلفين الذين كانوا
يقفون دوماً وهم يتظاهرون بالتواضع ونظرت اليه مستهجنة.

كان كل مسؤولي شركة الطيران كما لاحظت متضايقاً يهتمون
به.

- «أجل يا سير روبرت، بالطبع يا سير روبرت الطائرة ستنتطلق
على الفور يا سير روبرت».

عبر السير روبرت الباب الموصل الى المدرج. فتأرجح الباب خلفه
بعنف.

- «السير روبرت»، همهمت السيدة كليب، «من ذا يكون أنا
أتساءل؟».

هزت فيكتوريا رأسها من غير جواب، إلا أنه خالجهما شعور
غريب بأن وجهه وشكله عموماً لم يكونا غريبين عنها.

اقتрحت السيدة كليب: «قد يكون شخصية مهمة في الحكومة».

ردت فيكتوريا: «لا أظن هذا».

كان بعض أعضاء الحكومة الذين تسنى لها رؤيتهم قد تركوا
فيها انطباعاً وكأنما هاجسهم الدائم هو فكرة الاعتذار لكونهم على
قيد الحياة.

- «أرجو الانتباه»، بدأت مضييفة الطيران تقول في طريقة تشبه أسلوب ممرضة دار حضانة، «تقدموا الى مقاعدكم في الطائرة. من هنا وفي أسرع ما في وسعكم لو سمحتم».

أعطى ما تفوّهت به انطباعاً كما لو أن هناك أولاداً يضيّعون الوقت ويتسببون بتأخير أشخاص بالغين صبورين.

تقدم الجميع في رتل باتجاه المدرج.

كانت الطائرة الضخمة تنتظر، وكان محركها يهدر كزنجرة أسد عملاق وهانئ.

ساعدت فيكتوريا بمعينة إحدى المضيفات، السيدة كليب على الركوب في مقعدها داخل الطائرة. وجلست قربها الى جهة الممر. وما كادت السيدة كليب تستقر تماماً في مقعدها وتشد فيكتوريا حزام النجاة، حتى لاحظت وجود الرجل المهم على المقعد أمامهما.

أقفلت الأبواب. وبدأت الطائرة بعد ثوان قليلة التقدم ببطء على أرض المدرج.

فكرت فيكتوريا في نشوة: «نحن حقيقة مغادرون. أوليس هذا مخيفاً؟ لنفترض ان لم تقلع عن الأرض إطلاقاً؟ حقيقة لا أتصور كيف يمكن أن تفعل!».

جالت الطائرة على أرض المدرج طويلاً جداً وكأنما لدهر ثم انعطفت ببطء وتوقفت. ثم انبعث ضجيج المحركات عالياً، شبيهاً برئير حيوان مفترس. وجرى توزيع العلكة على الجميع.

كان الضجيج يرتفع أكثر فأكثر ويزداد ضراوة، ثم تقدمت

الطائرة مرة جديدة، بحذر أولاً ثم أسرع فأسرع. كانت تندفع بقوة فوق الأرض.

- «لن تطير أبداً»، فكرت فيكتوريا، «سوف نقتل».

تضاعفت السرعة وتابعت التقدم في نعومة أفضل. ومن غير أدنى ارتجاج أو خبطات ارتفعت عن سطح الأرض وحلقت. ارتفعت فوق موقف السيارات والطريق الرئيسي، وحين حلقت أكثر ظهر قطار حقير كان ينفث دخانه القليل. ثم تحولت البيوت والسيارات الى لعب أطفال منثورة. على ارتفاع أكثر لم تعد الأرض فجأة تثير أدنى اهتمام. لم تعد حية أو مسكونة. كانت مجرد خريطة مسطحة بأزياج ودوائر ونقاط.

حل المسافرون أحزمة الأمان، أشعلوا السجائر وتصفحوا المجلات. كانت فيكتوريا في عالم جديد. عالم طوله عدة أقدام وعرضه بضعة أقدام ويسكنه حوالى العشرين أو الثلاثين شخصاً. لم يكن أي شيء آخر موجوداً.

تطلعت مرة جديدة عبر النافذة الصغيرة. امتد تحتها رصيف غيوم قطنية. كانت الطائرة تحت الشمس. وتحت تلك الغيوم في مكان ما، كان العالم الذي عرفته سابقاً.

استرجعت فيكتوريا حواسها. كانت السيدة كليب تثرثر. نزعت القطن من أذنيها وانحنى باتجاهها.

في المقعد أمامها، نهض السير روبرت وثبتت قبعته الرمادية الكبيرة على الرف فوقه وعاد ليستريح في مقعده.

فكرت فيكتوريا بتحامل غير منطقي: «بغل مغرور».

كانت السيدة كليب تجلس مستكينة في مقعدها وبين يديها مجلة تتصفحها. بين الوقت والآخر كانت تلتكز فيكتوريا حينما تفشل في قلب الصفحات بيد واحدة.

أجالت فيكتوريا النظر حولها. وقررت أن السفر في الطائرة كان أمراً مملاً في الواقع. فتحت مجلة ووجدت نفسها أمام إعلان يقول: «هل تريدان تحسين كفاءتك كسكرتيرة؟ ارتدعت وأغلقت المجلة. ثم استرخت وراحت تفكر بإدوارد.

هبطت الطائرة في مطار «قصر بينيتو» وسط عاصفة أمطار. وشعرت فيكتوريا انها مريضة بعض الشيء، وكان عليها أن تستخدم كل طاقتها كي تقوم بواجبها تجاه مستخدمتها. ثم توجه الجميع تحت المطر الغزير الى صالة الانتظار. لاحظت فيكتوريا قدوم ضابط في زي عسكري ذي عروات حمراء للقاء السير روبرت العظيم. ثم عَجَلاً معاً في سيارة رسمية باتجاه مضافة خاصة بالشخصيات الهامة في منطقة تريبوليتانيا. أما باقي المسافرين، فقد تم تأمين غرف لهم في أحد الفنادق.

ساعدت فيكتوريا السيدة كليب في حمّامها وتركبتها تستريح في سريرها وهي في رداء النوم، وإلى أن يحين أوان تناول طعام العشاء توجهت فيكتوريا الى غرفتها واستلقت مغلقة عينيها، متجنباً النظر إلى أرضية الغرفة الموحلة والرطبة.

استفاقت بعد ساعة شاعرة انها بحال أفضل وبمعنويات أعلى وتوجهت لمساعدة السيدة كليب. جاءت مضيئة طيران متعجرفة وأعلمتهما أن السيارات على أهبة لنقل المسافرين الى حيث سيتناولون طعام العشاء.

بعد العشاء انشغلت السيدة كليب في حديث مع أحد المسافرين الآخرين. وبدأ أن فيكتوريا لفتت اعجاب الرجل اللاتيني المظهر فراح يخبرها باسترسال عن صناعة الأقلام الرصاصية.

بعد أن انتهى العشاء نقلوا مجدداً الى غرفهم وأعلموا بفظاظة أنه ينبغي أن يكونوا مستعدين للانطلاق مرة أخرى في تمام الساعة الخامسة والنصف فجراً.

قالت فيكتوريا حزينة: «لم يتسنَ لنا مشاهدة أي شيء في تريبوليتانيا، اليس كذلك؟، هل السفر بالطائرة دائماً هكذا؟».

- «آه بالطبع يمكن قول ذلك. ان الطريقة التي يفرضونها للنهوض في وقت مبكر هي أقرب الى السادية. عادة يبقوننا بعد هذا منتظرين في المطار لمدة ساعة أو ساعتين. أذكر في روما أنهم أيقظونا في الساعة الثالثة والنصف، ثم تناولنا الترويقة في المطعم عند الرابعة. وما حدث في الواقع هو أننا طرنا في الساعة الثامنة. غير أن أفضل ما يمكن أن يحدث هو أن يوصلوك مباشرة الى وجهتك من غير أي توقف على الطريق».

تهدت فيكتوريا حيث كانت ترغب بشدة التجول في الأمكنة الجديدة. لقد أرادت أن ترى العالم.

أردفت السيدة كليب: «هل تعرفين ماذا اكتشفت يا عزيزتي. إن ذلك الرجل اللافت البريطاني، ذاك الذي شغل وأثار اهتمام الجميع. لقد عرفت من هو. إنه السير روبرت كروفتون لي الرخالة العظيم. لا بد أنك سمعت به؟».

أجل. لقد تذكرت فيكتوريا الآن. لقد كانت شاهدت صوراً له في

الصحف منذ ستة أشهر. لقد كان مسؤولاً كبيراً من قبل وزارة الخارجية في الصين. وهو أحد القلائل الذين وصلوا الى التبت وزاروا لاسا. قام برحلات عبر قطاعات مجهولة في كردستان وآسيا الصغرى. تباع كتبه بشكل واسع جداً وهي مكتوبة بذكاء وبأسلوب رائع. لو كان السير روبرت من الصنف الاستعراضي فإن لهذا بالطبع سبباً وجيهاً. لم يكن يدعي في كتبه أي أمر ما لم يثبتته كلياً. كان المعطف بقلنسوته والقبعة السامبريرو ذات الشريط العريض زياً من ابتكاره هو وحده.

- «أوليس هذا بالأمر المثير؟» سألت السيدة كليب في حماسة شبيهة بحماسة صائد أسود، بينما كانت فيكتوريا تسوي أغشية الفراش فوق جسمها المستلقي.

وافقتها فيكتوريا على أنه رجل مثير للغاية، لكنها ردت في دخليتها انها تفضل كتب السير روبرت على شخصيته. وخطر لها أنه، كما يقول الأولاد، «متباه»!

انطلقوا في فجر اليوم التالي كما كان مقرراً. وكان الطقس قد تحسّن وأشرقت الشمس. غير أن فيكتوريا بقيت خائبة لأنها لم تَرَ سوى القليل من تريبوليتانيا. إلا أنه كان يفترض أن تتوقف الطائرة في القاهرة عند الغداء، ثم تغادر الى بغداد في الصباح التالي. لذا قد تتمكن على الأقل من رؤية قسم قليل من مصر إبان ما بعد الظهيرة.

كانوا يطيرون فوق البحر، إلا أن الغيوم سرعان ما حجبت المياه الزرقاء تحتهم فتهاكت فيكتوريا في مقعدها متثابثة. في المقعد أمامها كان السير قد سبق واستغرق في النوم. كانت القلنسوة

ارتدت الى الخلف وتدلّت أمامها مهتزة بين وقت وآخر. لاحظت فيكتوريا بمكر وغبطة وجود حبة في رقبته. لِمَ كانت مغتبطة، كان من الصعب التفسير - ربما كان هذا يجعل الرجل العظيم يبدو اقرب الى البشر وقابلاً للعطب. كان في النهاية مثل باقي الرجال، عرضة لأن تشوّه جلده بثور مزعجة. لكن لا بد من الاعتراف بأن السير روبرت حافظ على سلوكه المهيّب ولم يهتم البتة ببقية المسافرين.

جال في خاطر فيكتوريا: «من ذا يظن نفسه. اني اتساءل؟». كان الجواب جلياً. كان السير روبرت كروفتون لي الشهير، وهي كانت فيكتوريا جونز مجرد سكرتيرة من دون ادنى أهمية على الاطلاق.

حين وصلوا الى القاهرة تناولت فيكتوريا والسيدة كليب طعام الغداء معاً. ثم أعلنت الأخيرة أنها ستنام حتى الساعة السادسة. واقتрحت على فيكتوريا الذهاب لمشاهدة الأهرام.

- «لقد أمنت لك سيارة تقلّك يا آنسة جونز، لأنني أعرف أن مدخراتك لا تسمح بتبذير أي مال هنا».

شكرتها فيكتوريا، مع العلم أنها لم تكن تحمل أية اموال. شكرتها بإسراف.

- «لا، هذا لا شيء. لقد كنت لطيفة جداً جداً معي. حين نحمل دولارات اثناء السفر يصبح الأمر سهلاً للغاية. السيدة كيتشن، والدة دينك الطفلين الجميلين تتلف للذهاب أيضاً. لقد اقترحت عليها أن ترافقك، إن كان هذا لا يزعجك؟».

كان كل شيء مناسباً بالنسبة لفيكتوريا ما دامت ترى العالم.

- «هذا ممتاز. من الأفضل أن تنطلق فوراً».

كانت تلك الأمسية عند الأهرامات بهيجة بالتأكيد . وكان يمكن أن تستمتع فيكتوريا بها أكثر لولا حضور طفلي السيدة كيتشن، مع أنها كانت تحب الأطفال .

/ ألقت فيكتوريا نفسها على السرير متثأبة . وتمنت من أعماقها لو تستطيع البقاء أسبوعاً في القاهرة والإبحار في نهر النيل . «وماذا بشأن المال يا فتاتي؟» سألت نفسها مستبعدة الفكرة . لقد كانت أعجوبة أنها استطاعت الانتقال الى بغداد مجاناً .

وتسأل صوت في داخلها : وماذا ستفعلن حين تصلين إلى بغداد وليس في حوزتك سوى بضعة جنيهات؟

استبعدت فيكتوريا هذه المسألة . سوف يجد لها إدوارد عملاً بكل تأكيد . وإن لم يحصل هذا فسوف تتدبر لنفسها وظيفة ما . ما جدوى القلق؟

فيما هي سارحة في التفكير سمعت طرقه على الباب . هتفت : «أدخل» ، لكنها لم تسمع أي جواب . نهضت من السرير وتوجهت الى الباب وفتحته .

لم يكن بابها الذي يطرق ، بل الباب الملاصق لغرفتها في الرواق . كانت إحدى المضيفات تطرق باب السير روبرت كروفتون لي . كان شعرها داكناً ومرتدية زئها الرسمي . فتح السير روبرت الباب لحظة تطلعت الأنسة فيكتوريا .

- «ماذا هنالك الآن؟» .

بدا منزعجاً ونعسان .

- «اعتذر لمصايقتك يا سير روبرت» ، قالت المضييفة متوددة ،

«نرجو منك الحضور الى مكتب شركة الطيران. انه على بعد ثلاثة أبواب من هنا. يريدون ابلاغك تفصيلاً ما يتعلق بالرحلة الى بغداد غداً».

ـ «آه حسناً».

تراجعت فيكتوريا الى داخل الغرفة. كان النعاس قد فارق عينيها رمقت ساعة يدها. كان الوقت فقط الرابعة إلا الربع. كان باقى ساعة ونصف الساعة حتى تستيقظ السيدة كليب وتطلبها. قررت أن تخرج وتتمشى في شارع هليوبوليس. على أية حال، المشي لا يستوجب صرف أي مال.

مرّغت أنفها بالبودرة وانتعلت حذاءها. شعرت انه ضيق بعض الشيء. كانت الرحلة الى الاهرامات قد أنهكت قدميها.

خرجت من غرفتها وعبرت الرواق في اتجاه صالة الفندق الرئيسية. بعدما تقدمت ثلاثة أبواب اجتازت مكتب شركة الطيران. كان هناك على الباب بطاقة تشير الى ذلك. ما إن اجتازته حتى فتح الباب وانبرى السير روبرت. كان يمشي في عجلة وسرعان ما تخطاها. تقدمها وكان معطفه يتأرجح، وقدرت فيكتوريا أن أمراً ما كان يشغل باله.

حين وصلت فيكتوريا عند الساعة السادسة الى غرفة السيدة كليب، كانت هذه الأخيرة سيئة المزاج الى حد ما.

ـ «أنا قلقة بشأن الوزن الزائد في حقائبي يا آنسة جونز. كنت اعتقدت أنني سوّيت الامر، لكن يبدو ان الذي دفعته بدلاً لذلك ينتهي مفعوله في القاهرة. سوف نظير غداً عبر الخطوط الجوية

العراقية، وبطاقة سفري هي مجرد بطاقة عادية، ولا ذكر للحقائب
الإضافية فيها. ربما يجدر أن تذهبي وتتأكدي من الأمر. لأنني قد
أضطر إلى صرف شيك آخر».

وافقت فيكتوريا على الاستعلام عن الأمر. لم تستطع في بادئ
الأمر العثور على مكتب شركة الطيران، لكنها وجدته أخيراً في الرواق
البعيد في الجانب الآخر من القاعة. كان مكتباً كبيراً. خطر لها أن
المكتب الآخر القريب لغرفتها كان مكتباً صغيراً لا يُستخدم سوى
في أوقات ما بعد الظهر، في فترة القيلولة. تبين أن مخاوف السيدة
كليب حول متاعها الإضافي كانت في مكانها، وكان ذلك ممّا أزعجها
كثيراً.

الفصل الثامن

كانت مكاتب شركة فتح الله للأسطوانات تقع في الطبقة الخامسة من بناء تجاري في وسط لندن. كان الرجل الجالس وراء طاولة في ذلك المكتب يقرأ كتاباً عن الاقتصاد. رنَّ الهاتف فتناول السَّماعة وقال بصوت هادئ جاف:

- «هنا ساندروز».

- «ساندروز النهري؟ أي نهر؟».

- «نهر دجلة؟ أبعث تقريرتي في شأن أ. ش. لقد فقدنا أثرها».

حلَّ صمت لبرهة ثم تكلم الصوت الهادئ مجدداً ولكن بنبرة حادة.

- «هل أسمعك جيداً؟».

- «لقد فقدنا أثر آنا شيل».

- «لا تذكر أسماء. لقد اقترفت خطأ كبيراً. كيف حصل هذا؟»

- «لقد دخلت مصحّحة، كما كنت أخبرتك من قبل. كانت شقيقتها ستخضع لعملية جراحية».

- «حسنأ».

- «لقد أجريت العملية الجراحية بشكل جيد . وتوقعنا أن تعود
أ. ش. الى فندق سافوي. كانت احتفظت بجناحها هناك. لم ترجع.
كنا نراقب المصحّة باستمرار وكنا متأكدين جيداً انها لم تغادرها.
قدّرنا انها ما برحت هناك».

- «ولم تكن؟».

- «لقد اكتشفنا هذا لتونا. لقد غادرت المكان في سيّارة اسعاف
في اليوم التالي بعد العملية الجراحية».
- «لقد هزئت منكم بكل بساطة».

- «يبدو الامر كذلك. إني لأقسم انها لم تعرف أبداً انها كانت
مطاردة. كنا قمنا بكل الاحتياطات اللازمة. كنا ثلاثة و...».

- «دعك من الاعتذارات. أين توجهت بها سيّارة الإسعاف؟».
- «الى مستشفى كليّة الجامعة».

- «ماذا أخبروك في المستشفى؟».

- «لقد قالوا ان السيارة أحضرت مريضاً كانت ترافقه ممرضة
مستشفى. لا بد وأن ممرضة المستشفى كانت أنا شيل. ويجهلون
اطلاقاً أين ذهبت بعدما ادخلت المريض».

- «وماذا عن المريض؟».

- «المريض لا يعرف شيئاً. كان مخدراً بالمورفين».

- «إذاً لقد غادرت أنا شيل المستشفى متنكرة في زيّ ممرضة،
ويمكن أن تكون الآن في أي مكان؟».

- «أجل. انها عادت الى فندق السافوي....».

قاطع الآخر قائلاً:

- «لن تعود الى السافوي».
- «هل تريدنا أن نبحث في الفنادق الأخرى؟».
- «نعم. لكن أشك أن تحصلوا على أي نتيجة هذا هو ما نتوقع هي أن تفعلوا».
- «هل من اقتراحات أخرى؟».
- «فتشوا في المرافء، في دوفر، فولكستون... الخ. استعلموا من شركات الطيران، دققوا في الحجزات الى بغداد خصوصاً في رحلة مساء الغد. لن يكون الحجز مسجلاً باسمها. راقبوا كل المسافرات اللواتي في عمرها تقريباً».
- «لا تزال حقائبها في السافوي، ربما قد تبعث في طلبها».
- «لن تفعل أي شيء من هذا القبيل، أنت قد تكون مغفلاً - لكنها ليست كذلك! هل تعرف الأخت شيئاً عن هذا؟».
- «نحن على اتصال مع ممرضتها الخاصة في المنزل. يبدو أن شقيقتهما تظن أن أ. ش هي الآن في باريس تقوم بوظيفتها لدى مورغانثال وتقيم في فندق ريتز. انها تعتقد أن أ. ش. ستسافر الى عند أهلها في الولايات المتحدة في الثالث والعشرين من الشهر».
- «بكلام آخر لم تخبرها أ. ش شيئاً. في النهاية لا بد وأن تسافر بالطائرة. انه أملاها الوحيد. ينبغي أن تصل الى بغداد. والسفر جواً هو الطريقة الوحيدة التي تمكنها من الوصول الى هناك في الوقت المحدد، يا ساندروز...».
- «نعم؟».
- «لا مجال للفشل. هذه هي فرصتك الأخيرة».



الفصل التاسع

ارتكز السيد شريفنهام الشاب الموظف في السفارة البريطانية على قدمه الأخرى، وتطلع الى فوق بينما انحدرت الطائرة فوق مطار بغداد. كانت تهب في ذلك الوقت عاصفة رملية عظيمة. وحجب ضباب بني كثيف أشجار البلح، والبيوت والناس. كانت العاصفة قد هبت فجأة.

علّق ليونيل شريفنهام بنبرة حزينة :

- «أراهن بعشرة مقابل واحد انهم لن يستطيعوا الهبوط هنا».

سأل صديقه هارولد : «ماذا سيفعلون؟».

- «أعتقد أنهم سيتوجهون الى البصرة. الطقس هناك جيد كما

سمعت».

- «انك في انتظار شخصية مهمة جداً، اليس كذلك؟».

تأوّه السيد شريفنهام مرة جديدة.

- «انه حظي السييء. لقد تأخر خروج السفير الجديد.

والقنصل لانسداون موجود في لندن. ورايس المستشار الشرقي مريض بالإنفلونزا وممدد في الفراش. وبست موجود الآن في طهران

وها انذا وحدي وعليّ القيام بكل هذا الكمّ من الأعمال الحقيرة. لا نهاية لرحلات هذا الرجل. لا اعرف ما السبب. انه أحد الرخالة الذين يجوبون الآفاق، وعلى الدوام على ظهر جَمَل في مكان ما من العالم. لا أدري لمّ هو مهم الى هذه الدرجة، يبدو ظاهرياً انه الكشّاف المتقدم، ويتوجب عليّ أن أنفّذ أحقر رغباته. ان كانوا سيهبطون به اليوم في البصرة فسوف يطير صوابه. لا أعرف كيف سأتصرف في هذا الشأن. ألتوجه بالقطار هذه الليلة؟ أم استعين بطائرة عسكرية وأطير اليه غداً؟».

تنهد السيد شريفنهام مجدداً وتضاعف شعوره بالمهانة وايضاً بالمسؤولية. فمئذ وصوله قبل ثلاثة أشهر الى بغداد والحظ السييء يطاردّه. أي اعتراض آخر من جانبه سوف يفسد بالتأكيد طموحه للحصول على مهنة تعد بمستقبل جيد.

مرت الطائرة مرة جديدة فوقه على مسافة قريبة.

- «أظن انه لن ينجح في الهبوط»، قال شريفنهام ثم أضاف متحمساً، «رباه. أعتقد انه يهبط».

بعد بضع دقائق كانت الطائرة توقفت بكل رزانة في المكان المحدد، ووقف شريفنهام مستعداً للترحيب بالرجل الفائق الأهمية.

لمحت عيناه غير المحترفتين «فتاة فاتنة»، قبيل اندفاعه متقدماً ليرحب بتلك السحنة القرصانية في المعطف الفضفاض.

جال في خاطره ممتعضاً: «هذا ما يمكن وصفه باللباس الاستعراضي». وقال بصوت مرتفع:

- «السير روبرت كرافتون إن لم أكن مخطئاً؟ أنا شريفنهام من السفارة».

لاحظ أن السير روبرت فظّ السلوك بعض الشيء، ولكن يمكن تفهّم هذا بعد ما أصابه من توتر نتيجة تحليق الطائرة الدائري فوق المدينة وهي تتردد في الهبوط.

- «انه يوم قبيح»، وتابع شريفنهام، «لقد حظينا بأيام كثيرة مثله هذه السنة. آه لقد أحضرت الحقايب. حسناً، لو تتبعتني. سوف نضعها على سقف....».

بعدما غادرا المطار في سيارة قال شريفنهام: «اعتقدت لفترة قليلة انهم سيهبطون بك في مطار آخر. لم يبد أن الطيار كان قادراً على الهبوط بالطائرة. لقد هبت هذه العاصفة الرملية فجأة».

نفخ السير روبرت خديّه بكبرياء وأشار قائلاً: «كان يمكن أن تحصل كارثة - كارثة حقيقية، لو حدثت أي خرابطة في جدول مواعيدي أيها الشاب. أؤكد لك أن نتائج ذلك كانت شكوى خطيرة حتى على أعلى المستويات».

فكر شريفنهام هازئاً: «يا للإدعاء. هؤلاء الرجال المهمون يعتقدون ان دورة الكرة الأرضية تعتمد في الدرجة الأولى على مشاريعهم التافهة».

ثم قال بصوت مرتفع وبكل احترام:

- «أظن انك على حق يا سيدي».

- «هل لديك أية فكرة عن موعد وصول السفير الى بغداد؟».

- «لا شيء محددًا حتى الآن يا سيدي».
- «سيكون أمراً مؤسفاً أن لم يتسَّن لي رؤيته. لم أره منذ -
دعني أتذكر - أجل منذ العام ١٩٣٨ في الهند».
- ظل شريفنهام صامتاً في احترام.
- «أجبني، هل رايس موجود هنا؟».
- «أجل يا سيدي انه المستشار الشرقي».
- «انه رجل كفؤ. عليم جداً. يسرني أن ألتقيه مجدداً».
- سعل شريفنهام وقال: «سيدي، في الواقع أن السيد رايس مريض، ولقد نقلوه الى المستشفى للمعاينة. انه مصاب بالتهاب معوي حاد».
- «ماذا يعني هذا؟»، وأدار السير روبرت رأسه بحدّة،
«التهاب معوي يشع. لقد حصل له هذا فجأة، ليس كذلك؟».
- «منذ يومين».
- كان السير روبرت يرتجف. وفجأة تخلّى عن غطرسته. وأصبح مجرد رجل عادي خائف بعض الشيء.
- «اني محتار»، ردد، «أجل أنا أتساءل».
- نظر اليه شريفنهام مستفهماً في وقار.
- قال السير روبرت: «أتساءل إن كان مصاباً بمرض شيلي....».
- ارتبك شريفنهام وبقي صامتاً.
- كانا يقتربان من جسر الفيصل، ثم تحولت السيارة الى اليسار نحو السفارة البريطانية.

فجأة انحنى السير روبرت الى الامام وقال بحدة:

- «هلاً توقفت دقيقة، أجل الى اليمين حيث القدور الفخارية».

انزلت السيارة في اتجاه الميمنة الى حافة الطريق وتوقفت.

كان هناك متجر صغير عرضت فيه قدور طينية بيضاء، وجرار للمياه.

بينما توقفت السيارة ابتعد رجل اوروبي بدين، كان يقف محدثاً صاحب المتجر، ثم توجه نحو الجسر. وقد عرفه شريفنهام، كان كروسيبي من جهاز المخابرات وكان التقاه مرة أو مرتين من قبل.

قفز السير روبرت من السيارة، وعجل في اتجاه الكشك الصغير. حمل احدى القدور وبدأ حواراً سريعاً بالعربية مع صاحب المتجر. كان الحوار يجري بسرعة يعجز شريفنهام عن متابعتها لأنه كان لا يزال بطيء الفهم للغة العربية، ويجد صعوبة إزاء المعجم المحدود من المصطلحات الذي كان قد حفظه حتى الآن.

كان صاحب المتجر يشير بيديه الى الاتجاهات، يقوم بحركات ويفسر في الوقت نفسه. انتشل السير روبرت قدوراً مختلفة، وكان يبدو انه يستعلم بشأنها. وفي النهاية اختار جرة ماء ضيقة الفتحة، ودفع للبائع بعض القطع النقدية وعاد الى السيارة.

قال السير روبرت: «تقنية مثيرة للاهتمام. انهم يصنعون هذه الاشياء منذ آلاف السنين. ان شكلها يشبه واحدة رايتها في احدى مناطق التلال في أرمينيا».

ادخل اصبعه في جوف الفتحة الضيقة وجعل يدور به هناك تكراراً.

- «ان هذا الشيء بدائي للغاية»، ردد شريفنهام من دون اكتراث.
- «آه. لا أهمية فنية له. لكنه مهم كمادة تاريخية. هل ترى هذه
المسكات المحفورة هنا؟ تستطيع أن تستخلص الكثير من المادة
التاريخية من ملاحظة هذه الأشياء البسيطة في الاستخدام
اليومي. إن لدي مجموعة منها».

انعطفت السيارة ودخلت عبر أبواب السفارة البريطانية.
طلب السير روبرت أن ينقل توأ إلى غرفته. فرح شريفنهام عند
سماعه هذا، وكذلك لانتهاه محاضرتة عن الجرة الطينية. وكان
السير روبرت تركها غير آبه في السيارة. حمل شريفنهام الجرة بطيية
خاطر وطلع بها ثم وضعها بانتباه شديد على طاولة قرب سرير السير
روبرت.

- «هذه جرتك يا سيدي».

- «آه، أوه شكراً يا بني».

بدا السير روبرت شارد الذهن. غادره شريفنهام بعدما أبلغه
أن طعام الغداء سيكون جاهزاً بعد وقت قليل وأن المشروبات
ستكون حسب اختياره.

حين غادر الشاب الغرفة، توجه سير روبرت نحو النافذة وفَضَّ
قطعة الورق الصغيرة التي كانت مدسوسة في فتحة الجرة، ثم
مسدها. كان هناك سطران من الكتابة فيها، قرأهما بتأنٍ ثم أحرقها
بعود ثقاب.

وهتف منادياً الخادم.

- «نعم يا سيدي. هل أفرغ لك حقائبك؟».

- «ليس الآن. أريد أن يحضر السير شريفنهام الى هنا».

وصل شريفنهام وعلى وجهه علامة استفهام.

- «هل أستطيع أن أفعل أي شيء من أجلك، يا سيدي؟ هل من خطب ما؟».

- «سيد شريفنهام، لقد طرأ تغيير عنيف لمخططاتي. أستطيع أن أعتد على قدرة كتمانك للسر بالطبع؟».

- «آه، بكل تأكيد يا سيدي».

- «لقد مضى زمن طويل على زيارتي الأخيرة لبغداد. في الواقع انا لم آت الى هنا منذ أيام الحرب. الفنادق تقع عموماً على الضفة الأخرى من النهر، اليس كذلك؟».

- «نعم يا سيدي، في شارع الرشيد».

- «جهاتها الخلفية تطلّ على نهر دجلة، اليس كذلك؟».

- «أجل. إن فندق قصر بابل هو أضخمها. إنه فندق رسمي إذا صح التعبير».

- «ماذا تعرف عن فندق يدعى «تيو»؟».

- «آه، العديد من الناس يذهبون الى هناك. وجبات الطعام فيه جيدة ويديره شخص رائع يدعى ماركوس تيو. انه شخصية، بل مؤسسة في بغداد».

- «أريدك أن تحجز لي غرفة هناك يا سيد شريفنهام».

- «أتعني انك لن تقيم في السفارة؟»، قال وبدأ متفهماً الأمر بعصبية، «لكن، لكن كل شيء كان معداً هنا يا سيدي».

- «ما جرى اعداده يمكن الغاؤه»، زعق السير روبرت.

- «آه، بالطبع يا سيدي، لم أكن أعني...».

وتوقف شريفنهام. شعر أنه سوف يقع عليه اللوم أن هو تابع.

- «ينبغي أن أقوم ببعض المفاوضات الحساسة. ولقد علمت أنه ليس من الممكن إجراؤها في السفارة. أريدك أن تحجز لي غرفة الليلة في فندق تيو، وأرغب في مغادرة السفارة بطريقة غير لافتة للنظر. ما أعنيه هو أنني لا أريد أن أنتقل إلى فندق تيو بسيارة السفارة. أريد أيضاً أن تحجز لي مقعداً في الطائرة المسافرة بعد غد إلى القاهرة».

بدا شريفنهام الآن أكثر ذهولاً.

- «لكني حسبما فهمت كنت ستقضي خمسة أيام هنا...».

- «لم يعد الوضع هكذا. ضروري جداً أن أغادر إلى القاهرة ما إن أنجز مهمتي هنا. سأعرض للخطر إن بقيت هنا».

- «الخطر؟».

ارتسمت فجأة ابتسامة متجهمة على وجه السير روبرت. وشعر شريفنهام أن الصورة التي كان رسمها عن الرجل قد تحولت كلياً. لم يعد يتصرف كضابط تحر عسكري، بل انكشف مرة واحدة بكل تألقه.

- «لم يكن هاجس السلامة أبداً من بين مشاغلي. أوافقك». وأضاف، «لكن في هذه المهمة لم تعد المسألة تتعلق بسلامتي أنا فقط، بل أنها تشمل سلامة الكثير من الأشخاص الآخرين. لهذا أطلب إليك أن تقوم لي بهذه الترتيبات. وإذا كان تأمين حجز مكان في الطائرة صعباً فإني أطلب الأولوية للضرورة. سوف لن أغادر غرفتي حتى أغادر السفارة هذه الليلة». ثم أردد قائلاً بينما فتح

شريفنهام فمه مندهشاً، «يجب أن يعلن رسمياً أنني مريض مصاب بالمalaria. وهكذا لن أحتاج الى أي طعام».

– «لكن يمكننا بالتأكيد أن نبعث لك طعاماً الى هنا...».

– «أستطيع بكل سهولة الصوم لمدة أربع وعشرين ساعة. لقد بقيت في رحلات أخرى جائعاً لفترة أطول. أنت افعل فقط كما أقول لك».

في الأسفل رحب رفاق شريفنهام به، وكان يحاول الرد على تساؤلاتهم بصوت خافت: «إنها مسألة تجسس ومن الدرجة الأولى. لست قادراً على فهم السير المبجل روبرت كروفتون ولا معطفه الفضفاض وقبعة اللصوص وكل ما تبقى. أحد الذين قرأوا واحداً من كتبه أخبرني انه رغم كونه إعلاناً حياً لنفسه، فهو قد قام حقاً بكل تلك المغامرات وفي كل تلك الأمكنة النائية – لكنني محتار... أتمنى لو يبرأ توماس رايس من مرضه ويساعدني. هذا يذكرني، ما هو مرض «الشيلي»؟».

– «مرض الشيلي»، ردد صديقه مرتعداً. «ان هذا يتعلق بنوع ما من السموم، أليس كذلك؟».

– «اللعة؟ قال شريفنهام محدقاً، «ظننت أن هذا مجرد مرض سارٍ شيء ما يشبه مرض الزحار».

– «آه، لا. انه مركّب كيميائي. تستخدمه الزوجات للتخلص من أزواجهن وبالعكس».

صمت شريفنهام مذهولاً كلياً. لقد بدأت تتوضح له الآن بعض الوقائع البشعة. كان كروفتون لي لُح في الواقع بأن توماس رايس المستشار الشرقي لدى السفارة، لم يكن يعاني من التهاب معوي،

بل من حالة تسمم بالزرنيخ. إضافة الى هذا فقد أشار السير روبرت الى ان حياته هو أيضاً في خطر، وكان قراره عدم تناول اي طعام أو شراب حضر في مطبخ السفارة مؤذياً جداً لشريفنهام الذي يعتز بروحه الوطنية البريطانية. لقد أخفق في تصور كل ما يحدث.

الفصل العاشر

لم يكن انطباع فيكتوريا الاول عن بغداد جيداً بالتأكيد وهي تتنفس في صعوبة في الغبار الأصفر الحار. طوال الطريق الممتد بين المطار وفندق تيو قضّ مضجعها ضجيج منهك ومتواصل. أبواق سيارات تزعق في عناد مسعور، صراخ، صفارات، ثم اندلاع أشد عنفاً ومن دون مبرر لأبواق شاحنات ضخمة. إضافة الى هذا الضجيج المريع في الشارع، كان هناك أيضاً التدفق الحاد لثرثرة السيدة كليب اللامتناهية.

أدركت فيكتوريا فندق تيو وهي في حالة ذهول كليّ.

كانا وصلا الى هناك بعدما تحوّلا عند الشارة الضوئية في شارع الرشيد ودخلا معبراً قصيراً على مقربة من نهر دجلة. طلعا درجات قليلة وهناك عند مدخل الفندق استقبلهما شاب بدين جداً بابتسامة عريضة توحى بمدى العزة التي يكنها لهما وقدرت فيكتوريا انه ماركوس - وعلى الأصح السيد تيو صاحب فندق تيو.

قوطعت عبارات الترحيب بصرخات أمرة توجه الخدم الى سبل ترتيب انزال الحقائب.

«ها أنت مجدداً يا سيدة كليب - لكن ذراعك - ما هذا الشيء

المضحك الذي لففته حولها؟ (أيها الأغبياء لا تحملوا هذا بواسطة الحبال! حمير! لا تجرّجروا ذلك المعطف!) - لكن يا عزيزتي، يا له من يوم للوصول - لم يخطري أبداً أن الطائرة سستمكن من الهبوط. كانت تدور وتدور وتدور. وقلت لنفسي، يا تيو لا تسافر أبداً في الطائرة، لم العجلة، ما الأهمية - ولقد اصطحبت معك هذه الفتاة الشابة - أمر جميل أن نرى غالباً سيدات صغيرات في بغداد - لم لم يحضر السيد هاريسون لملاقاتك - لقد توقعت أن يأتي البارحة، لكن، يا عزيزتي ينبغي أن تشربي شيئاً ما على الفور».

كانت فيكتوريا مترنحة بعض الشيء، وكان رأسها يدور قليلاً تحت تأثير كوب الشراب المضاعف الذي أصرّ ماركوس على تقديمه لها. كانت تقف داخل غرفة بيضاء تحتوي سريراً نحاسياً الى جانب طاولة فخمة جداً من الطراز الفرنسي الحديث، وخزانة من العهد الفيكتوري وكريسين مخمليين أنيقين. كانت حقيبتها المتواضعة ممددة قرب قدميها بينما قام رجل عجوز جداً شاحب الوجه وراء شاربين أبيضين بتوزيع المناشف في حمامها، ثم سألها إن كانت تريده أن يحضر لها مياه ساخنة لتستحم.

- «كم من الوقت يستلزم هذا؟».

- «بين العشرين والثلاثين دقيقة. سأذهب وأقوم بالأمر الآن».

انسحب مبتسماً بعطف بينما جلست فيكتوريا على حافة السرير ومدت يدها متفحصة شعرها. كان محشواً بالغبار وكان وجهها ناشفاً وقاسياً. نظرت الى نفسها في المرآة. كان الغبار غير لون شعرها من أسود الى بني أحمر غريب. أزاحت الستارة الى الزاوية وخرجت الى الشرفة الواسعة المطلّة على النهر. لكن لم تستطع رؤية

شيء سوى ضباب أغبر وكثيف فوق دجلة . كانت على شفير انهيار عصبي ، وحدثت نفسها قائلة : «يا له من مكان كريه» .

بعدما استحمّت تناولت طعام الغداء ونامت طويلاً ، وعندما استفاقت خرجت مجدداً الى الشرفة من غرفة النوم وحدثت في بهجة في امتداد نهر دجلة . كانت العاصفة الرملية قد اختفت واستبدل الضباب الأصفر بضوء واضح يشع فوق النهر ، وتراءت لها أشجار البلح النخيلة وبيوت متفرقة .

تناهت الى فيكتوريا أصوات من الحديقة . فتقدمت الى حافة الشرفة وتطلعت الى تحت .

كانت السيدة هاميلتون كليب الثرثرة من دون كلل ، قد تعرفت الى امرأة انكليزية . انها واحدة من أولئك النساء الانكليزيات اللواتي تجدهن في أي مدينة غريبة .

- «... لا أعرف أبداً كيف كان يمكن أن أتصرف من دونها» .
وتابعت السيدة كليب تقول ، «انها فتاة رقيقة الى أقصى الحدود . ومن عائلة محترمة . إنها قريبة أسقف لانغو» .
- «أسقف ماذا؟» .

- «ماذا ، اظن أسقف لانغو» .

- «هذا هراء . لا وجود لهذا الشخص» ، انبرت الأخرى .
ارتعدت فيكتوريا ، إذ أيقنت ان هذه المرأة الانكليزية ليست من النوع الذي يخدع في سهولة ، إن كان الأمر يتعلق بأسقف مزيف .
- «آه ربما لم أنتبه جيداً للإسم» . قالت السيدة كليب مرتابة .

- «لكن»، وأردفت مضيفة، «إنها على أية حال فتاة طيبة جداً وطموحة».

- «ها»، قالت الأخرى بنبرة لئيمة غير موافقة.

قررت فيكتوريا أن تباعد ما أمكنها البعد عن هذه المرأة. شيء ما في داخلها أُنذرها بأن اختلاق القصص لارضاء هذا النوع من النساء ليس بالأمر الهين.

عادت فيكتوريا الى غرفتها، جلست على السرير وراحت تراجع متأملة كل احتمالات وضعها الحالي.

إنها تقيم في فندق تيو، والذي كانت واثقة الى حد ما انه لم يكن مرتفع الأجر أبداً. كانت تمتلك أربعة جنيهات و١٧ شلناً. كانت تناولت طعام غداء مهماً لم تكن دفعت ثمنه بعد، وكانت السيدة كليب على استعداد للقيام بهذا. وكانت السيدة كليب تكفلت بكافة مصاريف السفر الى بغداد. كانت الصفقة تمت بشكل كلي. لقد وصلت فيكتوريا الى بغداد وحظيت السيدة كليب بكل العناية التي كان يمكن أن تؤمنها لها قريبة أسقف، ممرضة مستشفى سابقة وسكرتيرة ناجحة. انتهى كل شيء برضى واكتفاء كل من الطرفين. سوف تغادر السيدة كليب في قطار المساء الى كركوك وهكذا يكون قد انقضى الامر. راقت لفيتكتوريا فكرة أن تقوم السيدة كليب باعطائها بعض المال كهدية وداع، لكنها عادت واستبعدت الفكرة معتبرة إياها غير معقولة. ربما لم تكن السيدة كليب تعلم أي شيء عن الضيق المادي الخانق الذي كانت فيكتوريا تعانيه.

ماذا ينبغي إذن لفيتكتوريا أن تفعل؟ وجاء الجواب فوراً. إيجاد إدوارد بالطبع.

انتبهت متضايقة . انها كانت تجهل اسم إدوارد الأخير . وتذكرت فيكتوريا قصة تلك الجارية العربية التي جاءت الى انكلترا ولم تكن تعرف سوى اسم عشيقها «جيبيرت» ، واسم انكلترا . إنها قصة رومنسية لكنها حقيقية إذ انه في انكلترا إبان الحروب الصليبية ، لم يكن أحد يملك اسماً ثانياً أو أخيراً . ومن جهة ثانية فإن انكلترا أكبر بكثير من بغداد . مع ان عدد سكان انكلترا كانوا أقل عدداً يومذاك .

انتشلت فيكتوريا أفكارها من تأملاتها المستطردة وعادت الى أرض الواقع الصعب . يتوجب عليها أن تعثر فوراً على إدوارد وضروري أن يجد لها هذا الأخير عملاً على الفور .

لم تكن تعرف كنية إدوارد ، لكنه كان قدم الى بغداد كسكرتير للدكتور راسبون ، والمقدر أن الدكتور راسبون رجل مهم .

بؤذرت فيكتوريا أنفها ، وربّت شعرها ثم نزلت الأدراج لتقصّي المعلومات .

ماركوس الدائم البسمة ، حيّاها بإشراق وهي تعبر ردهة فندقه الواسعة .

– «آه ، الأنسة جونز ، هلاً اتيت معي لنتناول كأساً من الشراب ، الا ترغبين بذلك يا عزيزتي؟ أنا أحب كثيراً الفتيات الانكليزيات . كل سيدات بغداد الانكليزيات صديقات لي . الجميع سعيد جداً في فندقي . هيا تعالي ندخل الملهى» .

لم يكن لدى فيكتوريا أي ضغينة تجاه الضيافة المجانية . فاستسلمت بكل سرور .

جالسة على كرسى تحتسي الشراب، بدأت لتوها التحري عن معلومات.

- «هل تعرف أحداً يدعى الدكتور راسبون، لقد وصل الى بغداد مؤخراً؟».

- «أعرف الجميع في بغداد»، انبرى السيد تيو مرحباً، «والجميع يعرف ماركوس. ما أقوله لك صحيح، آه، لدي الكثير الكثير من الأصدقاء».

رددت فيكتوريا: «أنا متأكدة من هذا الأمر. هل تعرف الدكتور راسبون؟».

- «في الأسبوع الماضي نزل عندي الماريشال الطيار قائد كل قوى الشرق الأوسط العسكرية. قال لي، يا ماركوس أيها الأزعلم أرك منذ ١٩٤٦. أنت لم تهزل البتة. آه انه رجل نحيل جداً. أنا أحبه كثيراً».

- «ماذا بشأن الدكتور راسبون. هل هو رجل لطيف؟».

«أتعرفين أنا أحب صنف الناس الذين يستمتعون بحياتهم. لا أحب الوجوه العابسة. أحب أن يكون الناس مرحين، ممثلين شباباً وجذابين - مثلك أنت. قال لي ذاك الماريشال: «يا ماركوس أنت تعشق النساء»، فأجبت، «لا. مشكلتي اني أحب كثيراً ماركوس...» ثم انفجر مقهقهاً، توقف بعدها ليهتف: «جيزون» (وهو اسم السيد المسيح بالانكليزية).

ذهلت فيكتوريا، لكنها اكتشفت انه اسم الساقى الأول. وشعرت مرة جديدة باختلاف هذا المكان الذي يدعى الشرق.

امر ماركوس: «أريد كأسين آخرين».

- «لا اظن اني...».

- «أجل، أجل ستشربين، انه مشروب خفيف، خفيف جداً».

قالت فيكتوريا بالحاح: «ماذا بشأن الدكتور راسبون؟».

- «السيدة هاميلتون كليب تلك - يا له من اسم غريب - تلك التي حضرت معها أميركية - أليست كذلك؟ - أحب الأميركيين لكني افضل عليهم البريطانيين. الأميركيون يبدون دائماً قلقين. لكنهم احياناً ظريفون - السيد سامرز، أنت تعرفينه أليس كذلك؟ - إنه يشرب كثيراً حين يأتي الى بغداد. ينام ثلاثة أيام من غير انقطاع ولا يصحو أبداً. هذا كثير، هذا إسراف.. ليس هذا بالتصرف اللطيف».

- «ارجوك، ساعدني»، قاطعته فيكتوريا فجأة.

بدا ماركوس مندهشاً.

- «لكن بالطبع سأساعدك. أنا اساعد دائماً أصدقائي. قولي لي ماذا تريدان - وسيكون لك هذا على الفور. هل تريدان شريحة لحم محضرة بطريقة خاصة، أم ديكاً حبشياً مطبوخاً جيداً مع الارز والزبيب والعشاب، أم فراخاً صغيرة».

- «لا أريد فراخاً»، ردت فيكتوريا، «على الأقل ليس الآن». ثم أضافت بحذر، «أريدك أن تجد لي الدكتور راسبون. لقد وصل منذ زمن قليل الى بغداد، برفقة سكرتيره».

- «لا أعرف»، قال ماركوس، «انه لا يقيم في الـ«تيو»».

كان الایحاء واضحاً. إن أي واحد لا ينزل في فندق تيو غير موجود بالنسبة لماركوس.

- «لكن هناك فنادق أخرى»، تابعت فيكتوريا ملحة، «قد يكون لديه منزله الخاص».

- «آه، أجل. هناك فنادق أخرى. قصر بابل، سنحريب، فندق زبيدة. انها فنادق جيدة. لكنها ليست مثل فندق تيو».

- «أنا واثقة من هذا»، أكدت له فيكتوريا، «لكن الا تعرف ان كان الدكتور راسبون مقيماً في أحدها؟ انه يدير مؤسسة ما. مؤسسة تهتم بالثقافة والكتب».

أصبح ماركوس فجأة جدياً عند ذكر الثقافة وبادر إلى القول: «هذا ما نحن في حاجة اليه. يجب أن يكتفوا النشاطات الثقافية، الفن والموسيقى. هذا جيد جداً، جيد فعلياً. أنا شخصياً أحب السوناتات المعزوفة على الكمان إن لم تكن طويلة».

بينما وافقته كلياً وخصوصاً في ما يتعلق بالقسم الأخير من خطابه، لاحظت فيكتوريا انها لم تكن تقترب ذرة واحدة من هدفها. كان الحديث مع ماركوس مسلياً للغاية، وكان شخصاً جذاباً بحماسته الطفولية وعشقه للحياة. غير أن الحوار معه ذكرها بمحاولات «اليس» لايجاد طريقها الى التلة في «أرض العجائب». مع تطرقهما الى أي موضوع كانت تجد في النهاية أنهما يعودان الى نقطة الانطلاق الا وهي: «ماركوس!».

رفضت تناول كأس آخر ونهضت حزينة. شعرت برأسها يدور بعض الشيء. كانت تلك الكؤوس التي شربتها قوية. غادرت الملهى

وخرجت الى الشرفة ، وقفت هناك قرب المتكأ تتأمل النهر، حين حدّثها
احدهم من خلفها.

- «اعذريني. لكن من المستحسن أن تذهبي وترتدي معطفاً. قد
يبدو الطقس أشبه بالصيف، وذلك لأنك قادمة من انكلترا، إلا أنه
يصبح بارداً جداً بعد غياب الشمس».

كانت السيدة الانكليزية التي كانت تتحدث في وقت سابق مع
السيدة كليب. كان صوتها أجش وكانما هولواحدة اعتادت تدريب
كلاب السباق ومناداتها. كانت ترتدي معطفاً من الفرو وتضع
بطانية على ركبتيها. جلست وبين يديها كوب شراب.

- «آه. أشكرك». تمتمت فيكتوريا وكانت على وشك الفرار معجّلة
حين انبرت المرأة وأفشلت مشروعها.

- «يجب أن أقدم لك نفسي. أنا السيدة كاردو ترانش. (كان ما
تريد التلميح اليه جلياً، إنها إحدى سيدات عائلة كاردو ترانش
الراقية)، أظن أنك وصلت مع السيدة - ماذا كان اسمها - آه
هاميلتون كليب».

- «أجل»، ردت فيكتوريا، «هذا صحيح».

- «لقد أخبرتني أنك قريبة لأسقف لانغو».

قالت فيكتوريا ممازحة.

- «أهذا صحيح؟» تساءلت بنبرة مرحة.

- «لقد فهمت بشكل مغلوط، أليس كذلك؟».

ابتسمت فيكتوريا.

«الأميركيون يتلفظون عادة ببعض أسمائنا بشكل خاطئ». يعتقد البعض أحياناً أن الاسم هو لانغو، ارتجلت فيكتوريا التبرير بسرعة، «لكنه في الحقيقة لانغوا».

- «لانغوا؟».

- «أجل إنها منطقة في أرخبيل المحيط الهادئ». أن عمي هو في الواقع أحد أساقفة المستعمرات».

- «آه. أسقف في المستعمرات!»، قالت السيدة كارديو ترانش وقد انخفضت نبرة صوتها ثلاث نغمات على الأقل.

وكما خمنت فيكتوريا كانت السيدة ترانش تجهل تماماً ما يتعلق بأساقفة المستعمرات.

وأضافت السيدة كارديو ترانش: «هذا يفسر الأمر».

فكرت فيكتوريا في كبرياء، أنها استطاعت خلال وقت ضئيل ابتكار تفسير بمنتهى الذكاء.

وسألت السيدة كارديو ترانش بحسرية طبيعية واضحة: «ماذا جئت تفعلين هنا؟».

لم يكن من المعقول أن يكون جواب فيكتوريا سهلاً إلى حد الرد بـ: «لقد جئت أبحت عن شاب تحدثت إليه بضع دقائق في ساحة عامة في لندن»، لم تكن لتفعل هذا. بل أجابت وقد تذكرت الفقرة التي كانت قرأتها في الصحيفة، وما كانت قالتها للسيدة كليب: «لقد جئت للالتحاق بعلمي الدكتور باونسفوت جونز».

- «آه، لقد فهمت الآن»، وبدأ واضحاً أن السيدة كارديو ترانش كانت مسرورة جداً كونها اكتشفت أخيراً حقيقة فيكتوريا. وأردفت،

«انه رجل رائع، مع انه شارد الذهن بعض الشيء. على أية حال أعتقد انها حالة نتوقعها ونفهمها بالتأكيد. لقد سمعت محاضراته السنة الفائتة في لندن. كانت خارقة، على الرغم من أنني لم أفهم البتة ما كان يتحدث عنه. أجل لقد مرّ في بغداد منذ أسبوعين تقريباً. أعتقد انه جاء على ذكر بعض الفتيات اللواتي ينتظر جيئهن في وقت ما عند نهاية هذا الفصل».

بعدما أعدت فيكتوريا جملتها، عجّلت وطرحت سؤالها بشكل خاطف:

- «هل تعلمين إن كان الدكتور راسبون هنا؟».

- «لقد وصل مؤخراً. أظن انهم طلبوا إليه تقديم محاضرة في المعهد نهار الخميس المقبل. محاضرة عن «العلاقات والأخوة في العالم»، أو ما يشابه. أشياء عديمة الجدوى حسب رأيي. كلما حاولت جمع الناس يتضاعف الشك لديهم ببعضهم بعضاً. كل هذه الأشعار والموسيقى، وترجمة أعمال شكسبير ووردسورث الى العربية والصينية والهندوستانية لا علاقة لها بهؤلاء الناس. تصوري قصيدة تحكي عن زهرة الربيع، وغيرها، ماذا ينفع هذا أناساً لم يروا في حياتهم زهرة ربيع؟».

- «أين يقيم الآن، هل تعرفين؟».

- «انه في فندق قصر بابل على ما أظن. غير أن مركزه يقع في مكان ما قرب المتحف. متحف «غصن الزيتون»، انها تسمية مضحكة. والمركز مليء بالفتيات، كلهن يرتدين سراويل فضفاضة، رقابهن متسخة ويضعن نظارات طبّية».

قالت فيكتوريا: «لدي معرفة ضئيلة بسكرتيره».

- «آه. أجل. دعيني أذكرك الاسم. أجل ادوارد «الفتى النحيل» انه شاب لطيف. خسارة أن يضَيِّع وقته في هذا المركز. لقد أبلى بلاء حسناً في الحرب، كما سمعت. في النهاية العمل هو العمل. انه شاب فائن. أتصور أن تكون كل أولئك الفتيات الجادات مغرمات به».

اجتاحت فيكتوريا موجة غيرة عارمة.

- «غصن الزيتون»، رددت وسألت، «أين قلت انه يقع؟».

- «هناك فوق، خلف المنعطف عند الجسر. في شارع يتشعب من شارع الرشيد. المركز لا يبعد كثيراً عن سوق النحاس».

وتابعت السيدة كارديو ترانش: «وكيف حال السيدة باونسفوت جونز. هل ستحضر قريباً؟ سمعت انها كانت مريضة؟».

كونها حصلت على المعلومات التي تريد، قررت فيكتوريا عدم المخاطرة، وبالأحرى عدم ابتكار خرافات جديدة. التفتت الى ساعة يدها وانتفضت مذعورة.

- «آه. رباه. لقد وعدت السيدة كليب أن أوقظها عند الساعة السادسة والنصف، ومساعدتها للتحضير لرحلتها. يجب أن أنطلق على الفور».

كان العذر صادقاً الى حد ما هذه المرة. إذ ان فيكتوريا كانت ادعت أن موعدها في الساعة السادسة والنصف بينما الوقت الحقيقي للموعد هو السابعة. صعدت الادراج مهرولة ومبتهجة. غداً سوف تلتقي إدوارد في غصن الزيتون. فتيات جادات برقيات متسخة، ليس كذلك! بدا أنهنّ بشعات... راود فيكتوريا متضايقة، ان الرجال أقل قسوة في حكمهم على ذوات الرقيات المتسخة من

السيدات الانكليزيات الكهلات والمهوسات بالنظافة. وخصوصاً حين تحديق صاحبات تلك الرقبات بعيون تشع افتتاناً وهياماً برجل ما.

مضت العشية بسرعة. تناولت فيكتوريا وجبة عشاء مبكرة مع السيدة كليب، هذه الأخيرة التي كانت تثثر كالعادة وفي مطلق موضوع تحت الشمس. ألحّت على فيكتوريا الذهاب لزيارتها عند شقيقتها، وقامت الفتاة بتسجيل العنوان في انتباه. في النهاية لا أحد يعلم ما يمكن أن يحصل... رافقت السيدة كليب الى محطة بغداد الشمالية للقطارات، وغادرت بعد أن رتبت لها تماماً كل احتياجاتها وأوصلتها الى مقصورتها داخل القطار. وكانت السيدة كليب التقت في القطار صديقاً قديماً لها، وأخذ على عاتقه مسألة الاعتناء بها ومساعدتها على الذهاب الى الحمام في صباح اليوم التالي.

بعث محرك القطار أصواتاً أشبه بصرخات حزينة كما لو أن روحاً تتألم. دست السيدة كليب مغلفاً في يد فيكتوريا قائلة: «انها مجرد هدية تذكارية يا آنسة جونز، لقد كانت رفقتك ممتعة جداً وأرجو أن تقبلها مع شكري الجزيل».

قالت فيكتوريا: «لكن هذا لطيف جداً منك يا سيدة كليب. منتهى اللطف». رددت هذا بغبطة، بينما زعق بوق القطار مرة رابعة وأخيرة وتحرك ببطء ليغادر المحطة.

ركبت فيكتوريا في طريق العودة الى الفندق سيارة اجرة، وكانت تجهل كلياً أي طريق تسلك نحو أي مكان آخر، ولم تلمح مطلق شخص كان يمكن أن يساعدها.

حين وصلت الى فندق تيو، ركضت فوق الدرجات ودخلت غرفتها. فتحت المغلف متلهفة، في داخله وجدت زوج جوارب من النايلون. لو كانت فيكتوريا تلقت هذه الجوارب النايلون في أي وقت آخر لكان أسعدها هذا كثيراً، ذلك لأن ميزانيتها لم تكن تؤمن لها هذا الترف أبداً. غير أنها في هذه اللحظة كانت في حاجة ماسة الى المال، وتمنت لو لم تكن السيدة كليب بهذه الدرجة من اللباقة. ليتها وضعت خمسة دنانير ولم تخجل من ذلك.

على أية حال، غداً ستلتقي ادوارد. خلعت فيكتوريا ملابسها، استلقت على الفراش وغفت في سرعة. حلمت انها تقف في مطار ما بانتظار ادوارد، غير أن واحدة بنظارات طبية منعتة من الوصول اليها. كانت تلك الفتاة تعانقه متشبثة برقبته بينما كانت طائرته تتحرك لتطير...

الفصل الحادي عشر

استفاقت فيكتوريا وكانت شمس الصباح تشع مشرقة . ارتدت ملابسها وخرجت الى الشرفة الواسعة المتصلة بغرفة نومها . على مسافة قريبة جلس رجل على كرسي مديراً لها ظهره وكانت خصلات شعره البيضاء المجددة منسدلة على رقبته السمراء القوية . حين ادار الرجل راسه الى الجانب فوجئت فيكتوريا مكتشفة انه السير روبرت كروفتون لي . لماذا فوجئت الى هذا الحد ، لم تستطع هي نفسها ان تفسر . ربما لأنها كانت افترضت بطبيعة الحال ، ان شخصية مهمة كالسير روبرت كان يقيم في السفارة وليس في فندق . في مطلق الاحوال هوذا امامها ، يحدق في دجلة بتركيز شديد . لاحظت أيضاً وجود منظار الى جانب كرسيه ، وافترضت انه يهوى مراقبة العصافير .

مرة اعجبت فيكتوريا بشاب يهوى مراقبة العصافير ورافقته خلال عدة عطلات اسبوعية . كانت مجبرة على الوقوف من دون ادنى حراك في الغابات الممطرة وفي الرياح الجليدية لمدة ساعات ، وكل هذا لتتظر في النهاية عبر المنظار الى عصفور ما كئيب المظهر على غصن بعيد . وعلى الرغم من ابتهاج ذاك الشاب بالمنظر فإن أياً

من تلك العصافير لم يستطع لفت انتباهها أكثر من أي عصفور عادي.

تابعت فيكتوريا ونزلت الى الطابق الأرضي حيث التقت ماركوس تيو على الشرفة التي تفصل بين عمارتي الفندق.

قالت له: «أرى ان السير روبرت كرفتون لي نزيل عندك».
- «آه. أجل». رد ماركوس مبتسماً، «انه رجل لطيف، لطيف جداً».

- «هل تعرفه جيداً؟».

- «لا هذه أول مرة أراه. لقد أحضره الى هنا البارحة السيد شريفنهام أحد موظفي السفارة البريطانية. السيد شريفنهام رجل ممتاز أيضاً. أنا أعرفه جيداً».

تابعت فيكتوريا لتتناول فطورها، وتساءلت ما إذا كان هناك أحد لا يعتبره ماركوس لطيفاً. كان يشبه مؤسسة خيرية.

بعد الافطار انطلقت فيكتوريا تبحث عن «غصن الزيتون».

كانت تتكلم بلكنة لندنية خالصة، ولم تكن لديها أدنى فكرة، عن صعوبة العثور على مكان معين في مدينة مثل بغداد، حتى بدأت مسعاها.

التقت ماركوس مرة أخرى وهي خارجة وسألته أن يدهاها الى طريق المتحف.

اجاب ماركوس مبتسماً: «انه متحف جميل. أجل. مليء بالتحف المهمة والقديمة جداً جداً. أنا شخصياً لم أذهب الى هناك. لكن لدي أصدقاء. أصدقاء هم علماء آثار. ينزلون هنا دائماً حين يأتون

الى بغداد. السيد بايكر، السيد ريتشارد بايكر هل تعرفينه؟
والبروفسور كالزمان؟ والدكتور باونسفوت جونز - والسيد والسيدة
ماكينتاير - كلهم ينزلون في الـ«تيو» انهم أصدقائي. ويخبرونني
عن موجودات المتحف. أشياء في غاية الأهمية».

- «أين يقع. وكيف يمكنني الوصول الى هناك؟».

- «تمشين في اتجاه مستقيم عبر شارع الرشيد - الطريق
طويل - بعد منعطف جسر فيصل وخلف شارع المصارف - هل
تعرفين شارع المصارف؟».

ردت فيكتوريا: «لا أعرف شيئاً».

- «ثم هناك شارع آخر. ينحدر ايضاً من الجسر وفي اتجاه
اليمين. اسألي هناك عن السيد بتون ايفانز، انه مستشار انكليزي
هناك - انه رجل طيب جداً. وزوجته ايضاً طيبة جداً. لقد جاءت الى
هنا كرقيب مواصلات ابان الحرب. آه انها لطيفة جداً جداً».

- «في الواقع انا لست ذاهبة الى المتحف»، وأضافت فيكتوريا،
«انا أبحث عن مكان - مركز - أو ناد يدعى «غصن الزيتون»».

- «إن كنت تريدان زيتوناً»، انبرى ماركوس وتابع، «أستطيع أن
اعطيك زيتوناً ممتازاً من النوعية الفاخرة. انهم يحفظونه لي
خصيصاً، لفندق تيو. سترين، سأبعث لك أنموذجاً منه الى طاولة
عشاءك هذه الليلة».

رددت فيكتوريا وهي تهرب في اتجاه شارع الرشيد: «هذا لطيف
جداً منك».

هتف ماركوس في إثرها: «إلى اليسار، لكن الطريق طويلة الى
المتحف. من الأفضل أن تذهبي في سيارة تاكسي».

- «أوهل يعرف سائق التاكسي أين يوجد مركز «غنصن الزيتون»؟».

- «لا انهم لا يعرفون أين يقع أي شيء. يجب أن توجهي السائق. الى اليمين، الى اليسار، توقف. تقدم الى أن تصلي الى حيث تريد الذهاب».

- «في هذه الحالة أفضل أن أمشي»، ردت فيكتوريا.

أدركت شارع الرشيد وانعطفت الى اليسار.

كانت بغداد مختلفة تماماً عما تخيلت أن تكون. شارع مكتظ بالبشر، سيارات تجوز بشراسة، أناس يزعقون، بضاعة أوروبية في واجهات المتاجر، بصاق ونخامة كالشلالات. لا وجوه شرقية سرية الملامح. معظم الناس في أسمال أو في ملابس أوروبية بالية. أيضاً في ملابس عسكرية ولا سيما ملابس سلاح الجو قديمة وممزقة. الهيئات العابرة بأثواب سوداء وبرؤوس محجبة كانت تقريباً غير مرئية وسط تلك الأزياء الأوروبية الهجين. شحاذون منتحبون كانوا ينقضون عليها من كل الجهات. نسوة يحملن أطفالاً قذرين بين أذرعهن.

تابعت سيرها وقد شعرت فجأة بالغربة والتهية والغربة. لم يكن هناك أي سحر في السفر، بل ارتباك وتشوش.

وصلت أخيراً الى جسر فيصل، قطعتة وتابعت. ثم جذبها رغماً عنها خليط الأشياء الغربية في واجهات المتاجر. كان هناك أحية أطفال مع ملابس صوفية، أنابيب معجون أسنان ومستحضرات تجميل، مشاعل كهربائية، أكواب صينية وصحون. كل هذه البضاعة في واجهة واحدة.

مع الوقت تملكها نوع من الافتتان. افتتان بتلك البضاعة
المنوعة المحتشدة من كل صوب من العالم لتؤمن حاجيات ورغبات
مجموعة بشرية هجين.

عثرت على المتحف، لكنها لم تجد «غصن الزيتون». كان أمراً غير
قابل للتصديق بالنسبة لواحدة اعتادت التجول بكل سهولة في
لندن، أن لا تجد هنا مطلق شخص يمكن حتى أن تسأله. لم تكن
تتكلم العربية. أصحاب المتاجر الذين تحدثوا إليها بالانكليزية وهي
تعبر مستعرضين بضاعتهم، كانوا يقفون مشدوهين حيث كانت
تسألهم عن الاتجاه الموصل الى مركز «غصن الزيتون».

لو كان الواحد يستطيع فقط أن يسأل شرطياً. غير أنها نظرت
اليهم وهم يلوّحون بأذرعهم وينفخون صفاراتهم، وأيقنت انها لن
تصل الى نتيجة.

دخلت مكتبة تحوي كتباً انكليزية في واجهتها. إلا أن ردة الفعل
الوحيدة التي حصلت عليها حين ذكرت «غصن الزيتون» كان هزة
رأس وكشف مستهجنة. للأسف لم تكن لديهم أية فكرة عن كل هذا.

وبينما كانت تسير بعدها عبر الشارع، سمعت طرقاتاً ورنيناً
صاخبين تدفقا باتجاهها من زقاق معتم. تذكرت عندها أن السيدة
كاردو ترانش كانت قالت لها إن «غصن الزيتون» يقع قرب سوق
النحاس. لقد وجدت على الأقل سوق النحاس.

اندفعت فيكتوريا داخل السوق وطوال ثلاثة أرباع الساعة
القالية نسيت كلياً «غصن الزيتون». سحرها شارع النحاسين.
مصاييح الزجاج المنفوخ، النحاس الذائب، بهرها عالم الحرفيين

وهي الفتاة اللندنية التي لم تشاهد من قبل سوى بضاعة جاهزة ومعروضة للبيع، تجوّلت عشوائياً داخل السوق ثم عبرت سوق النحاسين وأدركت سوقاً تكدست فيه البطانيات المقلّمة وأغطية الأسرّة المنجّدة. هنا بدت البضاعة الأوروبية غير الليفة بين القناطر والعتمة الرطبة. بل انها اتخذت طابعاً غريباً كشيء أت من وراء البحار. شيء عجيب ونادر. كانت البالات البخسة القطنية ذات الالوان المبهرجة تعكس في الأعين بهجة كالعيد.

بين الحين والآخر كانت تسمع هتافات: «بالك، بالك»، وتمر قريبها حمير محمّلة أو بغال، أو عتالون تتأرجح فوق ظهورهم أحمال ثقيلة. كان أولاد صغار يندفعون اليها وقد تدلت أمامهم صوانٍ علقت برقابهم:

– «انظري يا سيدتي، انه بلاستيك جيد، بلاستيك انكليزي. أمشاط. أمشاط انكليزية؟».

كانوا يدفعون اليها الصواني، يحشرونها تحت أنفها يحثّونها بإلحاح على الشراء. كانت فيكتوريا تسير وكأنها في حلم سعيد. هذا ما يسمى فعلياً بمشاهدة العالم. في كل زاوية من أزقة ذلك العالم البارد من القناطر كان يمكن أن تطلع لك أشياء غير متوقعة: رفاق خياطين جلسوا يدرزون على ماكانت خياطة وانتشرت حولهم صور أزياء أوروبية رجّالية. ثم بعدها بسطات ساعات يد وجواهر رخيصة ومزيفة. بالات أقمشة مقصّبة ومطرزة. وفي الشارع التالي ملابس أوروبية مستعملة رخيصة ومكربة، بنظولونات شاحبة وسترات مهلهلة.

بين الفترة والأخرى كانت تعبر ساحات ساكنة مشرّعة الى السماء.

وصلت الى ممر واسع تباع فيه البنطلونات الرجّالية، حيث
جلس تجار محترمون بعماماتهم داخل متاجرهم المنفصلة.

«بالك!».

كان حمار محمل يتجه نحوها، فانعطفت ودخلت زقاقاً ضيقاً
مشرعاً لنور الشمس. تابعت تسير بين بيوت مرتفعة. وبينما هي
تجول وصلت صدفة الى المكان الذي كانت تبحث عنه. عبر فتحة
نظرت الى باحة صغيرة مربعة وإلى الناحية البعيدة منها قرأت باباً
صغيراً كتب فوقه بأحرف عريضة «غصن الزيتون». الى جانب
الاسم ثبت شكل قد يشبه العصفور وفي منقاره غصن لا علاقة له
بالأغصان.

عجلت فيكتوريا مسرورة وعبرت الساحة ثم الباب المشرع.
ووجدت نفهسا داخل غرفة بالكاد مضاءة وبين طاولات مغطاة
بالكتب والمجلات، ورفوف مثقلة بالكتب المرصوفة بدا المكان أشبه
بمكتبة لولا الكراسي القليلة المنتشرة هنا وهناك.

أطلت من العتمة القليلة امرأة شابة وحدثت فيكتوريا بلكنة
انكليزية وقورة:

- «بماذا يمكن أن أساعدك؟».

نظرت اليها فيكتوريا. كانت ترتدي بنطالاً مخملياً مضلعاً،
ومقيصاً قطنياً برتقالياً من دون أكمام. كان شعرها الأسود المزيّن
مقصوصاً قصيراً كالاطفال وبطريقة مقينة. كان وجهها تعيساً،

وعيناها واسعتين حزينتين فوق أنف كبير.

- «هل هذا، هل هنا، هل، هل الدكتور راسيون موجود هنا؟».

اغضبها أنها لا تزال الى الآن تجهل اسم عائلة إدوارد! حتى السيدة كاردو ترانش أسمته إدوارد «الفتى النحيل».

- «أجل، الدكتور راسيون. هنا مركز غصن الزيتون. هل ترغبين في الانضمام إلينا؟ أجل؟ هذا جيد جداً».

- «في الواقع، ربما. أود - هل أستطيع مقابلة الدكتور راسيون إن سمحت؟».

ابتسمت المرأة الشابة ابتسامة متعبة.

- «لا حاجة لإزعاج الدكتور. لدي هنا استثمار. سوف أطلعك على كل ما فيها. ثم توقعين اسمك. يتوجب أن تدفعي دينارين».

قالت فيكتوريا وقد ذعرت عند ذكر الدينارين: «لست واثقة بعد إن كنت سأنضم إليكم. أود مقابلة الدكتور راسيون أو سكرتيره. سكرتيره قد يفي بالغرض».

- «سأشرح، سأشرح لك كل شيء. نحن كلنا أصدقاء هنا، أصدقاء من أجل المستقبل. نقرأ كتباً تثقيفية جيدة، ونقرأ القصائد لبعضنا بعضاً».

قالت فيكتوريا بصوت مرتفع وواضح: «أريد رؤية سكرتير السيد راسيون، لقد قال لي هو بنفسه أن أسأل عنه هنا».

تجهم وجه المرأة الشابة.

قالت: «ليس اليوم، سأوضح....».

- «لماذا ليس اليوم؟ أليس هنا؟ أليس الدكتور راسبون هنا؟».
- «أجل. الدكتور راسبون موجود. انه في الطبقة العليا.
نحن لا نزعجه عادة».

شعرت فيكتوريا في سلوك المرأة الشابة بما يشبه العداء
الأنكلوساكسوني تجاه الغرباء. وللأسف بدل أن يكون «غصن
الزيتون» مثلاً في المودة والصداقة بين الشعوب، فقد كان يفعل
العكس. هذا ما شعرت به هي على الأقل.

انبرت فيكتوريا قائلة: «لقد وصلت للتو من انكلترا»، وكانت
تتكلم بلكنة تشبه الى حد بعيد لكنة السيدة كارديت تراش المتعالية،
«إني أحمل رسالة في غاية الأهمية الى الدكتور راسبون، وأريد أن
أسلمها له شخصياً. أرجو أن توصيليني اليه في الحال!، اعتذر
لإزعاجه، لكن ينبغي أن أراه».

وأضافت: «على الفور»، لتحسم الأمر.

غالباً ما كانت تتساقط العقبات أمام بريطاني متعجرف يرغب في
تحقيق مراده. استدارت المرأة الشابة على الفور وقادتها الى الغرفة
الخلفية ثم الى الطبقة العليا، الى باحة تطل على الساحة الأمامية.
هناك توقفت أمام باب. وقرعت. ردّ صوت رجل: «أدخل».

فتحت المرأة الشابة وأشارت اليها بالدخول.

- «إن آنسة من انكلترا تطلب مقابلتك».

دخلت فيكتوريا.

انبتق رجل من وراء مكتب يعج بالأوراق وأقبل للترحيب بها.

كان رجلاً مسناً ذا هيبة، عمره حوالى الستين. جبينه مرتفع أشبه بقبة تحت شعر أبيض. كانت الرقة، عمل الخير واللطافة أبرز السمات البارزة في شخصيته. أي مخرج مسرحيات كان أعطاه من دون تردد دور شخصية محبة للبشر.

حيًا فيكتوريا بابتسامة دافئة وبذراع ممدودة.

قال: «إذاً لقد وصلت للتو من انكلترا. أهذه أول زيارة لك إلى الشرق؟».

- «أجل».

- «أتمنى لو أعرف كيف تشعرين الآن... يجب أن تخبريني يوماً ما. والآن قولي لي، هل سبق أن التقيت أم لا؟ ان نظري ضعيف ولم تقولي لي اسمك بعد؟».

ردت فيكتوريا: «أنت لا تعرفني، لكنني صديقة لإدوارد».

- «صديقة لإدوارد»، انبرى الدكتور راسبون في حماسة، «آه هذا رائع، هل يعرف إدوارد أنك هنا؟».

أجابت فيكتوريا: «ليس بعد».

- «جيد، ستكون هذه مفاجأة سارة له حين يعود».

- «يعود؟»، سألت فيكتوريا بصوت مخنوق.

- «أجل، إدوارد موجود في البصرة الآن. لقد توجب أن أرسله لاستلام صناديق كتب وصلت إلينا هناك. كان تأخر استلامها بسبب صعوبات مع الجمارك. مما استوجب تدخل شخص خبير في هذه الأمور. وإدوارد يجيد التصرف في هكذا أوضاع. يعرف جيداً متى يكون لطيفاً ومتى يتصرف بعنف، ولا يهدأ له بال حتى ينجز

الامر. انه دقيق جداً وهذه خاصية ممتازة في رجل شاب. اني اتوقع الكثير من إدوارد».

التمعت عينا فيكتوريا فرحاً.

- «لا اظن اني في حاجة لإنشاد مدائح في إدوارد أمامك انت، أيتها الشابة؟».

سألت فيكتوريا برقة: «متى - متى سيعود إدوارد من البصرة؟».

- «لا أستطيع أن أعرف الآن. لن يعود قبل انتهاء عمله. لا تستطيعين تسريع عجلة الأمور كثيراً في هذه البلاد. أخبريني أين تسكنين وسأعلمه بكل تأكيد كيف يتصل بك حالما يعود».

قالت فيكتوريا يائسة وهي تعي تماماً مأزقها المادي: «كنت أتساءل إن، إن كنت أستطيع أن أقوم بأي عمل هنا؟».

قال الدكتور راسبون في حرارة: «أني ممتن جداً، أجل بكل تأكيد تستطيعين. نحن في حاجة لكل مساعدة متوافرة. وخصوصاً إن كانت من فتيات انكليزيات. ان عملنا يسير بشكل بديع - بمنتهى الروعة - لكن ينبغي علينا انجاز الكثير. الناس متحمسون جداً. لدي الآن ثلاثون متطوعاً، ثلاثون. جميعهم متحمسون جداً. إن كنت حقيقة جادة بشأن العمل ستقدمين لنا بذلك عوناً كبيراً».

قالت: «في الواقع رغبت بوظيفة مأجورة».

- «آه»، وبدت المفاجأة على وجه الدكتور، «هذا في الواقع صعب. إن عدد موظفينا المأجورين محدود جداً. والآن وبوجود المتطوعين، اظن ان هذا غير ممكن أبداً».

- «أنا في حاجة ماسة الى عمل»، فسّرت فيكتوريا وأضافت من دون خجل، «أنا ضاربة ممتازة على الآلة الكاتبة».

- «أنا متأكد انك كفوءة يا سيدتي الصغيرة، انك تشعّين كفاءة. لكن حتى ولو حصلت على وظيفة في مكان آخر، أمل أن تساعدنا في أوقات فراغك. معظم المتطوعين لدينا يعملون في أمكنة أخرى في وظائف ثابتة. أنا واثق انك ستجدين في مساعدتنا متعة كبيرة. يجب أن يوضع حد لكل الوحشية في العالم، للحروب، لسوء الفهم والشك. نريد مكاناً مشتركاً للقاء، هذا ما نحن في حاجة اليه، مكان للمسرح، للفن، وللشعر، لنتاجات الروح، لا مكان للغيرة الحقيمة والضغائن.

- «بالتأكيد»، قالت فيكتوريا من غير اقتناع، فيما تذكرت صديقات لها عملن في حقلي التمثيل والفن وكان هاجس حياتهن الأولى الغيرة وبأسوأ انواعها، والحقد الشديد المخيف.

- «لقد قمنا بترجمة «حلم ليلة صيف» الى أربعين لغة»، وأضاف الدكتور راسبون، «أربعون مجموعة من الشبان تفاعل كل منها وعلى طريقتة مع تحفة أدبية واحدة. الشباب، هذا هو سرنا. لا يهمني سوى الشبان. المهم هو أن يتلاقى هؤلاء. خذي مثلاً هذه الفتاة التي في الأسفل، كاثرين. تلك التي اصطحبتك الى هنا. إنها سوربة من الشام. ان لديكما تقريباً العمر نفسه. كان من غير الممكن أن تلتقيا، لا شيء يجمعكما. لكن هنا في «غصن الزيتون»، يتسنى لك ولها وللكتيرين الآخرين من جنسيات مختلفة الالتقاء. هناك روس يهود، عراقيون، فتيات تركيات، أرمن، مصريون، إيرانيون، كل هؤلاء يلتقون بمحبة ويقرأون الكتب عينها

ويتناقشون في الموسيقى والفنون (وسوف ننظم محاضرات قريباً).
الجميع يكتشف ويتحمس لاكتشاف وجهات نظر مختلفة - في
النهاية هذا هو المعنى الحقيقي للعالم».

خطر ليفيكتوريا أن الدكتور راسبون متفائل أكثر من اللزوم في
تقويمه أن هذه المجموعة المختلفة والمتناقضة ستبادل الود والمحبة
في النهاية. هي وكاثرين على سبيل المثال لم تتفقا على الإطلاق.
وخامرهما أن هذا النفور بينهما سوف يتضاعف إذا التقتا مرات
أخرى.

قال الدكتور راسبون: «إدوارد شاب رائع. لديه مقدرة على
التفاهم مع أي كان. أظن على أية حال أنه ينجح أكثر مع الفتيات.
يجد التلامذة الشبان صعوبة أكثر في التأقلم هنا. يرتابون في
البداية ويصبحون أحياناً عدائين. لكن الفتيات يعشقن إدوارد،
يفعلن أي شيء من أجله. هو وكاثرين بشكل خاص متفقان على
أحسن ما يرام».

- «فعلاً»، قالت فيكتوريا في برودة وقد ازدادت كراهيتها لكاثرين
أكثر وأكثر.

وقال الدكتور راسبون مبتسماً: «مزي وساعدنا إن كنت
تستطيعين».

كان اللقاء خائباً. صافحها في حرارة. وغادرت فيكتوريا الغرفة
ونزلت الدرجات. كانت كاثرين واقفة قرب الباب تتحدث الى فتاة
كانت دخلت للتو وفي يدها حقيبة صغيرة. كانت فتاة سمراء جميلة؛
وراود فيكتوريا أنها كانت رأتها في مكان ما من قبل. لكن تلك الفتاة
نظرت اليها بغير مبالاة. كانت الفتاتان تتحادثان مأخوذتين بلغة ما

لم تفقهها فيكتوريا. توقفتا حيث أطلت عليهما وبقيتا صامتتين ومحدقتين فيها. اجتازتهما في اتجاه الباب مجبرة نفسها على أن تقول في تهذيب: «وداعاً»، لكاثرين وهي على وشك الخروج.

استطاعت فيكتوريا ايجاد طريق الخروج من ذاك الزقاق المكشوف الى شارع الرشيد، وتابعت تسير متمهلة نحو الفندق غير منتبهة لأي شيء حولها. حاولت أن تركز أفكارها على التفكير في الدكتور راسبون و«غصن الزيتون» كي تنسى قليلاً مأزقها (مفلسة في بغداد). كان إدوارد ذكر في لندن أن ثمة أمراً مريباً في شأن هذا المركز. ما هو هذا الأمر المريب؟ أهو الدكتور راسبون؟ أم مركز «غصن الزيتون» بالذات؟

لم تكن تستوعب حتى قبول فكرة الشك بالدكتور راسبون. فقد رأت فيه واحداً من أولئك المتفانين الضالين الذين يصرون على رؤية العالم بطريقتهم الخاصة المثالية، غير آبهين إطلاقاً للواقع. ماذا عن إدوارد بالتحديد حين قال «مريب»؟ كان هو نفسه مشتبك الأفكار، وربما لم يكن يعلم أي شيء.

هل من المعقول أن يكون الدكتور راسبون كاذباً ومزيفاً؟

لم يكن في وسع فيكتوريا تصديق ذلك وهي لما تزل تحت تأثير شخصيته وسلوكه الأنيقين والتميزين. لقد تغير تصرفه معها بعض الشيء بالتأكيد حين طلبت إليه وظيفة مأجورة. كان من الواضح أنه يفضل أن يعمل الناس لديه مجاناً.

وفكرت فيكتوريا ان هذا لم يكن بالأمر الغريب. إذ ان السيد غرينهولز مخدمها السابق مثلاً كان يتصرف مثله تماماً حيال هذا الموضوع.

الفصل الثاني عشر

أدركت فيكتوريا أخيراً فندق تيو وقد تورّمت قدميها. رَحِبَ بها
ماركوس في حماسة شديدة وكان يتحدث الى رجل متوسط العمر
المظهر، وهما على الشرفة الخضراء المطلّة على النهر.

- «تعالى وشاركِنا في كأس من المشروب يا آنسة جونز. أي
مشروب تفضلين؟ أعزّفك الى السيد داكين. انها الآنسة جونز من
انكلترا. والآن يا عزيزتي ماذا تطلبين؟».

اختارت فيكتوريا مشروباً وطلبت أيضاً فستقاً. وقد تذكرت ان
الفستق مغذٍ جداً.

- «رباه. أنت تحبين الفستق!» وأمر ماركوس على الفور بالعربية
بإحضار مبيتها. قال السيد داكين بصوت تعس انه يريد كوباً من
الليموناضة.

- «آه»، صرخ ماركوس، «ان هذا سخيف. آه ها هي السيدة
كاردو ترانش. هل تعرفين السيد داكين؟ ماذا تشربين؟».

اختارت السيدة كاردو ترانش مشروباً واحنت رأسها بغير مبالاة
للسيد داكين. ثم توجهت قائلة لفكتوريا: «تبددين مستنفرة».

- «كنت أتجول لأتعرّف الى المكان».

حين أحضروا المشروبات التهمت فيكتوريا كمية كبيرة من
الفستق وأيضاً بعض رقائق البطاطا المقلية.

حضر الآن رجل قصير القامة قوي البنية ورَّحَّب به ماركوس
المضيف بطريقته المعتادة. عرفه الى فيكتوريا بأنه الكابتن
كروسبي وحملق هو فيها بعينه الجاحظتين. واستنتجت فيكتوريا
انه كان حساساً تجاه الجمال الأنثوي.

- «هل وصلت اليوم؟».

- «البارحة».

- «لكنني لم أرك هنا أبداً».

قال ماركوس مسروراً: «انها لطيفة وجميلة، أليست كذلك؟ آه،
نعم، أمر رائع أن تكون الأنسة فيكتوريا عندنا. سوف أنظِّم لها
حفلاً - حفلة لطيفة جداً».

- «أجل. أجل. سيكون هناك كافيار وسمك - أسماك من دجلة،
وكل هذا مع الصلصة والفطر. ثم ديك حَبَش محشو على طريقة
بلادي، مع الرز والزبيب والتوابل. آه هذا عظيم، لكن يجب أن
تأكلوا كمية كبيرة، وليس مجرد ملعقة صغيرة، أو ان كنتم تفضّلون
سأحضر شرائح لحم. شرائح كبيرة وطرية. سوف أهتم بالآمر
شخصياً. سنقيم عشاءً مديداً يستمر ساعات. أنا شخصياً لا
أتناول الطعام. أنا أشرب فقط».

- «سيكون هذا بديعاً»، قالت فيكتوريا بصوت خافت. فيكتوريا
الجانعة، أشعرتها مواصفات اللحم التي عددها بدوار خفيف.
تساءلت إن كان ماركوس يرغب جدياً في إقامة الحفلة، وإن كان هذا
صحيحاً فهل سيكون الموعد قريباً.

توجهت السيدة كارديو ترانش الى كروسبي قائلة: «كنت أتصور انك ذهبت الى البصرة».

قال كروسبي: «لقد عدت البارحة».

نظر الى الأعلى نحو الشرفة.

سأل: «من هو قاطع الطرق هذا؟ ذاك الذي في المعطف العجيب والقبعة الكبيرة؟».

رد ماركوس: «هذا يا عزيزي هو السير روبرت كروفتون لي. السيد شريفنهايم أحضره من السفارة الليلة الماضية. انه رجل لطيف جداً، انه رخالة متميز. انه يركب الجمال عبر الصحاري ويتسلق الجبال. ان حياة كهذه تكون شاقة وخطرة جداً. انه ليست بالتأكيد النوع الذي يناسبني».

قال كروسبي: «آه، انه هو. لقد قرأت كتبه».

قالت فيكتوريا: «لقد أتينا في الطائرة نفسها».

لاحظت أن الرجلين نظرا اليها باهتمام.

تابعت فيكتوريا في استخفاف: «انه متعجرف للغاية ومزهو بنفسه».

بدأت السيدة كارديو ترانش قائلة: «لقد عرفت خالته سيملا. كل العائلة على هذا الطراز. اذكاء بالوراثة، لكن لا قدرة لهم على عدم التبجح بهذا».

قالت فيكتوريا مستنكرة: «انه ما زال يجلس هناك من دون حركة طوال الصباح».

قال ماركوس مفسراً: «انه يعاني من معدته. لا يستطيع تناول أي طعام اليوم. هذا محزن».

قالت السيدة كارديو ترانش: «لا أفهم كيف انك بهذه البدانة وانت لا تتناول أبداً أي طعام».

أجاب ماركوس: «انه المشروب. أنا أكثر المشروب. ستحضر هذه الليلة شقيقتي وزوجها. سوف أحتسي وأحتسي المشروب حتى الصباح». تنهد مجدداً ثم أصدر كالعادة هديره المفاجيء وهتف: «جيسوس، جيسوس أحضر لنا المزيد من المشروب».

أسرعت فيكتوريا تقول: «أنا لا أريد». ورفض السيد داكين أيضاً منهياً كوب الليموناضة وابتعد متمهلاً. فيما صعد كروسبي الى غرفته.

نقرت السيدة كارديو ترانش كوب السيد داكين بظفرها وقالت: «ليموناضة كالعادة؟ هذه علامة سيئة».

سألت فيكتوريا عن السبب الذي جعل هذا علامة سيئة.

- «يحتسي الرجل مثل هذا المشروب حين يكون وحيداً فقط...».

- «أجل يا عزيزتي»، قال ماركوس، «هذا صحيح».

سألت فيكتوريا: «هل هذا يعني انه يحتسي المشروب حقيقة».

ردت السيدة كارديو ترانش: «هذا هو سبب فشله الدائم. انه لا ينجح أبداً. كل ما يفعله هو المحافظة على عمله ولا شيء آخر».

قال ماركوس: «لكنه رجل لطيف جداً».

أجابت السيدة كارديو ترانش: «ياه. انه كسول للغاية وعديم

الطموح - لا قوة فيه - لا ذرة حياة. مجرد انكليزي أتى الى الشرق وسقط في غيبوبة».

شكرت فيكتوريا ماركوس على المشروب ورفضت تناول آخر. صعدت الى غرفتها، خلعت حذاءها واستلقت على السرير لتفكر ملياً. لم تعد تملك قرشاً واحداً، فكل ما في حوزتها ينبغي أن تدفعه بدلاً لغرفتها لدى ماركوس. وكان لا يمكن أن تحيا على المشروب والفسق والزيوت ورقائق البطاطا لأجل طويل. انها مجرد أيام وسيطالبها ماركوس بفاتورتها ولن يصبر طويلاً إن تأخرت. ينبغي إذاً أن تجد مكاناً أرخص للسكن. لكن كيف ستعرف الى أين تتوجه؟ يجب أن تعثر بسرعة على عمل. لكن أين يمكن أن تسأل عن عمل. كانت في بلد لا تعرف عنه شيئاً ولا عن أحد من أهله، ومفلسة، وشعرت وكأنها مشلولة. كان الأمر أشبه بالكابوس. متى سيعود إدوارد من البصرة؟ وفكرت (مذعورة) أن يكون إدوارد قد نسيها كلياً. لماذا أتت بحق السماء الى بغداد بهذه الطريقة البلهاء. من وما هو إدوارد في النهاية؟ مجرد شاب جذاب ولبق. وماذا، ماذا، ماذا. ما هو اسم عائلته؟ لو كانت تعرف هذا لكانت بعثت اليه برقية - لا فائدة. لم تكن تعرف حتى أين يقيم. لم تكن تعلم شيئاً - هذه كانت المشكلة. هذا ما كان يشل قدرتها وأسلوبها.

ولم يكن يوجد أي واحد تستطيع أن تقصده للاستشارة. ليس ماركوس بالتأكيد، فقد كان لطيفاً لكنه غير مستعد أبداً للاستماع الى أحد. ولا السيدة كاردو ترانش (التي كانت تشك فيها منذ البداية). ولا السيدة هاميلتون كليب التي اختفت في كركوك. ولا الدكتور راسبون.

يجب أن تحصل على بعض المال - أو على عمل - أي نوع من العمل. حاضنة أطفال. الخدمة في مطعم... وإذا لم يحصل هذا فسوف يرسلونها إلى القنصلية ومن هناك سيرجعونها إلى انكلترا ولن ترى إدوارد أبداً من جديد...

عند هذه المرحلة، أنهكها الهم وغفت.

استفاقت بعد ساعات وقررت بما أنه محكوم عليها بالهلاك على أية حال فليكن ذنبها مهماً على الأقل. نزلت إلى المطعم وطلبت كل قائمة الطعام - قائمة سخية جداً. حين انتهت من تناول الطعام شعرت وكأنها متورمة من كثرة ما أكلت، لكن معنوياتها ارتفعت على أية حال.

فكرت فيكتوريا: «لن ينفعني القلق بعد الآن، سأترك كل شيء إلى الغد. قد يجد شيء ما، أو قد أفكر في وسيلة ما، وربما قد يعود إدوارد».

قبل أن تعود إلى النوم تنزهت قليلاً على التراس قرب النهر. كان ساكنو بغداد يعتبرون الطقس الحالي شتاءً قطبياً، ولم يكن أحد يخرج. كان هناك فقط أحد الخدم وقد انحنى على الشرفة يراقب المياه، غير أنه هرول مغادراً على الفور حين ظهرت فيكتوريا.

بالنسبة لفىكتوريا القادمة من انكلترا كانت هذه مجرد ليلة صيف عادية. فتتها منظر دجلة تحت ضوء القمر، وبدت الضفة البعيدة غامضة وشرقية وقد سورها شجر البلح.

تمتعت فيكتوريا لنفسها: «في مطلق الأحوال، لقد وصلت إلى هنا. وسأتدبر أمري بوسيلة ما. لا بد وأن يطرا شيء ما».

رددت هذا وارتدت عائدة الى غرفتها لتنام. وانسل النادل مجدداً
في هدوء الى الخارج الى ضفة النهر.

بعد وقت قليل خرج من وراء الظلال شخص وانضم اليه.
تحدث السيد داكين بصوت خفيض:

- «هل كل شيء على ما يرام؟».

- «أجل سيدي. لا شيء مريباً الى الآن».

حين اطمأن السيد داكين تراجع الى الظلال سار في تمهل عبر
الترأس الى أن وقف بمحاذاة ضفة المياه.

قال كروسبي: «لقد أضحت الأمسيات باردة هذه الأيام». وكان
خرج من وراء حاجز قريب لينضم اليه، «كنت أظن ان هذا لن
يزعجك وقد عدت للتو من طهران».

وقفا هناك دقيقة يدخانان. ما كان في مقدور أحد أن يسمعهما
إن هما لم يرفعا صوتيهما.

قال كروسبي في هدوء:

- «من تكون الفتاة؟».

- «يبدو انها كما يقال قريبة عالم الآثار باونسفوت جونز».

- «هذا جيد، لكن قدومها في الطائرة نفسها مع كرفتون لي...».

قال داكين: «من الأفضل أن لا نطمئن الى أي شيء».

دخنا صامتين لبعض الوقت.

قال كروسبي: «هل تظن حقاً انه من المستحسن نقل الشيء من
السفارة الى هنا؟».

- «أجل. أعتقد هذا».

- «وعلى الرغم من أن كل شيء معد سابقاً ومسجل وبأدق التفاصيل؟».

- «لقد كان معداً ومسجلاً الى اصغر التفاصيل في البصرة. وقد سارت الامور بشكل سييء».

- «آه. أعرف في المناسبة، لقد قتلوا بالسّم صلاح حسن».

- «أجل - هذا بديهي. هل من تحرشات بالقنصلية هناك؟».

- «أظن انه كان هناك شيء من هذا النوع. حدث شجار بسيط. رفع أحدهم مسدساً، توقف ثم أضاف، «لقد أمسك به ريشارد بايكر وانتزع منه المسدس».

قال داكين مفكراً: «ريتشارد بايكر».

- «أنت تعرفه؟ انه...».

- «أجل أعرفه».

قال داكين بعد صمت:

- «الارتجال. هذا ما نعتمد عليه في الدرجة الأولى. لو قمنا كما نقول بتسجيل كل شيء - واكتشفت خططنا. فسيكون من أسهل ما يكون أن يقوم الجانب الآخر بتسجيل تسجيلنا. لا أعتقد البتة أن يستطيع كارمايكل الاقتراب من السفارة - ولو أدرك حتى السفارة...» وهز رأسه بقلق.

- «هنا لا يعرف أحد سوى أنت وأنا وكروفتون لي حقيقة ما يجري».

- «سوف يعرفون من السفارة ان كروفتون لي انتقل الى هنا».

« آه بالطبع. لا يمكن تحاشي هذا. لكن ألا تفهم يا كروسبي، سوف نرتجل مجدداً في مواجهة أي مخطط سيواجهون به ارتجالنا. سوف ينقضون علينا من الخارج. لا مجال لأن يكون المهاجم مقيماً في فندق تيو وفي انتظارنا منذ ستة أشهر. لم تنشأ الأنظار إلى الـ«تيو» إلا مؤخراً. لم يخطر مرة ولم يقم أحد باقتراح فندق تيو كمكان للاجتماع من قبل.

نظر إلى ساعة يده: «سأصعد الآن وأرى كروفتون لي».

لم يضطر داكين إلى قرع باب السير روبرت. لقد انفتح في هدوء أمامه ليدخل.

كان الرخالة قد أشعل فقط مصباح قراءة ضئيل ووضع كرسيه قربه. وهو يجلس من جديد وضع في نعومة على الطاولة مسدساً أوتوماتيكياً صغيراً وإلى مسافة قريبة من يده.

قال: «ماذا تقول يا داكين. هل تعتقد أنه سيأتي؟».

«أظن هذا. نعم يا سير روبرت». ثم أضاف، «أنت لم تلتق به من قبل، أليس كذلك؟».

هز الآخر رأسه موافقاً:

«لا لكنني أتوق في لهفة إلى هذا اللقاء الليلة. لا بد وأن هذا الشاب يا داكين بمنتهى الشجاعة».

«آه، أجل»، قال داكين بصوته العريض، «أنه شجاع وبدأ إلى حد ما متفاجئاً. كان يردد شيئاً يعتبره واقعاً ولا حاجة حتى لقوله».

«لا أقصد فقط الشجاعة»، قال الآخر، «شجاعة رائعة في الحرب - عظيم. أعني...».

- «المخيلة؟» قال داكين مقترحاً.

- «أجل. أن تكون لديه الشجاعة لتصديق شيء ليس محتملاً على الإطلاق. وأن يجازف بحياته ليكتشف إن كانت تلك القصة السخيفة غير سخيفة أو غير خيالية البتة. إن هذا الأمر يحتاج إلى قناعة ليست موجودة عموماً عند شاب معاصر. أتمنى أن يحضر».

قال داكين: «أظن انه سيأتي».

رمقه سير روبرت في حدة.

- «هل قمت بإعداد كل شيء؟».

- «كروسبي موجود على الشرفة. وسأراقب أنا الأدراج. حين يصل اليك كارمايكل أطرق على الحائط وسأدخل في الحال».

هز كروفتون لي رأسه موافقاً.

انسل داكين في نعومة خارج الغرفة. توجه الى اليسار ثم الى الشرفة ومشى في اتجاه الزاوية البعيدة. هناك كان تدلى حبل مرقط من فوق الحافة نزولاً الى الأرض في ظل شجرة أوكايبيتوس ودغل أشجار قرنية.

عاد السيد داكين الى غرفته الملاصقة لغرفة السير روبرت. كان لغرفته باب آخر يوصل الى الممر خلف الغرف. وكان يفتح أيضاً على بعد أمتار قليلة من قمة الأدراج. كان الباب مشقوقاً قليلاً ووقف داكين وراءه مراقباً بكل حواسه.

بعد مضي ما يقارب الأربع ساعات ترقرق قارب بدائي مستسلماً لتيار دجلة ثم رسا الى جانب الضفة الموحلة قرب فندق تيو. وبعد ثوان قليلة تسلقت هيئة نحيلة الحبل وانطلقت الى الداخل.

الفصل الثالث عشر

كانت فيكتوريا قد نوت الاخلاص الى النوم متناسية ومؤجلة كل مشاكلها إلى الصباح الآتي. لكن كونها نامت معظم ما بعد الظهيرة لم يكن بمقدورها اغماض جفن.

في النهاية أشعلت الضوء وأنهت قراءة قصة كانت بدأت قراءتها سابقاً في إحدى المجلات في الطائفة. خلعت جوربيها وجربت ذينك الجديدين اللذين من النايلون. ثم قامت بكتابة إعلانات مختلفة تطلب فيها عملاً ما (في مقدورها أن تسأل في الغد عن المكان المناسب لنشرها). ثم حاولت أكثر من مرة نص رسالة الى السيدة هاميلتون كليب، مبتكرة ظروفاً ومصادفات عجيبة انتهت بها مشردة ومتروكة في هذا البلد الغريب. ثم نصت برقية الى قريب لها، ولم يكن لها غيره في الواقع. كانت تستنجد به علماً انه عجوز جداً وبخيل وبغيفض ولم يساعد أحداً طوال حياته. ثم قامت بتبديل تسريحة شعرها. وحين تتأبعت فجأة رأت انها نعسى جداً وعلى أهبة للنوم والراحة.

في تلك اللحظة بالذات ومن غير إنذار انفتح باب غرفتها بقوة، انسل رجل الى الداخل، أدار المفتاح في القفل خلفه وقال لها في الحاح:

- «بحق الله خبئني في مكان ما - في سرعة...».

لم تكن رداً فعل فيكتوريا أبدأً بطيئة. فقد لاحظت في سرعة رفة جفن تنفسه المتسارع وصوته المقطوع، وأيضاً الطريقة التي كان يتمسك فيها بشال أحمر قديم ومطرز. كان يضغفه فوق صدره بيدين يائستين متشبثتين. وهبت معجلة لتتصرف وتشتري في المغامرة.

لم تكن في الغرفة احتمالات مخابية كثيرة. كان هناك خزانة، طاولة، صندوق بجوارير، وطاولة صغيرة. كان السرير عريضاً في قياس سرير مزدوج تقريباً. عادت الى ذاكرتها على الفور لعبة الغميضة التي كانت تلعبها طفلة وكانت ردة فعلها فورية.

قالت له: «أسرع». انتشلت الوسائد ثم رفعت الشرف والبطانية. تمدد الرجل إزاء قمة السرير وغطته بالشرف والبطانية ثم وضعت الوسائد فوقهما وجلست هي نفسها الى حافة السرير.

في اللحظة عينها تقريباً سمعت طرقة خفيفاً وملحاً على بابها.

هتفت فيكتوريا: «من هناك؟» بصوت ضعيف ومتيقظ.

- «رجاء»، قال صوت رجل من الخارج «افتحي ان سمحت، إنها الشرطة».

تقدمت فيكتوريا نحو الباب وهي تلف حولها الروب دو شامبر. وهي تفعل هذا رأت شال الرجل الأحمر مرمياً على الأرض تناولته ودسسته في أحد الجوارير. أدارت المفتاح وفتحت الباب قليلاً وحدقت كأنها مبعوثة.

وقف في الخارج شاب أسود الشعر في زي بنفسي مقلّم وخلفه رجل من الشرطة في زي ضابط.

- «ما المسألة؟» سألت فيكتوريا بصوت مدعور.

ابتسم الشاب ابتسامة عريضة وتكلم بإنكليزية جيدة.

- «أنا أسف أيتها الأنسة لازعاجك في هذه الساعة، لكننا نبحث عن مجرم فار. لقد دخل الى هذا الفندق ويجب أن نفتش كل الغرف. انه رجل خطير جداً».

تراجعت فيكتوريا مشرعة الباب وصرخت: «رباه!»، أدخلنا أرجوكما وفتشا. كم هذا مخيف. فتشا في الحمام رجاء. آه. وفي الخزانة. أيضاً تحت السرير إن سمحت. بعقل انه كان يختبئ هنا طوال ما بعد الظهر».

كان التفتيش سريعاً جداً.

- «لا، انه ليس هنا».

- «هل أنت متأكد أنه ليس تحت السرير؟ بالطبع لا. أه كم أنا حمقاء. ليس معقولاً أن يكون هنا أبداً. لقد أقفلت الغرفة حين نمت».

- «شكراً أنستي. وعمت مساء».

إنحنى الرجل الشاب شاكراً وانسحب مع مساعده الشرطي.

تبعتهما فيكتوريا الى الباب وقالت: «من الافضل أن أقفل الباب مجدداً أليس كذلك؟ هكذا أكون آمنة».

- «أجل، هذا هو المفضل بالتأكيد. شكراً».

أقفلت فيكتوريا الباب مجدداً ووقفت قربه بضع دقائق. سمعت الشرطيين يقرعان بالطريقة نفسها الباب المواجه في الممر، وسمعت الباب ينفتح. سمعتهما يتبادلان الحديث مع السيدة كاردوتراش بصوتها الأجش، ثم أقفل الباب، سمعته يفتح بعد دقائق وابتعدت خطواتهما في الممر. ثم قرعا من جديد على باب في نهاية الممر.

استدارت فيكتوريا واجتازت الغرفة نحو السرير. خطر لها انها ربما تصرفت بشكل أحق. انها استسلمت لخيالها الرومنسي، ولصوت من لغتها وساعدت من هو محتمل أن يكون مجرمًا خطيراً للغاية. اختيار مناصرة المطارد ومعاودة المطارد لا يكون دائماً سليم العواقب. حسناً، فكرت فيكتوريا لقد تورطت في الأمر على أية حال!

وقفت قرب السرير وقالت باقتضاب:

- «انهض».

لم يتحرك. فقالت فيكتوريا في حدة لكن من غير أن ترفع صوتها:

- «لقد غادرا. يمكنك النهوض الآن».

وأيضاً لم تكن أدنى حركة تحت كومة الوسائد. فاقدة الصبر انتزعت فيكتوريا كل الأغطية.

كان الشاب ممدداً كما تركته بالضبط. لكن لون وجهه كان الآن قاتماً وعيناه مغلقتين.

مسترجعة أنفاسها لاحظت فيكتوريا شيئاً آخر. كانت هناك بقعة دم قانية تنزّ من الشرشف.

قالت فيكتوريا وكأنما تناشد أحدهم: «آه. لا. آه. لا. لا. لا».

فتح الشاب الجروح عينيه وكأنما رداً على التماسها، حدّق فيها وكأنه ينظر من مكان بعيد جداً الى شيء لم يكن متأكداً من رؤيته .

انفصلت شفتاه - وكان الصوت ضعيفاً وبالكاد سمعته فيكتوريا .

انحنّت .

- «ماذا؟» .

سمعت هذه المرة . في صعوبة ، في صعوبة شديدة سمعت الشاب يتلفظ كلمتين . لم تعرف فيكتوريا ما إن كانت سمعتهما بشكل صحيح . بدت لهما سخيفتين ومن دون معنى . ما قاله كان : «لو سيفر - بصرة...» .

ثم هبط جفناه ورفاً فوق عينيه القلقتين الواسعتين . لفظ كلمة واحدة أخرى - إسماً . ثم انتفض رأسه الى الوراء قليلاً وفقد الحراك .

وقفت فيكتوريا صامتة من دون حراك . كان قلبها يخفق في شدة وملء مهجتها أحاسيس الشفقة والغضب . لم تكن تعرف الآن كيف ستتصرف . ينبغي أن تنادي احدهم . أن تحضر أحداً ما . ها هي وحيدة مع رجل ميت . عاجلاً أم آجلاً سوف تطلب إليها الشرطة تفسيراً ما .

بينما كان عقلها يفكر في سرعة محلاً الوضع جعلها صوت ضعيف تدبر رأسها . كان سقط مفتاح باب غرفتها ، وبينما نظرت اليه سمعت صوت انفتاح قفل الباب . فُتِحَ الباب ودخل السيد داكين مقللاً في عناية الباب وراءه .

تقدم اليها وهو يقول في هدوء:

- «انجاز رائع يا عزيزتي. انك تفكرين في سرعة، كيف حاله؟».

قالت فيكتوريا بصوت منقبض:

- «أظن أنه... أنه مات».

رات وجه الآخر يتبدل، ارتدى لحظة انفعال غضباً شديداً. ثم استعاد سريعاً الهيئة التي كانت رآته فيها اليوم السابق، سوى انها لاحظت انه ليس الرجل المترهل والمرتبك الذي عرفته. كان رجلاً آخر تماماً.

انحنى، وفك في نعومة السترة الرثة.

قال داكين وقد وقف: «لقد طعنوه في دقة في القلب. كان شاباً شجاعاً وذكياً ايضاً».

استعادت فيكتوريا صوتها: «لقد حضرت الشرطة، قالوا انه مجرم. هل كان مجرمًا؟».

- «لا، لم يكن مجرمًا».

- «هل كانا، هل كانا من الشرطة؟».

قال داكين: «لا أعرف. قد يكونان. لا فرق على أية حال».

ثم سألها: «هل قال شيئاً - قبل أن يموت؟».

- «أجل».

- «ماذا قال؟».

- «قال لو سيفر - ثم بعدها البصرة. ثم بعد توقف تفوّه باسم. بدا وكأنه اسم فرنسي - لكنني أعتقد أنني لم أسمعه جيداً».

- «كيف بدا لك الاسم؟».

- «أظن انه كان لو فارج».

- «لو فارج»، رد داكين مفكراً.

قالت فيكتوريا: «ماذا يعني كل هذا»، وأضافت فزعة، «وكيف سأصرف؟».

أجابها داكين: «يجب أن نخرجك من هذه الورطة في أسرع وقت ممكن. أما الذي يحدث فسأشرحه لك في وقت لاحق. يجب أن نعثر أولاً على ماركوس. فهذا الفندق هو فندقه وهو صائب الرأي، على الرغم من أنه لا يوجي بذلك. سوف أعثر عليه. لا أظن انه نام. انها فقط الواحدة والنصف. نادراً ما ينام قبل الساعة الثانية. قومي فقط بترتيب مظهرك قبل أن أحضره. ان ماركوس شديد التأثير عند رؤية امرأة جميلة في محنة».

غادر الغرفة. مشيت في اتجاه المرأة كما لو أنها في حلم، مشطت شعرها الى الخلف، جمّلت وجهها بمسحوق بل في الواقع فعلت ما كان يشبه العكس إذ جعلته شاحباً إنما بواسطة المسحوق. ثم ارتمت منهكة على الكنبه وهي تسمع اقتراب وقع خطوات. دخل داكين من غير أن يقرع ويدخل وراءه جسم ماركوس تيو الضخم. هذه المرة تصرف ماركوس بجديّة. لم تكن أي ابتسامة على وجهه.

انبرى داكين قائلاً: «والآن يا ماركوس ينبغي أن تفعل ما في وسعك حيال هذا. لقد كان ما جرى صدمة كبيرة لهذه الفتاة المسكينة. لقد اقتحم هذا الشاب الغرفة متهازاً. إن قلبها طيب جداً، لقد خباته عن عيون الشرطة. والآن انه ميت. لم يكن يجدر

بها ربما أن تفعل هذا. لكن قلوب الفتيات رقيقة للغاية».

انبرى ماركوس مجيباً: «طبعاً هي لا تحب الشرطة. لا أحد يحب الشرطة. أنا لا أحب الشرطة. لكن يتوجب علي أن أكون طيباً معهم من أجل فندققي. هل تريدني أن أرشيهم بالمال؟».

- «نريد فقط أن نبعد الجثة من هنا وفي هدوء».

- «هذا جيد جداً يا عزيزي. وأنا أيضاً لا أريد جثة في فندققي».

لكن الأمر في الحقيقة ليس في هذه السهولة؟».

قال داكين: «أعتقد أنه يمكن القيام بذلك. لديك طبيب في عائلتك، اليس كذلك؟».

- «أجل. بول زوج أختي. انه طبيب. انه شاب لطيف جداً. لكن لا أريد توريطه في مشاكل».

قال داكين في سرعة: «لن يتورط بأي شيء. اسمع يا ماركوس. أولاً ننقل الجثة من غرفة الأنسة جونز الى غرفتي. وهكذا نكون أنقذناها من الورطة. ثم استخدم هاتفك. بعد عشر دقائق يندفع شاب مترنح من الشارع ويدخل فندقك. يكون سكران غير قادر على الوقوف. ثم يسأل عني بصوت مرتفع. يجتاح بعدها غرفتي وينهار واقعاً على الأرض. أخرج أنا بعدها وأطلب طبيباً. عندها تأتي بصهرك. وهذا يبعث في طلب سيارة اسعاف ويذهب برفقة الذي من المفترض أن يكون صديقي السكران. قبل أن يصل الى المستشفى يموت صديقي. لقد كان طعن بخنجر. وهكذا تكون أنت خارج المسألة كلياً. لقد طعن على الطريق قبل دخوله الفندق».

وهكذا يبعد صهرك الجثة، ويغادر الشاب الذي مثل دور السكران الفندق في هدوء في الصباح.

- «هذا هو المقصود».

- «ولا أحد يعثر على جثة في فندقى؟ ولا تقلق الآنسة جونز ولا يزعجها أحد؟ أعتقد يا عزيزى ان هذه فكرة خارقة».

- «جيد. أريدك أن تعمل على أن لا يكون هناك أحد في الجوار. سوف أقوم بنقل الجثة الى غرفتي. خدمك يجولون بين الغرف طوال نصف الليل تقريباً، عد الى غرفتك وافعل شجاراً. اجعلهم يفتشون لك عن أي شيء».

هز ماركوس رأسه موافقاً وغادر الغرفة.

قال داكين ليفيكتوريا: «أنت فتاة قوية. هل تستطيعين مساعدتي في حمله عبر الرواق الى غرفتي».

وافقت فيكتوريا بانحناءة من رأسها. وحملا الجثة وعبرا بها الرواق المظلم (كان يمكن سماع صوت ماركوس في البعيد غاضباً ومزجراً)، ثم مدداها على سرير داكين.

قال داكين: «هل لديك مقص؟ قصي الجزء المبقع بالدم على شريشك. لا أظن أن الدم وصل الى الفراش. لقد امتصت سترته معظمه. سوف أزورك بعد ساعة تقريباً. لحظة انتظري. اشربي قليلاً من قارورة المياه هذه».

أطاعته فيكتوريا وشربت.

قال داكين: «انك فتاة عاقلة. والآن عودي الى غرفتك. أطفئي النور. وكما قلت لك سأعود اليك بعد ساعة تقريباً».

- «وستخبرني ماذا يعني كل هذا؟».

حدق فيها طويلاً بشكل غريب لكنه لم يجبها على سؤالها.

الفصل الرابع عشر

تمددت فيكتوريا على الفراش في العتمة متنصتة. سمعت لغطاً صاخباً لرجل سكران.. ثم سمعته يقول: «خطر لي أن أزورك أنا العجوز».

كان شجاراً مع شخص ما في الخارج، ثم سمعت رنين أجراس. وبعد فترة فوضى عارمة حلت فترة سكون موازية، ما عدا صوت موسيقى عربية تنهى إليها من آلة أسطوانات في غرفة أحد ما. بعد مضي وقت أحسته ساعات طويلة سمعت انفتاح باب غرفتها. قعدت على فراشها وأضاءت مصباح السرير الصغير.

قال داكين: «لقد تمت الأمور على ما يرام».

أحضر كرسيّاً إلى جانب السرير وجلس. قعد محدقاً فيها بطريقة تشبه تلك التي يستخدمها الطبيب إبان تشخيصه حالة مريضه. قالت فيكتوريا: «أخبرني ما كل هذا الذي يجري؟».

اجاب داكين: «أفضّل لو تخبريني أنت أولاً ماذا تفعلين هنا؟ ولماذا جئت إلى بغداد؟».

لم تعرف فيكتوريا إن كان ما أثر فيها هو أحداث تلك الليلة أم

شخصية داكين بالذات (وتأكدت لاحقاً انها شخصيته) وجعلها تعرض عن تلفيق سلسلة من الأكاذيب المبتكرة مبررة وجودها في بغداد. أخبرته في كل صراحة وفي بساطة كل شيء. لقاؤها مع إدوارد، وتصميمها على القدوم الى بغداد، ثم ضربة الحظ الخارقة التي جمعتها بالسيدة كليب وفي النهاية وضعها المالي المعدم.

قال داكين حين انتهت: «فهمت».

حلّ صمت لأكثر من دقيقة قبل أن يتكلم مجدداً.

- «ربما أود أن أبقيك خارج كل هذه المسألة، لست متأكد. لكن المشكلة انه لم يعد في الامكان أن تبقي على الحياد! لقد تورطت إن قبلت أنا أو لا. وبما أنك تورطت يمكنك أن تعملي معي».

أصلحت فيكتوريا قعدتها على الفراش وتورد خذاها حماساً، «هل لديك وظيفة لي؟».

- «ربما، ولكن ليست كالوظائف التي تفكرين فيها. هذه وظيفة مهمة وجديّة يا فيكتوريا. انها وظيفة خطيرة».

قالت فيكتوريا مسرورة: «آه، لا مشكلة لدي». وأضافت في قلق، «لست مخادعة، اليس كذلك؟ على الرغم من أنني اعترف اني الفَق الكثير من الأكاذيب. لكنني في الواقع لا أحب أن أقوم بأي شيء مخادع».

ابتسم داكين قليلاً.

- «قد يبدو الأمر شاذاً، لكن قدرتك على ابتكار كذبة سريعة ومقنعة هي إحدى مواصفات هذه الوظيفة. ولا أقول ان هذا غير

شريف. بل بالعكس. انك منخرطة في قضية حقّة وصحيحة. سوف أضحك في الأجواء - فقط في صورة عامة، لتعرفي على الأقل وتفهمي ماذا تفعلين وما هي بالتخديد المخاطر التي أنت فيها. أظن انك فتاة حساسة ولم تفكري كثيراً في شأن السياسة العالمية. على أية حال فالمسألة هي كما لاحظ هاملت بذكاء كبير، «لا وجود لما هو خير أو شر، غير أن التفكير يجعلهما كذلك».

قالت فيكتوريا: «أعرف أن الجميع يقول انه ستقوم حرب جديدة عاجلاً أم آجلاً».

- «بالضبط»، انبرى داكين قائلاً، «لماذا يردد الجميع هذا يا فيكتوريا؟».

قالت فيكتوريا مرتبكة: «لماذا. لأن روسيا - الشيوعيون - أميركا - وتوقفت».

- «أترين»، قال داكين، «هذه ليست وجهات نظرنا فقط أو مجرد كلمات. لقد التقطها الناس من الصحف من الكلام اليومي وغيره. هناك وجهتا نظر مختلفتان مسيطرتان في أنحاء مختلفة من العالم. هذا هو الواقع. والوجهتان هاتان ممثلتان بشكل عشوائي في ضمائر الناس. «روسيا الشيوعية» و«أميركا». مقصودنا الأساسي هو احلال السلام، هذا هو أمل المستقبل الوحيد. لكن كل مرة تحين فرصة للوصول الى اتفاق ما بين هاتين الوجهتين، يحصل فجأة حادث ويسبب مجدداً فقدان الثقة لدى احدي القوتين أو تقع في خوف هستيري. وهذه الحوادث ليست البتة مجرد حوادث يا فيكتوريا، إنها مؤامرات تحاك بمكر شديد كي تسبب بالتنام هذا التأثير أوردة الفعل».

«لكن لماذا تظن أن هذا يحصل ومن يقوم بذلك؟».

«أظن أن السبب الرئيسي وراء ذلك هو المال. المال المدفوع من مصادر شريرة. المال يا فيكتوريا هو مفتاح كل ما يحدث في العالم. المال هو الدم الذي يغذي أية حركة أو قضية عظيمة. من دونه لا يستطيع أحد الحراك. لقد دفعت مبالغ ضخمة جداً من المال. ومع أنه تمّ تمويله مصدر المال ووجهته بمنتهى المهارة والذكاء، إلا أن هناك بالتأكيد شيئاً مريباً في الأمر. ينظم الشيوعيون اضطرابات كثيرة غير شرعية، ويشكلون تهديدات مختلفة لحكومات أوروبية تحاول الوقوف على أقدامها. إلا أن الأموال اللازمة لهذه التدابير لا تأتي من مصادر شيوعية. وإن تتبعنا أثرها وجدنا أنها تأتي من جهات غريبة جداً ومن مصادر لا يشتبه فيها على الإطلاق. وفي موازاة ذلك تجتاح أميركا وبلدان أخرى موجة متصاعدة من الخوف من الشيوعية، تكاد تصل إلى درجة الهلع الهستيرى. وهنا أيضاً نجد أن الأموال لا تأتي من الجهات المناسبة. ليس المال مائلاً رأسمالياً على الرغم من أنه يمر طبعاً عبر جهات رأسمالية.

من جهة ثالثة يبدو كأن مبالغ كبيرة من المال تتوارى كلياً. ارتفع في أرجاء العالم الطلب على الماس والأحجار الكريمة الأخرى. وهذه المجوهرات تختفي فجأة بعد أن يكون تناقلها أكثر من عشرة أطراف.

ما فسّرته ليس بالتأكيد سوى صورة بدائية للوضع. ذروة القول هو أن طرفاً ثالثاً ما زال هدفه غير واضح، يعمل على إثارة الخلافات وهو متورط في هكذا عمليات تمويل وانتقال المجوهرات لمصلحته الخاصة. لدينا دلائل تشير إلى أن هذه المجموعة لها عملاء في جميع

البلدان. بعضهم مقيم فيها منذ سنوات عدة. بعض هؤلاء العملاء يحتل مناصب رفيعة ومحترمة جداً. في حين أن البعض الآخر يلعب أدواراً متواضعة. لكنهم جميعاً يعملون من أجل هدف واحد مجهول. في الجوهر. أن الأمر يشبه نشاطات الطابور الخامس في بداية الحرب العالمية الثانية. إنما هذه المرة على صعيد عالمي».

سألت فيكتوريا: «لكن من هم هؤلاء الأشخاص؟».

- «نعتقد انهم ليسوا من جنسية معينة. وأخشى أن يكون ما يسعون اليه هو تحسين العالم. يتوهمون انه يمكن بالقوة فرض العدالة المطلقة على البشر. وهذا أحد أخطر الأوهام. إن الذين لا يبتغون سوى المال لا يسببون عادة ضرراً كبيراً. إذ أن الجشع يهزم نفسه في النهاية. لكن الايمان بوجود طبقة متفوقة من البشر، بوجود رجال خارقين يحكمون بقية العالم المنحط. هذا يا فيكتوريا هو أسوأ المعتقدات. عندما يقول المرء انه ليس كباقي الناس يكون قد فقد اثنتين من أنبل الميزات التي نحاول التمتع بها، وهما: التواضع والأخوة».

تحنح ثم تابع: «حسناً لنترك المواعظ. دعيني أشرح لك ماذا نعرف بالتحديد. لديهم مراكز عدة للعمليات. هناك واحد في الأرجنتين. واحد في كندا. وهناك مركز من دون أدنى شك في أميركا وربما أكثر من مركز. وأعتقد انه لا بد وأن يكون هناك واحد في الاتحاد السوفياتي. لكن هذا غير مؤكد. والآن نصل الى الظاهرة المهمة جداً.

اختفى على مدى السنتين الماضيتين ثمانية وعشرون عالماً شاباً من مختلف الجنسيات. ولقد حدث الشيء نفسه لمجموعة من

المهندسين والطيارين وخبراء الكهرباء، ولعدد كبير من أصحاب الطاقات الأخرى. هناك صفات مشتركة بين كل هؤلاء المتواريين: انهم جميعهم من الشبان الطموحين والذين ليست بينهم صلات قريى. الى جانب الذين نعرفهم لا بد وأن هناك آخرين كثيرين. ولقد بدانا نخمن ما هم بصدد انجازه».

استمعت فيكتوريا وقد رفعت حاجبها.

- «قد تقولين انه من غير المعقول في هذه الايام أن يجري أي شيء في بلد ما ولا يكون معروفاً في بقية العالم. أنا لا اعني بالطبع اكتشاف النشاطات الداخلية الصغيرة. ما أقصد هو قيام مشروع أو انجاز من النوع الضخم لشيء لم يصنع من قبل. ولكن على الرغم من ذلك هناك أماكن نائية جداً في العالم، بعيدة عن الطرقات التجارية، مقطوعة خلف الجبال والصحاري، وسط اناس يتجنبون الاغراب، ولا يزورهم إلا نادراً أحد الرخالة المحترفين. يمكن أن تجري أمور كثيرة هناك من غير أن يعلم بها العالم الخارجي، وربما فقط عبر إشاعة هزيلة أو مضحكة.

لا أستطيع أن أحدد البقعة بالتحديد. يمكن الوصول الى المكان عبر الصين ولا أحد يعلم ماذا يجري داخل الصين. يمكن إدراكه أيضاً بعبور جبال الهملايا لكن العبور من هناك شاق وطويل جداً وأيضاً أكثر أماناً.

لقد وصلت الى هناك معدات وآليات وايضاً عمال من كل انحاء الكرة الارضية بعدما تحوّل كل هذا في مرحلة ما عن الامكنة الاساسية التي كان أرسل اليه تمويلها.

لكن رجلاً واحداً قرر أن ينطلق ملاحقاً أثراً ما وجده. كان رجلاً

غير عادي. رجل لديه أصدقاء ومصادر معلومات في الشرق برمته. كان وُلد في كشغر وهو يتقن مجموعة كبيرة من اللغات واللهجات المحلية. لقد شك في أمر وانطلق في أثره. ما سمعه كان غير قابل للتصديق الى درجة انه حين عاد الى العالم المتحضر من جديد وقدم تقريراً عن الامر لم يصدقه أحد. اعترف انه أصيب بالحمى وانه عولج كرجل مصاب بالبطاح.

رجلان فقط صدقا روايته. كان أحدهما أنا. أنا لا اتردد أبداً في تصديق الأشياء المستحيلة - فهي غالباً ما تكون صحيحة. والرجل الآخر....»

ثم تردد.

قالت فيكتوريا: «أجل».

- «الرجل الآخر كان السير روبرت كروفتون لي. انه رَحالة عظيم. ورجل سافر هو نفسه الى تلك المناطق النائية وكان يعرف بعض الأشياء عن احتمالاتها.

ذروة ما حدث كان ان كارمايكل، وهو رجل المخابرات الخاص بي، قرر التوجه الى هناك والتحقق بنفسه. كانت رحلة يائسة ومليئة بالمخاطر، لكنه امتك قدرات لم تكن لمطلق رجل آخر. كان هذا منذ تسعة اشهر. لم نسمع شيئاً عن اخباره إلا قبل بضعة أسابيع. وصلتنا الاخبار. كان لا يزال حياً ولقد حصل على المعلومات التي انطلق في أثرها. لقد حصل على الاثبات المبرم.

لكن الجانب الآخر كان يطارده للقضاء عليه. كان منعه من العودة، مع وثائقه أمراً في غاية الاهمية بالنسبة اليهم. ولدينا

بـراهمين ناجعة عن آلية انتشار وتسرب الأوامر والمعلومات الى عملائهم هناك. حتى تسربت معلومات من قسمي أنا بالذات. وبعض هذه التسربات، مصدرها اشخاص في أعلى مستويات المسؤولية.

لقد راقبوا في مطاردته كل منافذ الحدود. وسقط العديد من الضحايا البريئة خطأ على اعتبار انه هو - الأرواح البشرية هي آخر همّ في بالهم. لكنه استطاع بطريقة أو بأخرى الافلات والنجاة - ما عدا هذه الليلة».

- «إذاً كان ذاك الذي - كان هو؟».

- «أجل يا عزيزتي. شاب شجاع لا يقهر».

- «ماذا عن الدلائل؟ هل حصلوا على الاثبات؟».

ارتسمت ابتسامة بطيئة على وجه داكين المتعب.

- «لا أعتقد انهم استطاعوا ذلك. حسب معرفتي بكارمايكل انا متأكد انهم فشلوا بذلك. لكنه مات من غير أن يستطيع أن يخبرنا أين هي هذه الاثباتات وكيف سنتمكن من الحصول عليها. أظن انه حاول أن يعطينا مفتاحاً للغز عندما كان على وشك أن يموت. وردد ببطء: «لوسيفر - بصرة - لوفارج». لقد كان في البصرة. حاول أن يتصل بالقنصلية ولكنه نجا بواسطة الحظ من محاولة لقتله. يحتمل انه ترك الاثباتات في مكان ما في البصرة. ما أريد أن تفعله هو الذهاب الى هناك ومحاولة تقصي الأمر».

- «أنا؟».

- «أجل. أنت ليست لديك خبرة. لا تعرفين عمّا تبحثين. لكنك

سمعت كلمات كارمايكل الأخيرة وقد توجي اليك بشيء ما حين
تصلين الى هناك. من يدري - قد يحالفك حظ المبتدئ؟».

- «أود من كل قلبي الذهاب الى البصرة»، قالت فيكتوريا في توق.

ابتسم داكين.

- «هذا يناسبك لأن رجلك هناك. اليس كذلك؟ هذا جيد. انه
تمويه ممتاز أيضاً. لا شيء أفضل من قصة غرام حقيقية للتمويه.
اذهبي الى البصرة وافتحي عينيك وأذنك جيداً وانتبهي لكل شيء
حولك. لا أستطيع أن أعطيك أية تعليمات أو أن ألقنك الطريقة التي
ستستخدمينها في مسعاك. من الأفضل أن لا أفعل. تبدين شابة
ذكية ويمكنك الاعتماد على طاقتك. ماذا تعني كلمتا لو سيفر
ولوفارج، لست أعرف. ان سلّمنا انك سمعت جيداً. قد أوافقك في
تخمينك أن لوفارج هو اسم. ابحثي عن هذا الاسم».

قالت فيكتوريا بنبرة عملية: «كيف سأذهب الى البصرة؟ ومن أين
أحصل على المال؟».

انتشل داكين محفظته وناولها رزمة من الأوراق النقدية.

- «هذا هو المال الذي تحتاجينه. أما عن طريقة الوصول الى
البصرة فستعرفينها إن أنت افتعلت حواراً غداً صباحاً مع السيدة
كاردو ترانش العجوز. قولي لها انك متشوقة لزيارة الى البصرة قبل
شروعك في العمل الذي كنت ادعيت القدوم الى هنا من أجله.
اسألها عن عنوان فندق ما. ستقول لك على الفور أن تقيمي أولاً
في القنصلية وستبعث هي برقية الى السيدة كلايتون. قد تلتقين
إدوارد هناك. إن عائلة كلايتون يستقبلون عادة معظم العابرين في
البصرة. لا أستطيع أن أعطيك معلومات أكثر، ما عدا واحدة. إن..

آه.. إن تعرضت لأي حادث. إن استجوبوك وسألك عما تعرفين ومن كان وراء الذي تقومين به، لا تحاولي أن تكوني بطلاً. اعترفي على الفور».

قالت فيكتوريا ممتنة: «أشكرك، أنا جبانة جداً أمام الألم، إن أراد أحدهم تعذيبني سأخاف وسأنهار سريعاً».

قال داكين: «لن يزعجوا أنفسهم بتعذيبك. التعذيب أصبح أسلوباً بالياً. حقنة صغيرة وستجيبين على كل الأسئلة بردود صحيحة من غير أن تدركي ذلك. هذا هو عصر العلم. لهذا لا أريدك أن تتوهمي وتدفعي غالباً ثمن سرية غير موجودة. لن تخبرهم على أية حال أشياء لم يعرفوها من قبل. سوف يراقبونني جيداً بعد هذه الليلة - سوف يحيطون بي، وبالسير روبرت كروفتون لي».

- «ماذا عن إدوارد؟ هل أخبره؟».

- «هذا أتركه لك. عموماً ينبغي أن تتكلمي على كل ما ستفعلين أمام أي كان هذا من الناحية العملية!». ارتفع حاجباه كقنطرتين، «سوف تقحمينه في الخطر أيضاً! هذا أحد وجوه المسألة. إلا أنه كما علمت يمتلك سجلاً مشرقاً في سلاح الطيران. لا أظن أنه سيخاف من المخاطر. رأسان يكونان غالباً أفضل من رأس واحد. إذا هو يظن أن هناك شيئاً مربياً في شأن مركز «غصن الزيتون» حيث يعمل؟ هذا أمر مثير للاهتمام. مهم جداً».

- «لماذا؟».

- «لأننا نعتقد نحن ذلك أيضاً»، أجاب داكين.

ثم أضاف: «سأعطيك نصيحتين أخيرتين. أولاً وسامحيني لقولي، لا تكثري من الأكاذيب. قد يصعب عليك تذكرها كلها

والاستعانة بها. اعرف أنك مجلّية في هذا المجال، لكن حاولي أن تبقيها بسيطة، هذه نصيحتي لك».

قالت فيكتوريا مهانة بعض الشيء: «سأتذكر هذا. وما هي النصيحة الأخرى؟».

- «أبقي أذنك منصتتين جيداً لأدنى ذكر لامرأة تدعى أنا شيل».

- «من تكون؟».

- «لا نعرف الكثير عنها. يهَمُّنا أن نعرف المزيد».

الفصل الخامس عشر

بادرت السيدة كارديو ترانش تقول ليفيكتوريا: «بالطبع ينبغي أن تقيمي في القنصلية. هراء. لا يمكنك الإقامة في فندق المطار. سوف يسعد هذا عائلة كلايتون جداً. أعرفهم منذ سنوات طويلة. سوف أبعث اليهم ببرقية وتستطيعين الانطلاق في قطار هذا المساء. انهم يعرفون الدكتور باونسفوت جونز معرفة جيدة».

تورد خدا فيكتوريا وقد شعرت بالإحراج. شخصية أسقف لانغو أو أسقف لانغووا المبتكرة شيء، وشخصية الدكتور باونسفوت جونز الحقيقية والحية شيء آخر.

فكرت فيكتوريا شاعرة بالذنب: «أعتقد. انه يمكن أن ادخل السجن بسبب هذا. ادعاءات كاذبة أو شيء من هذا القبيل». لكنها استعادت معنوياتها إذ تذكرت ان هذا يحصل فقط إن حاول المرء استخدام ذلك للاحتيال وكسب المال. لم تكن متأكدة أيضاً فقد كانت تجهل القوانين كلياً. لكن هذا المنطق بدا لها مقنعاً.

كان السفر في القطار بمثابة تجربة جديدة لها. لكنه حسب ما

فهمت قطار بطيء. وكان لا بد أن تقاوم عاداتها الغربية المريحة. كان في انتظارها سيارة من القنصلية، نقلتها اليها. تقدمت السيارة عبر أبواب ضخمة وحديقة بديعة، وتوقفت أمام درجات توصل الى الشرفة المحيطة بمنزل عائلة كلايتون. اطلت السيدة كلايتون، الحيوية، الدائمة الابتسامة من باب متأرجح وتقدمت لاستقبالها.

قالت: «نحن سعداء جداً لرؤيتك. ان البصرة جميلة جداً في هذا الوقت من السنة ولا يمكن أن تغادري العراق من غير أن تشاهديها. لحسن الحظ ليس لدينا الكثير من الضيوف حالياً. أحياناً لا يعود في وسعنا التحرك هنا لكثرة الضيوف. ينزل عندنا الآن فقط سكرتير الدكتور راسبون وهو شاب فاتن. لقد فاتك التعرف الى السيد ريتشارد بايكر. لقد غادر قبل أن تصل برقية السيدة كارديو ترانش».

لم تكن لدى فيكتوريا أي فكرة عن ريتشارد بايكر. لكنها اعتبرت أن مغادرته قبل حضورها هو من حسن حظها.

- «لقد غادر الى الكويت منذ يومين. هذا مكان ينبغي أن تريه قبل أن يتشوه. اظن ان هذا سيحصل عاجلاً أو آجلاً. كل الامكنة تتشوه. ماذا تفضلين أولاً، حماماً أم بعض القهوة؟».

أجابت فيكتوريا بامتنان: «أفضل أن آخذ حماماً، أرجوك».

- «كيف حال السيدة كارديو ترانش، هذه هي غرفتك والحمام هنا الى هذه الجهة. هل هي صديقة قديمة لك؟».

- «آه. لا»، قالت فيكتوريا في صدق، «لقد التقيتها مؤخراً».

- «وأظن انها اكتشفت كل شيء عن حياتك في ربع الساعة الأولى من لقائكما. انها ثرثرة من الطراز الفاخر، وأظن انك لاحظت هذا. انها مهووسة بمعرفة كل شيء عن أي كان. لكن رفقتها ممتعة، وهي لاعبة بريدج ممتازة. هل أنت متأكدة انك لا ترغبين ببعض القهوة أو أي شيء غيرها؟».

- «حقيقة، لا».

- «حسنأً. سأراك لاحقاً. هل لديك كل ما تحتاجين اليه؟».

انسلت السيدة كلايتون مغادرة في سرعة كمنحلة فرحة. استحمت فيكتوريا ورتبت شعرها وتبرجت في عناية فائقة شأنها شأن أية فتاة ستجتمع بعد قليل مع شباب تحبه.

أملت فيكتوريا أن يلتقيا لوحدهما لو تيسر ذلك. لم يخطر لها أبداً انه قد يتفوه بملاحظة ما محرجة - لحسن الحظ لم يكن يعرف سوى اسمها الثاني جونز وان يكتشف أن لها اسماً إضافياً هو باونسفوت أمر قد لا يسبب له أي مفاجأة. المفاجأة ستكون في كونها موجودة في العراق. ولتفسير ذلك أملت فيكتوريا في أن تتمكن من الانفراد به ولو لثانية أو اثنتين.

بعدما انتهت من تخيل ما سيحدث، ارتدت فستانها الصيفي (إذ أن المناخ في البصرة كان يشبه مناخ لندن في شهر حزيران). خرجت بسرعة من الباب الخارجي الواقعي واتخذت لها موضعاً على الشرفة حيث كان في وسعها اعتراض سبيل إدوارد وهو عائد من مشاغله. وقدرت انه كان يتصارع مع موظفي الجمارك ساعياً الى تخليص البضاعة.

كان أول من وصل رجل نحيل ذو وجه قلق، بدأ يتسلق الدرجات، فابتعدت فيكتوريا الى زاوية الشرفة. وما إن فعلت هذا حتى رأت فعلاً إدوارد يدخل من أحد أبواب الحديقة المطل على ضفة النهر. أمينة لعرف «جولييت» اتكأت فيكتوريا على متكأ الشرفة وأطلقت هسيساً طويلاً.

- «إدوارد» (الذي كان يبدو، كما وجدت فيكتوريا، أجمل من أي وقت آخر)، ادار وجهه في حدة متطلعاً حوله.

هتفت فيكتوريا بصوت خفيض: «هست! هنا فوق».

رفع إدوارد رأسه وارتسمت على وجهه تعابير المفاجأة فصرخ في قوة: «رياه، هذه أعجوبة!».

- «هس. لا ترفع صوتك. انتظرني، أنا نازلة».

قطعت فيكتوريا الشرفة ونزلت الدرجات وتوجهت نحو زاوية المنزل حيث بقي إدوارد منتظراً في طواعة ولم تغب عن وجهه علامات الدهشة.

انبرى إدوارد قائلاً: «غير معقول أن أكون سكران في وقت مبكر من النهار. هل هذا أنت؟».

ردت فيكتوريا فرحة وفي حماسة: «أجل، هذا أنا».

- «لكن ماذا تفعلين هنا؟ كيف وصلت الى هنا؟ ظننت اني لن اراك أبداً من جديد».

- «هذا ما اعتقدته أنا أيضاً».

- «هذا أشبه بالاعجوبة. كيف وصلت الى هنا؟».

- «لقد طرت».

- «بالتأكيد طرت. لا يعقل أن تكوني وصلت في هذه السرعة في أية وسيلة أخرى. لكن، أقصد أي ضربة حظ رائعة أوصلتك الى البصرة؟».

قالت فيكتوريا: «القطار».

- «أنت تقصدين هذا أيتها الشيطانة الصغيرة. يا الهي. أنا سعيد جداً برؤيتك. لكن كيف أتيت الى هنا؟ قولي الحقيقة».

- «لقد رافقت امرأة مكسورة الذراع. انها السيدة كليب وهي أمريكية. لقد عرضوا عليّ هذا العمل بعدما التقيتك بيوم واحد. كنت تحدثت عن بغداد وكنت أنا ضقت ذرعاً بلندن، وهكذا فكرت، حسناً لم لا أخرج وأرى العالم؟».

- «أنت حقيقةً مؤنسة يا فيكتوريا، أين هي السيدة كليب تلك الآن؟ هل هي هنا؟».

- «لا. لقد غادرت الى عند ابنة لها قرب كركوك. كان عملي يقتصر على مرافقتها خلال الرحلة».

- «إذاً ماذا تفعلين الآن؟».

- «إنني أتابع التمتع بمشاهدة العالم». وتابعت، «لكن هذا استلزم أن أوزع هنا وهناك بعض الذرائع. لهذا أردت أن ألقاك قبل أن نتلاقى بين الناس. أعني لا أريد أن تتفوه بأية ملاحظات مربكة، كمثل انني كنت سكرتيرة مطرودة من العمل حين شاهدتني آخر مرة».

- «إن كان الأمر متعلقاً بي، فأنت أي شيء تريد. وأنا مستعد للاختصار».

قالت فيكتوريا: «ما يجب أن تنتبه اليه هو انني الانسة

باونسفوت جونز. عمي عالم آثار معروف يقوم بالتنقيب في مكان ما هنا. وسوف التحق به بعد وقت قريب».

- «ولا شيء من هذا صحيح؟».

- «بالطبع لا. لكنها قصة جيدة في النهاية».

- «آه. أجل ممتازة. لكن تصوّري انك التقيت بالدكتور باونسفوت جونز وجهاً لوجه؟».

- «باونسفوت. لا أظن ان هذا معقول حسب تصوري. فعندما يشرع عالم آثار ما في التنقيب، فإنه ينجّر في هذا في جنون، ولا قوة في العالم توقفه عن ذلك».

- «هذا يشبه تصرف كلاب الصيد. معك الكثير من الحق في ما تقولين. هل لديه في الواقع ابنة أخ؟».

أجابت فيكتوريا: «كيف لي أن أعرف؟».

- «آه إذن أنت لا تنتحلين شخصية فتاة معينة. هذا يسهّل الأمر».

- «أجل. في النهاية، يمكن أن يكون للواحد أكثر من بنت أخ واحدة».

قال لها إدوارد بإعجاب: «انك تفكرين في كل شيء. أنت حقيقة فتاة مدهشة يا فيكتوريا. لم ألتق قط واحدة مثلك. ظننت اني لن التقيك قبل سنوات عديدة، وحين سألتك، سوف تكونين قد نسيتني كلياً. وما أنت».

نظرات إدوارد الخجلة والمليئة بالاعجاب اعطتها اكتفاء ذاتياً عارماً. ولو كانت هرة لخرخت لفرط غبطتها.

قال إدوارد: «لكنك ستحتاجين الى عمل أليس كذلك؟ أعني.
لا أظن أن ثروة هبطت فجأة عليك من السماء».

قالت فيكتوريا في ببطء: «لا. بالعكس سأحتاج الى وظيفة. في الواقع توجهت الى مركز «غصن الزيتون»، وقابلت السيد راسبون وطلبت اليه وظيفة. لكنه لم يكن متجاوباً، على الأقل بالنسبة لوظيفة مأجورة. هذا ما حدث».

قال إدوارد: «هذا الشحاذ العجوز متعنت في شراسة إن تعلق الامر بماله. يعتقد أن الجميع يأتون ويعملون لمجرد المتعة بالأمر».

- «هل تظن انه مخادع يا إدوارد؟».

- «لا. لا أعرف بالتأكيد ما أظن بشأنه. انه لا يكسب أية أموال من وراء نشاطه هذا. كل ما أستطيع أن أقوله هو ان حماسه هذه لا بد وأنها حقيقية. ولكن. كما رأيت. لا أعتقد في الواقع ان هذا الرجل ساذج».

قالت فيكتوريا: «من الأفضل أن ندخل. يمكننا التحدث لاحقاً».

بادرت السيدة كلايتون إلى القول: «لم أكن أعرف انك وإدوارد تعرفان بعضكما من قبل».

أجابت فيكتوريا ضاحكة: «نحن صديقان منذ وقت طويل. ما حدث هو اننا انقطعنا عن التلاقي لفترة. ولم أكن أعرف ابداً انه في هذه البلاد».

السيد كلايتون الذي كان رجلاً سكوتاً دائم التفكير. رآته فيكتوريا طالعاً الدرجات. وسأل: «كيف جرت الامور هذا الصباح يا إدوارد؟ هل تحسّن الوضع؟».

- «المسألة على طريق الحل. صناديق الكتب موجودة كلها هناك.
لكن المعاملات اللازمة لخراجها تبدو وكأنها من دون نهاية».
ابتسم كلايتون.

- «انك لم تعتد بعد على نمط الشرق البطيء».

- «الموظف الرسمي المسؤول عن الأمر لا تجده أبداً. كلهم
لطفاء ومستعدون للمساعدة. لكنك في النهاية لا تنجز أي شيء».

ضحك الجميع، وقالت السيدة كلايتون مواسية: «سوف تنجح
في النهاية. لقد تصرف الدكتور راسبون بحكمة بإرساله أحداً ما
للاهتمام شخصياً بهذا. وإلا لكانت الصناديق بقيت هنا لمدة
أشهر».

- «منذ مشكلة فلسطين صاروا يخافون جداً من القنابل وأيضاً
من الأدب. انهم يشكّون في أي شيء».

قالت السيدة كلايتون مقهقهة: «لا أظن ان الدكتور راسبون
يشحن قنابل على أنها كتب».

خطر لفيكوريا انها لمحت ومضة مفاجئة في عيني إدوارد، وكأنما
فتحت ملاحظة السيدة كلايتون باباً للشك كان غير مفترض.

قال السيد كلايتون: «الدكتور راسبون رجل مثقف ومعروف
جداً يا عزيزتي. انه عضو في جمعيات مهمة، ومحترم في كل أنحاء
أوروبا».

أشارت السيدة كلايتون من غير مبالاة: «تصبح الأمور أكثر
سهولة إذا أراد تهريب القنابل».

رأت فيكتوريا ان السيد كلايتون لم ترق له البتة الفكرة المازحة
وعبس متطلعاً إلى زوجته.

خرجت فيكتوريا مع إدوارد عند الظهر بعد أن تناولوا طعام
الغداء، وتجوّلا في المنطقة لتشاهد فيكتوريا الامكنة. فرحت جداً
بمنظر النهر، وشط العرب وأشجار البلح المحيطة به. أعجبتها كثيراً
المراكب العربية ذات المقدمات العالية الشبيهة بمراكب البندقية.
والتي كانت مربوطة في القناة داخل المدينة. ثم تجوّلوا في السوق
حيث شاهدوا صناديق كويتية مزخرفة بالنحاس وبضائع كثيرة
أخرى لافتة للنظر.

حين قررا العودة الى القنصلية ليتوجه ادوارد من هناك مرة
جديدة الى الجمارك، تطلعت اليه فيكتوريا وقالت فجأة:

- «إدوارد ما هو اسمك؟».

حدّق فيها إدوارد: «ماذا تعني بحق الله؟».

- «اسم عائلتك. ألم تلاحظ انني أجهل هذا؟».

- «ألا تعرفين؟ لا. أظن انك لم تعرفيه. انه غورينغ».

«إدوارد غورينغ. لا يمكنك أن تتصور كم كنت محزنة وكم
شعرت بالغباء حين توجهت الى «غصن الزيتون» لأسأل وكان كل
ما أعرفه عنك هو «إدوارد»».

- «هل كانت هناك فتاة سمراء؟ طويلة الشعر؟».

- «أجل».

- «إنها كاترين. إنها لطيفة جداً. لو ذكرت لها الاسم فقط لكانت
عرفتني على الفور».

قالت فيكتوريا في تحفظ، «أظن انها كانت ستعرف».

- «انها فتاة بمنتهى اللطافة. ألا تقولين هذا؟».

- «آه، ربما...».

- «ليست جميلة المظهر - في الواقع لا شيء جذاباً فيها. إنما هي ودودة بشكل غير معقول».

- «أوهذا صحيح؟». كانت نبرة فيكتوريا باردة بل متجمدة من جراء الغيظ. لكن لم يظهر أن إدوارد انتبه لذلك.

- «في الحقيقة لا أعلم ماذا كنت فعلت من دونها. لقد شرحت لي كل الوضع، وكانت خير مرشد في أوقات صعبة. أنا واثق انكما ستصبحان صديقتين».

- «لا أعتقد انه ستتاح لنا الفرصة لذلك».

- «آه. بالطبع ستستطيعين. سوف أحصل لك على وظيفة في المركز».

- «كيف ستدبر ذلك؟».

- «لا أعرف لكنني سأتصرف بطريقة ما. أمدح قدراتك الرائعة بالضرب على الآلة الكاتبة وغيرها أمام العجوز راسبون».

قالت فيكتوريا: «سوف يكتشف عاجلاً انني لست كذلك».

- «في مطلق الأحوال سوف أضمّك الى المركز بطريقة ما. لن أدعك تقفزين هنا وهناك على هواك. قد تطلعين عليّ غداً بمشروع سفر الى بورما أو مجاهل أفريقيا. لا يا صغيرتي فيكتوريا سأبقىك أمام ناظريّ. لن أخاطر كي لا تفلتي مني هذه المرة، لا أثق بك مقدار ذرة. أنت تعشقين التجول ورؤية العالم».

فكرت فيكتوريا: «يا لك من أحمق حبيب. ألا تعرف انه ليس حتى بمقدور الأحصنة الجامعة ابعادي عن بغداد!».

وهتفت: «حسناً. ستكون وظيفة ممتعة في «غصن الزيتون»». - «لا أستطيع أن أصفها بالمتعة. ان العمل هناك مكرب. بل في منتهى السخف».

- «هل ما زلت تشك بأن هناك شيئاً مريباً في شأن المركز؟».

- «آه. كانت تلك مجرد فكرة طائشة».

قالت فيكتوريا مفجّرة: «لا. لا أظن انه مجرد افتراض طائش. أعتقد ان هذا صحيح».

التفت اليها إدوارد في حدة.

- «ما الذي يجعلك تعتقدين هذا؟».

- «شيء ما سمعته. من صديق لي؟».

- «من كان هذا؟».

- «مجرد صديق».

غمغم إدوارد قائلاً: «ان فتيات مثلك لديهن الكثير من الاصدقاء. أنت شيطانة يا فيكتوريا. إنني أحبك في جنون وأنت لا تهتمين لهذا إطلاقاً».

قالت فيكتوريا: «آه، بالعكس أنا مهتمة، لكن قليلاً فقط».

مخفية سرورها العام، سألتها: «يا إدوارد، هل تعرف أحداً يدعى لوفارج له علاقة بمركز «غصن الزيتون»، أو بأي شيء آخر؟».

- «لو فارج؟»، وتطلع إدوارد مذهولاً، «لا أعتقد هذا، من يكون؟».

وتابعت فيكتوريا تتحرى.

- «أو واحدة ما تدعى أنا شيل؟».

هذه المرة كانت ردة فعل إدوارد مختلفة تماماً. استدار إليها على نحو مفاجيء، أمسكها بذراعها وقال: «ماذا تعرفين عن أنا شيل؟».

- «أوه، إدوارد أفلتني. أنا لا أعرف أي شيء عنها. أردت فقط أن أعرف إن كنت تعرفها».

- «أين سمعت عنها؟ أمن السيدة كليب؟».

- «لا، ليس من السيدة كليب. على الأقل لا أظن هذا، لكنها في الواقع تحدثت في سرعة ومن دون توقف عن الجميع وعن كل شيء. وربما لست قادرة على تذكر إن كانت ذكرت اسمها».

- «وما الذي جعلك تفكرين أن لانا شيل أي علاقة بمركز غصن الزيتون؟».

- «هل هذا صحيح؟».

قال إدوارد في تمهل: «لا أعرف... ان هذا شديد.. شديد الغموض».

كانا واقفين خارج باب حديقة القنصلية، تطلع إدوارد الى ساعة معصمه، وقال: «يجب أن أتوجه للقيام بعمل. أتمنى لو كنت أعرف بعض العربية. لكن يجب أن نلتقي يا فيكتوريا. أريد أن توضحي لي الكثير من الأمور».

قالت فيكتوريا: «هناك أمور كثيرة أودّ اطلاعك عليها».

أي بطلة حنونة من عصر آخر أكثر رومانسية كانت سعت لإبعاد رجلها عن الخطر. ولكن ليس فيكتوريا. فالرجال حسب قناعتها

ولدوا للمخاطرة كالشرارات التي تطير الى السماء فقط. وإدوارد لن يشكرها إن هي أبعدته عن الأمر. وتذكرت وكانت واثقة أن السيد داكين لم يكن ينوي البتة عدم توريثه في القضية.

- ٢ -

عند الغروب تنزّه إدوارد وفيكتوريا معاً في حديقة القنصلية. بناء على تحذيرات السيدة كلايتون، المصّرة على رداءة الطقس، ارتدت فيكتوريا معطفاً قطنياً فوق ثوبها الصيفي.

كان غياب الشمس بديعاً لكن أياً من الشابين لم يلاحظ هذا. كانا يناقشان أموراً أهم بكثير.

قالت فيكتوريا: «لقد بدأ كل هذا في بساطة. مع اقتحام رجل ما لغرفتي في فندق تيو وقد كان مطعوناً بخنجر».

لم تكن هذه بداية بسيطة في المفهوم العام. حدّق فيها إدوارد وقال: «ماذا؟».

أجابت فيكتوريا: «أجل مطعوناً أعتقد أن هذا ما حدث له. كان يمكن بالطبع أن يكون مصاباً برصاصة. لكنني لا أظن ذلك لأنني كنت سمعت إطلاق النار على أية حال». وأضافت، «كان ميتاً».

- «كيف استطاع دخول غرفتك لو كان ميتاً؟».

- «آه يا إدوارد لا تكن غيبياً».

وأخبرته فيكتوريا في صراحة وبشكل مريب كل القصة. ولسبب ما غامض لم تستطع اطلاعه على الأحداث بتلاحقها الحدوثي

الصحيح وبأسلوب مأساوي. لقد روت بطريقة متقطعة ومجتزأة وبدت وكأنها تلفق الأمور بشكل غير صحيح.

حين انتهت. نظر إليها إدوارد مشككاً وقال: «هل تشعرين أنك مريضة يا فيكتوريا. هل أصابك مكروه؟ أعني هل أصبت بضربة شمس - أم أنك تحلمين، أم أي شيء آخر؟».

- «بالطبع لا».

- «لأنه يبدو وكأنه من المستحيل أن يحدث كل هذا».

- «في الواقع، لقد حدث». قالت فيكتوريا مأخوذة.

- «وماذا في شأن ذلك القسم الميلودرامي المتعلق بالقوة العالمية والانشاءات الغامضة والسرية في قلب منطقة التبيت أو بالوشستان. أعني في بساطة انه لا يمكن أبداً أن يكون هذا صحيحاً. أمور كهذه لا تحدث أبداً».

- «هكذا يقول الناس دائماً قبل حدوث الأشياء».

- «بحق الله - قولي الحقيقة هل ابتكرت كل هذا؟».

صرخت فيكتوريا فاقدة الصبر: «لا!».

- «ولقد أتيت الى هنا تفتشين عن شخص يدعى لوفارج وعن واحدة تدعى أنا شيل...».

- «التي سمعت عنها أنت نفسك» وأضافت، «لقد سمعت عنها ليس كذلك؟».

- «لقد سمعت الاسم - أجل».

- «كيف؟ أين؟ في مركز «غصن الزيتون؟»».

صمت إدوارد بضع دقائق ثم قال:

- «لست أدري إن كان هذا يعني شيئاً. كان مجرد شيء غريب».

تابعت: «أخبرني».

- «اسمعي يا فيكتوريا. أنا مختلف عنك. لست حاد الذكاء مثلك. إنما يخالجنى احساس غريب بأن شيئاً ما غير طبيعي يحدث. لا أعرف لماذا أشعر بهذا. أحياناً تلاحظين أشياء وتستنقجين منها أشياء أخرى أنا لا أمتلك الذكاء الكافي لذلك. تربييني الأشياء لاشعورياً وفي غموض. أحس أن في الأمر خطأ ما، ولا أفقه لماذا».

قالت فيكتوريا: «يخالجنى هذا مراراً. مثلما شعرت حين رأيت السير روبرت على الشرفة في فندق تيو».

- «من هو السير روبرت؟».

- «انه السير روبرت كروفتون لي. لقد قدم في الطائرة معي. انه متكبر ومتباه. شخص مهم جداً. أتفهم. وحين رأيته قاعداً على الشرفة في فندق تيو تحت الشمس، خالجنى شعور غريب ان شيئاً ما ليس على ما يرام، ارتبت في أمره من غير أن أعرف هويته.

لقد طلب اليه راسبون القاء محاضرة في «غصن الزيتون»، هكذا فهمت لكنه لم يستطع المجيء. لقد غادر الى مصر او دمشق أو مكان ما صباح البارحة. أظن هذا».

- «حسناً. اكمل في ما يتعلق بآنا شيل».

- «آه. آنا شيل. لم يكن بالأمر المهم في الواقع. أظن اني سمعت الاسم من إحدى الفتيات».

سألت فيكتوريا على الفور: «كأترين؟».

- «أعتقد انها كانت كاترين. أجل أذكر هذا الآن».

- «بالطبع كانت كاترين. لهذا لا تريد أن تخبرني الأمر».

- «هذا هراء. كل هذا لا معنى له».

- «إذاً ماذا حدث؟».

- «لقد قالت كاترين لإحدى الفتيات الأخريات. «حين ستأتي أنا شيل سوف نبداً. عندها سنتلقى الأوامر منها - ومنها فقط»».

- «هذا مهم للغاية يا إدوارد».

قال إدوارد محذراً: «لكن تذكرني، لست واثقاً ان كان هذا هو الاسم».

- «الم يخطر لك ان هذا الشيء شاذ بعض الشيء».

- «لا. بالطبع لم افكر. فكرت انها مجرد امرأة ستأتي لإدارة الأمور هنا. ملكة نحل أو ما شابه. هل أنت متأكدة انك لا تتوهمين كل هذا؟».

وعلى الفور جبن امام نظرة صديقه الشابة المؤنبة وردد في سرعة: «حسناً، حسناً، يجب أن تعترفي فقط ان القصة بمجملها تبدو شاذة. أشبه بقصة بوليسية. يقتحم رجل غرفتك ويتمتم كلمة لا تعني شيئاً - ثم يموت. هذا لا يبدو حقيقياً!».

قالت فيكتوريا وهي ترتعد قليلاً: «أنت لم تر الدماء».

قال إدوارد بصوت عطوف: «لا بد أن هذا سبب لك صدمة مخيفة».

ردت فيكتوريا: «هذا ما أصابني بالفعل. وفوق كل هذا تأتي أنت وتساألني إن كنت ألق الأمر».

- «أنا آسف. لكنك حقيقة بارعة في ابتكار الأشياء. مثلاً قصة أسقف لانغو وكل تلك الادعاءات».

- «آه. كان ذلك مجرد عبث طفولي. لكن هذا مهم وخطير يا إدوارد. خطير جداً».

- «ذاك الرجل، داكين. هل يدعى بهذا الاسم؟ هل كان مقنعاً حين أخبرك هذه الأشياء؟».

- «أجل كان مقنعاً للغاية، لكن، لحظة، يا إدوارد كيف تعرف...».

استوقفها هتاف من الشرفة:

- «ادخلا كلاكما. المشروب في انتظاركما».

هتفت فيكتوريا: «سنأتي فوراً».

قالت السيدة كلايتون لزوجها وهي تراقبهما يطلعان الدرجات:

- «ثمة أمر ما في الجو هناك! إنهما زوجان جميلان. متوافقان جيداً. هل تريد أن أقول لك بماذا أفكر يا جيرالد؟».

- «بالتأكيد يا عزيزتي. تعرفين اني أهتم دائماً بأفكارك».

- «هذه الفتاة جاءت الى هنا لتلتحق بورشة عمها، لسبب وحيد وبسيط هو هذا الشاب».

- «لا أعتقد هذا أبداً يا روزا. لقد تفاجأ فعلاً عندما تلاقيا».

- «رباه»، ردت السيدة كلايتون، «هذا لا يعني شيئاً. يمكنني ان أقول انه هو من فوجيء بالامر».

هزّ السيد كلايتون رأسه وابتسم لها.

قالت السيدة كلايتون: «ليست هي من صنف المهتمات بالآثار. انهن عموماً جديّات ويضعن نظّارات. وأيديهن اجمالاً متعبة».

- «يا عزيزتي لا يمكنك التعميم بهذه الطريقة».

- «يكن عادة مثقفات والخ. هذه الفتاة أنيسة وظريفة وفطرية في سلوكها. مختلفة كلياً. وهو شاب لطيف. ارتباطه مع مشروع «غصن الزيتون» هو أمر مؤسف. لكنني أظن ان الوظائف قليلة هذه الأيام. يجب أن يجدوا وظائف جيدة لهؤلاء الشبان».

- «ليس الأمر هيناً يا عزيزتي. انهم يحاولون. لكن كما ترى، الشبان ليسوا مدربين كفاية، ليس لديهم خبرة، وعموماً لا قدرة عندهم على التركيز».

توجهت فيكتوريا تلك الليلة الى فراشها وملؤها اضطراب شديد.

لقد حصلت على المعلومات التي كانت تريدها. وجدت إدوارد! لكنها ارتعدت من جراءة فعل لم تتمكن من تجنبها. ومهما فعلت كان ذاك الشعور الشاذ الذي تملكها قائماً.

لقد جعلها تشكيك إدوارد في الأمور تعيد النظر. راودها ان كل ما جرى غير حقيقي بل مسرحي الى حد ما. انها هي فيكتوريا جونز. مجرد ضاربة حقيرة على الآلة الكاتبة من لندن. وصلت الى بغداد وشاهدت تقريباً مقتل رجل بعينيها المجردتين. وأصبحت عميلة سرية أوشيناً ما يضارع هذا مأساوية. والتقت أخيراً بالشاب الذي تحبه في حديقة استوائية تحت أشجار بلح متأرجحة. وفي مكان دلت كل الافتراضات على انه المكان الحقيقي لموقع جنة عدن.

ثم تذكرت أغنية طفولية ورددها:

«كم من الأميال تبعد بلاد بابل
انها تبعد ثلاث مسافات زائد عشر
هل تستطيع الوصول الى هناك عند العشية؟
اجل، والعودة ايضاً».

غير انها لم ترجع بعد. كانت ما تزال في بلاد بابل.

ربما لن تعود أبداً. هي وإدوارد معاً في بلاد بابل.

سؤال ما ودّت أن تطرحه على إدوارد - هناك في الحديقة -
حديقة عدن - هي وإدوارد - تسأل إدوارد - لكن السيدة كلايتون
هتفت - ونسيت السؤال كلياً - لكن ينبغي أن تتذكر - لأنه كان
مهماً - كان كل هذا من دون معنى - شجرات البلح - الحديقة -
إدوارد - خادمة عربية - أنا شيل - روبرت كروفتون لي - كان هناك
خطأ ما في كل هذا - ولو استطاعت فقط أن تتذكر - امرأة متوجهة
نحوها في ردة فندق - امرأة في ثياب أنيقة - كانت هي بالذات -
لكن حين اقتربت رأت انه كان لها وجه كاترين - إدوارد وكاترين -
هراء! «تغال معي قالت لإدوارد سوف نعثر على السيد لوفارج» -
وفجأة ظهر امامها، كان قصيراً اسود.

كان إدوارد غادر الآن وهي وحيدة. كان ينبغي أن تعود من بابل
قبل انطفاء الشموع.

ونحن هنا حتى الظلام.

من قال هذا؟ عنف، رعب، شيطانيان - دماء على سترة كاكية -
كانت راكضة - راكضة في رواق فندق - وكانوا يطاردونها.

استفاقت فيكتوريا لاهثة.

- «هل تريد قهوة؟»، قالت السيدة كلايتون، «كيف تفضلين البيض؟ مخلوطاً؟».

- «أحب هذا».

- «تبدلين شاحبة. هل أنت مريضة؟».

- «لا، لم أُنم جيداً الليلة الفائتة. لا أعرف ما السبب. انه سرير مريح جداً».

- «هلاً أدركت المذياح من فضلك يا جيرالد. انه وقت الأخبار».

دخل ادوارد لحظة انبعاث صوت المذياح:

«في مجلس العموم قدم رئيس مجلس الوزراء الليلة الفائتة تفاصيل عن تحديد الاستيراد بالدولار الأميركي».

جاء في تقرير من القاهرة انه عثر على جثة السير روبرت كروفتون لي في مياه النيل. (أفلتت فيكتوريا كوب القهوة من يدها في عنف وأطلقت السيدة كلايتون صرخة). كان السير روبرت غادر فندقه بعيد وصوله في الطائرة من بغداد، ولم يرجع اليه تلك الليلة. كان اختفى لمدة أربع وعشرين ساعة قبل أن يتم العثور على جثته. قتل السير روبرت من جراء طعنة تلقاها في قلبه مباشرة وليس غرقاً. كان السير روبرت رحالة معروفاً. واشتهر برحلاته عبر الصين وبالوشستان وكان نشر مجموعة من الكتب».

صرخت السيدة كلايتون بانذهال: «مقتولاً! أظن ان القاهرة أسوأ مكان ممكن الآن. هل كنت تعرف أي شيء عن هذا يا جيري؟».

قال السيد كلايتون: «لقد علمت انه كان مفقوداً. اتضح انه تلقى رسالة، سلّمت اليه باليد، وغادر الفندق على عجل وسيراً على القدمين من غير أن يفصح عن المكان المتوجه اليه».

- «هل رأيت»، قالت فيكتوريا لإدوارد بعد الفطور عندما أصبحا وحدهما. «لقد كان كل شيء صحيحاً. أولاً ذاك الرجل المدعو كارمايكل، والآن السير روبرت كروفتون لي. أشعر بالندم الآن لأنني وصفته بالمتباهي. يبدو هذا غير لطيف. انهم يعملون على تصفية كل الذين يعرفون أو تراودهم الشكوك في شأن تلك المسألة؟ هل تعتقد يا إدوارد اني سأكون التالية؟».

- «بحق الله ليس هذا بموضوع سخرية يا فيكتوريا! ان احساسك المسرحي طاغ الى درجة غير محتملة. لا أظن. لماذا يريد احدهم قتلك، فأنت في الحقيقة لا تعرفين أي شيء - ولكن أرجوك - كوني حذرة جداً».

- «سنكون كلانا حذرين. لقد ورطتك في المسألة».

- «آه. ليس بذى أهمية. انه يريحني من الرتبة».

- «أجل. ولكن انتبه لنفسك» وارتعدت فجأة، مغممة: «انه أمر مخيف - لقد كان يشعّ حياة - أعني كروفتون لي - والآن هو ميت. هذا مفزع. حقيقة مفزع».

الفصل السادس عشر

سأل السيد داكين: «هل وجدت رجلك؟».

أحنت فيكتوريا رأسها موافقة.

- «هل وجدت أي شيء آخر؟».

هزت فيكتوريا هذه المرة رأسها نفياً وفي تعاسة.

قال السيد داكين: «حسناً، لا تحزني، تذكرني أن في هذه اللعبة غالباً ما تكون النتائج قليلة ومتباعدة. قد تكونين اكتشفت شيئاً ما هناك. لا أحد يعرف. لكنني لم أكن بأية حال معتمداً على ذلك».

سألت فيكتوريا: «هل أستطيع أن أتابع المحاولة؟».

- «هل تريدین هذا؟».

- «أجل. أود ذلك. يظن إدوارد أنه يستطيع أن يؤمن لي وظيفة في «غصن الزيتون». ان أبقيت عيني وأذني مفتوحة فقد أكتشف شيئاً ما، أوليس هذا ممكناً؟ انهم يعرفون شيئاً ما عن أنا شيل هناك».

- «آه. هذا مهم للغاية يا فيكتوريا. كيف علمت بهذا؟».

أخبرته فيكتوريا مجدداً ما قصّه عليها إدوارد - عن ملاحظة

كاترين التي تقول انه «حين ستحضر أنا شيل سوف يتلقون
الأوامر منها».

«هذا مهم جداً»، رد السيد داكين.

سألت فيكتوريا: «من تكون أنا شيل، أعني لا بد وانك تعرف
أشياء عنها. ليس مجرد اسم، اليس كذلك؟».

- «انها أكثر من اسم. انها السكرتيرة الخاصة لأحد رجال
المصارف الأميركية. انه رئيس شركة المصارف الدولية. لقد غادرت
نيويورك وجاءت الى لندن منذ عشرة أيام تقريباً. واختفت من يومها».

- «اختفت؟ لم تمت، أليس كذلك؟».

- «إن كان هذا حدث بالفعل، فالجثة لم تكتشف بعد».

- «لكن يمكن أن تكون ميتة».

- «آه أجل، هذا ممكن».

- «هل كانت قادمة الى بغداد؟».

- «ليس لدي أدنى فكرة. يتضح من ملاحظات تلك الشابة
كاترين انها كانت قادمة. اوهي وصلت إليها. إذ ليس لدينا الى الآن
أية معلومات تؤكد موتها».

- «قد أستطيع معرفة معلومات أكثر في «غصن الزيتون»».

- «قد تستطيعين. لكن يجب أن أحذرك مجدداً يا فيكتوريا.
احترسي جداً. المنظمة التي تعملين ضدها لا ترحم. لا أريد أن
يعثروا على جثتك عائمة على سطح نهر دجلة».

ارتجفت فيكتوريا قليلاً ثم تمتعت:

- «كما حدث للسير روبرت كروفتون لي. حين كان ذاك الصباح هنا في الفندق لاحظت شيئاً غريباً في سلوكه - أمر فاجأني - أتمنى لو أستطيع أن أتذكر ما هو...».

- «غريب! في أي معنى؟».

- «قد أقول.. مختلف». وجواباً على نظرتة المتسائلة هزت رأسها في حيرة. «قد أتذكر هذا. في مطلق الأحوال لا أظن أن هذا ذو أهمية».

- «قد يكون أي شيء مفيداً».

- «إن حصل لي إدوارد على وظيفة، فينبغي أن أحصل على غرفة مثل بقية الفتيات، في نزل أو بيت للنزلاء، وأن لا أبقى هنا».

- «هذا يخفف من دون أدنى شك الظنون. فنادق بغداد باهظة جداً. يبدو أن رجلك يفكر بشكل سليم جداً».

- «هل ترغب في رؤيته؟».

هز داكين رأسه.

- «لا. قولي له أن يبتعد عني. أنت لسوء الحظ، وبسبب الظروف ليلة مقتل كارمايكل أصبحت في موضع شك. لكن لا علاقة لإدوارد في ذلك الحدث أو بي وبأية طريقة - وهذا أمر هام جداً».

قالت فيكتوريا: «أردت أن أسألك منذ وقت. من الذي قتل فعلياً كارمايكل؟ هل كان أحد ما تبعه الى هنا؟».

قال داكين متباطئاً: «لا. كان هذا مستحيلاً».

لقد قدم في قارب. أحد تلك القوارب البدائية. ولم يكن متبوعاً.

نعرف ذلك لأنني كنت كلفت أحدهم بمراقبة النهر».

- «إذاً كان أحداً ما - في الفندق؟».

«أجل يا فيكتوريا، وأكثر من هذا فهو موجود في قسم معين من الفندق. لأنني قمت بنفسي بمراقبة الأدراج ولم يصعد أحد تلك الليلة».

حدّق فيها محتار الوجه وقال بصوت خفيض: «وهذا يتركنا مع عدد محدود من الأسماء، أنت وأنا والسيدة كارديو ترانش، وماركوس وشقيقاته. هناك خادمتان عجوزان تقيمان هنا منذ سنوات. رجل يدعى هاريسون من كركوك لا نعرف أي شيء ضده. هناك ممرضة تعمل في مستشفى يهودي. يمكن أن يكون القاتل أي واحد منهم. إلا أننا ولسبب واحد منطقي لا نشك بأي منهم».

- «وما هو؟».

- «كان كارمايكل متيقظاً جداً، كان يعرف انه أدرك ذروة مهمته. كان يمتلك حدساً خارقاً إزاء الخطر. كيف خذله حدسه؟».

ردت فيكتوريا: «رجلا الشرطة اللذان قدما...».

- «آه لقد حضرا بعد ذلك. لقد صعدا من الشارع. لقد أعطيا إشارة، لكن ليس هما من قام بطعنه. لقد فعل ذلك شخص عرّفه كارمايكل جيداً. وثق فيه... أو ربما اعتبره غير مهم، لو كنت فقط أعرف...».

ذروة الإنجاز يرافقها دائماً الهبوط التافه.

أن تصل الى بغداد، أن تجد إدوارد، أن تكتشف أسرار «غصن الزيتون». كل هذه شكّلت ظهوراً مسرحياً بهيجاً. الآن وقد حققت

أهدافها، أخذت فيكتوريا في لحظات نادرة من مراجعة النفس، تتساءل: «بحق الله ما الذي أفعله؟». كان حدث وانتهى كان انفعالها بإدوارد قد حدث وانتهى. كانت تعشق إدوارد، وهو يعشقها. كانا يعملان معاً تحت سقف واحد معظم الأيام. ولكن حين كانت تفكر في كل هذا بمنطق كانت تقول مجدداً: «بحق الله ما هذا الذي يفعله؟».

ذلك أن إدوارد استطاع بوسيلة ما، بالتصميم أو بالاقناع، تأمين وظيفة ضعيفة الأجر في مركز «غصن الزيتون» لفكتوريا. وكانت تقضي معظم الوقت في غرفة صغيرة كثيفة تحت ضوء هزيل لمصباح كهربائي. كانت تطبع على آلة كاتبة حقيرة إشعارات، ورسائل وبرامج نشاطات مركز «غصن الزيتون». كان لدى إدوارد حدس بأن شيئاً ما غير واضح يجري هناك. وكان السيد داكين يوافقه الرأي في ذلك. كانت فيكتوريا تتحرى قدر المستطاع، ولكن في كل ما شاهده حتى الآن لم تلاحظ أي شيء جديراً بالاهتمام. كانت كل نشاطات «غصن الزيتون» تصب في مسعى السلام العالمي. كانت أقيمت عدة لقاءات وكانت تقدم فيها مشروبات ومأكولات مقبولة. وكان يتوجب على فيكتوريا القيام بدور المضيفة بين مجموعة من مختلف الجنسيات كانوا يرمقون بعضهم بعضاً بحقد ويلتهمون الطعام بجشع.

ما استطاعت فيكتوريا استخلاصه إلى الآن، لم يكشف أية مؤامرات أو قنوات أو عصابات داخلية شريرة. ظاهرياً كان كل شيء نقياً وواضحاً ومملاً حتى اليأس. حاول العديد من الشبان السمر مغازلتها وقدم إليها البعض الآخر كتباً للمطالعة من النوع المثير

للإشمئزاز. كانت الآن غادرت فندق تيو وسكنت في غرفة مع مجموعة أخرى من الفتيات من جنسيات مختلفة في منزل عند الضفة الغربية من النهر. كانت كاترين إحداهن، ولاحظت فيكتوريا أنها كانت تراقبها بعينين مليئتين بالشك. غير أن فيكتوريا لم تستطع أن تعرف إن كانت تفعل ذلك لاشتباهها فيها كجاسوسة على نشاطات «غصن الزيتون»، أو بسبب غيبتها على إدوارد. ورجحت فيكتوريا الاحتمال الثاني. كان قد أصبح معروفاً أن إدوارد هو من حصل لها على الوظيفة. ولقد زجرتها من جراء ذلك العيون السود لعدد من الزملاء.

خطر لفيفكتوريا في كآبة أن إدوارد كان جذاباً أكثر من اللزوم لقد كانت كل الفتيات مغرمات به ولم تكن ملاطفته لهن كَلْهُن مريحة البتة. كانت اتفقت وإدوارد أن لا يظهر أية علاقة مودة خاصة بينهما. فلو وجدا أي شيء مثيراً للشك فلا يجب أن يشتبه فيهما كشريكين. كان إدوارد يتصرف معها كتصرفه مع أي من تلك الأخريات بل ببرودة إضافية.

لعلّ مركز «غصن الزيتون» بدا مسالماً، إلا أن شعوراً آخر مغايراً خامر فيكتوريا بشأن رئيسه ومؤسسه. لقد انتبهت إليه وهو ينظر إليها مرة أو مرتين نظرة مشككة وعدائية، وكانت هي تقابل تلك النظرة بمنتهى البراءة وبوداعة هرة. فشعرت فجأة بقشعريرة لا تشبه سوى الخوف.

مرة حين صادف واجتمعا معاً (لتفسير غلطة قامت بها على الآلة الكاتبة)، تطوّرت المسألة أكثر من مجرد نظرة.

سألها: «هل أنت سعيدة بالعمل معنا؟ أتمنى ذلك».

اجابت فيكتوريا: «آه. اجل بالطبع يا سيدي، أنا آسفة لارتكابي الكثير من الأغلط».

- «نحن لا نأبه للأغلط. لا فائدة في ماكينة خالية من الروح. نحن في حاجة للشباب، للروح المعطاء، للجرأة». كانت سعت جاهدة لتبدو متحمسة ومنفتحة.

- «ينبغي أن تحبّي العمل... أن تعشقي الهدف الذي تعملين من أجله... أن تتطلّعي بإيجابية الى مستقبل مشرق. هل تشعرين حقاً بكل هذا يا ابنتي الصغيرة؟».

قالت فيكتوريا: «كل هذا جديد عليّ، لا اشعر اني استطعت استيعاب كل هذا».

- «التلاقي، التلاقي المطلوب هو أن يتلاقى الشبان في كل انحاء العالم. هذا هو هدفنا الأهم. هل تستمتعين بأمسيات المناقشات الحرة وبالرفاق؟».

- «آه. اجل»، وكانت في الواقع تشمئز منهم.

- «الاتفاق، لا الشقاق. الأخوة لا الكراهية. ان هذا ينمو بالتأكيد ولو ببطء. أنت تشعرين بهذا، اليس كذلك؟».

جال في خاطر فيكتوريا كل ما شهدته من غيرة حقيرة، من كراهية عنيفة، من مشادات مستمرة، وإهانات متبادلة، من اعتذارات غير مستجابة، وجهلت في الواقع ما كان يتوقع منها أن تجيب.

قالت بحذر: «أحياناً يكون الناس في غاية الصعوبة».

قال السيد راسبون متنهداً: «اعرف، اعرف»، هز راسه بحيرة

وأردف، «ما هذا الذي سمعت بأن مايكل راكونيان لكم اسحق ناحوم وجرح له شفته؟».

قالت فيكتوريا: «لقد حصل بينهما شجار بسيط».

بدا السيد راسبون مكتئباً بشدة.

- «الصبر والإيمان»، قال متمتماً، «الصبر والإيمان».

تمت فيكتوريا موافقة إياه واستدارت لتغادر.

ثم تذكرت انها نسيت نص الرسالة. فعاتت من جديد. النظرة التي واجهها بها الدكتور راسبون روعتها الى حد ما. كان يحلق بنظرة مليئة بالشك، وشعرت متضايقه بمدى جدية وخطورة مراقبتهم لها. وتساءلت عن حقيقة ما كان يعتبرها السيد راسبون. كانت المعلومات التي تلقتها من داكين دقيقة جداً. كان ينبغي ان تتبع أساليب معينة للاتصال به، ان كان لديها ما تبلغه اياه. كان اعطاها منديلاً قديماً أحمر وشاحباً. حين يكون لديها ما يستلزم الإبلاغ، كان عليها أن تمشي كما كانت تفعل غالباً مع غياب الشمس. كانت تمشي بمحاذاة النهر على مقربة من المنزل حتى تصل ممراً ضيقاً أمام بيوت تبعد تقريباً ربع الميل. في آخر الممر كانت هناك درجات طويلة تؤدي الى ضفة المياه حيث ترسو على الدوام قوارب صغيرة. كان عليها أن تعلق المنديل بمسمار صدئ في إحدى الدعامات الخشبية الموجودة هناك. فكرت فيكتوريا في مرارة أنه لا حاجة الآن الى أي لقاء من هذا النوع. كل ما كانت تفعله هو القيام بوظيفة حقيرة الأجر وبطريقة متخلفة. كانت تشاهد إدوارد نادراً، إذ ان الدكتور راسبون كان يرسله باستمرار الى

أماكن بعيدة. حالياً، لقد عاد للتو من إيران. أثناء غيابه التقت السيد داكين لمدة وجيزة. تلقت منه أمراً بالتوجه الى فندق تيو لتسأل هناك إن كانت نسيت عندهم سترتها الصوفية.

ويما ان الجواب كان نفياً، أطلّ ماركوس وجزّها الى ضفاف النهر لاحتساء كوب من المشروب. خلال ذلك أطل السيد داكين من فوق الطريق فلوح له ماركوس طالباً إليه مشاركتها، وبينما قدّمت الليموناضة لداكين تم استدعاء ماركوس، فخلت الجلسة لهما متواجهين حول طاولة صغيرة مدهونة.

اعترفت له فيكتوريا بإخفاقها الكامل، غير ان داكين طمأنها متفهماً:

- «يا طفلي العزيزة انت لا تعرفين حتى ما الذي تبحثين عنه ولا حتى ان هناك أصلاً ما يمكن ان تكتشفيه. عموماً ما هو انطباعك عن «غصن الزيتون»؟».

قالت فيكتوريا على مهل: «انه بالكامل مسرحية مضجرة وباهتة».

- «باهتة ولكت ليست مزيفة أليس كذلك؟».

قالت فيكتوريا ببطء: «لا أعرف، الكل مأخوذ بفكرة الثقافة إن كنت تفهم ما أعنيه».

- «هل تعنين انه حين يتعلق الأمر بالثقافة، لا يعود أحد يهتم باستقصاء الزيف، على عكس ما يحصل باستمرار في المشاريع الخيرية أو المالية؟ هذا صحيح. الحماسة التي ترينها هناك غير

كاذبة بالطبع. ليس لدي أدنى شك بذلك. ولكن هل يستخدمون المنظمة لتمرير أفكارهم؟».

قالت فيكتوريا في ريبة: «أظن انه يجري الكثير من النشاط الشيوعي هناك. إدوارد يعتقد هذا أيضاً. لقد جعلني اقرا كارل ماركس وأترك الكتاب في أمكنة بارزة لأرى ما تكون ردات الفعل». هرز داكين رأسه موافقاً.

- «هذا مثير للاهتمام. وهل من ردات فعل الى الآن؟».

- «لا. ليس بعد».

- «ماذا عن راسبون؟ أهو صادق؟».

قالت فيكتوريا بنبرة مشككة: «أظن انه كذلك؛ لأنه في الواجهة. إن سَلَمْنَا بوجود نشاط شيوعي، فما يحصل عادة هو أن الطلاب والثوار نادراً ما يتسنى لهم لقاء القائد. سوف تقوم الشرطة بالتفتيش عن مصدر القنابل الملقاة في الشارع. إلا أن راسبون شيء آخر. انه من النخبة، رجل متميز وصاحب سجل نظيف وغني بالنشاطات الاجتماعية. انه يجتمع فقط بالزوار المتميزين. سوف يفعل هذا بالتأكيد. أريد أن أعرف أكثر عن راسبون».

أجل، هكذا افكرت فيكتوريا، ان راسبون هو قطب كل ما يجري في لقائهما الأول في لندن منذ أسابيع كان لا بد وأن يكون مصدر شكوك إدوارد عندما وصفه «بالمريب». لا بد وأن حدثاً ما، كلمة ما، وراء انبعاث هاجس الشك لدى إدوارد. هكذا قررت فيكتوريا فجأة تسلسل الأفكار في ذهنها، وهذا ما كان المحرك الأول للعقول. لم تكن الريبة أو انعدام الثقة مجرد حدس مجاني؛ انها دائماً نتيجة

لحدث ما. لو استطاعت جعل إدوارد يتذكر ويعيد التفكير، فقد يستطيعان معاً اقتناص الحدث الذي الهب شكوكه. وبالطريقة نفسها يجدر بها هي أيضاً أن تجهد لتتذكر الشيء الذي فاجأها حين خرجت الى الشرفة في فندق تيو ورأت السير روبرت كروفتون لي جالساً تحت الشمس. قد يكون صحيحاً انها توقعت انه يقيم في السفارة وليس في الفندق، لكن هذا لم يكن ليبرر الاحساس الطافي الذي تملكها حين خطر لها أن جلوسه هناك كان أمراً غير معقول! سوف تسترجع وتسترجع الأحداث في ذلك الصباح، ويجب أن يتذكر إدوارد كل تفاصيل ارتباطه منذ البداية مع الدكتور راسبون. سوف تقول له ذلك حين سيلتقيان وحدهما في المرة الآتية. لكن لقاء إدوارد بمفرده لم يكن بالغرض السهل. في البداية كان سافر الى إيران، ولقد عاد الآن، كان أكثر من مستحيل اجراء احاديث خاصة في «غصن الزيتون». في النزل الأرمني حيث كانت تقيم، كانت الخصوصية أيضاً صعبة المنال. فكرت فيكتوريا انه قياساً الى مجموع الساعات التي تستطيع أن تستفرد خلالها بإدوارد، فإنه قد يكون من المفضل أن تبقى في انكلترا!

إلا أن تأكيد عدم صحة تفكيرها هذا ظهر بعد فترة قصيرة جداً. فقد جاء اليها إدوارد حاملاً بعض الأوراق المكتوبة وقال:

- «يوه الدكتور راسبون أن تطبعي هذه على الآلة الكاتبة فوراً، ان كنت تسمحين يا فيكتوريا. وكوني منتبهة خصوصاً في الورقة الثانية! إن فيها أسماء عربية صعبة».

حشرت فيكتوريا متنهدة، ورقة بيضاء في آلتها الكاتبة وبدأت الضرب على الفور. لم يكن خط الدكتور راسبون صعب القراءة

عموماً، وهنأت فيكتوريا نفسها كونها اقتربت عدداً أقل من الأغلاط هذه المرة. أزاحت الورقة الأولى ثم بدأت الثانية، فأدركت على الفور معنى ملاحظة إدوارد للانتباه للصفحة الثانية. رأت ملاحظة صغيرة جداً كتبت بخط يد إدوارد على رأس الصفحة:

«أخرجني في نزهة على ضفاف نهر دجلة، الى ما بعد بيت مالك علي غداً صباحاً حوالى الساعة الحادية عشرة».

كان اليوم التالي نهار جمعة، وهو يوم العطلة الأسبوعية.

ارتفعت معنويات فيكتوريا حتى كادت تصل الى كوكب عطارد. سوف ترتدي معطفها الأخضر وسوف تغسل شعرها. كانت التسهيلات الصعبة في النزل حيث تسكن تمنعها من تحقيق ذلك. وتمتعت لنفسها بصوت مرتفع: «انه في حاجة لهذا بالتأكيد».

- «ماذا قلت؟»، قالت كاترين التي كانت منشغلة بترتيب كدسة من الرسائل والمنشورات. كانت رفعت رأسها وحدقت في ريبة من فوق طاولة مكتبها المجاورة.

طلبت فيكتوريا بسرعة ملاحظة إدوارد وقالت بصوت منخفض:

- «شعري في حاجة الى الغسل. كل صالونات التزيين تبدو متسخة للغاية. لا اعرف اين اتوجه».

- «اجل انها قدرة وباهظة الاسعار أيضاً. لكنني اعرف احدى الفتيات التي تقوم بهذا بشكل ممتاز ولديها أيضاً مناشف نظيفة. سوف أصطحبك اليها».

قالت فيكتوريا: «هذا لطيف جداً منك يا كاترين؟».

- «سوف نذهب غداً. انه نهار عطلة».

أجابت فيكتوريا: «لا. ليس غداً».

- «لماذا ليس غداً؟».

كانت نظرة مليئة بالشك تحديق فيها. وأحست فيكتوريا بالانزعاج غير العادي وبالكراهية من جراء ردة فعل كاترين.

- «أفضل أن أتجول غداً، للتمتع ببعض الهواء النظيف: أشعر وكأننا محبوسون هنا».

- «أين في مقدورك التنزه؟ لا مكان للتنزه في بغداد؟».

- «سوف أجد مكاناً ما».

- «أفضل الذهاب الى السينما. أليست هناك اي محاضرة مهمة في مكان ما؟».

- «لا أريد أن أخرج. نحن في انكلترا نحب القيام بالنزهات».

- «أنت متكبرة ومتعالية لأنك انكليزية. ماذا يعني أن تكوني انكليزية؟ هذا لا شيء. نحن هنا نبصق على الإنكليز».

- «حاولي أن تبصقي عليّ وستنالين مفاجأة لن تسرك». قالت فيكتوريا هذا وهي تفكر في سهولة تفجّر الأحقاد الدفينة في مركز «غصن الزيتون».

- «ماذا ستفعلين؟».

- «حاولي وسترين؟».

- «لماذا تقرأين كارل ماركس؟ لا نستطيع أن نفهم. انت أكثر غباء من هذا. هل تعتقدين انهم سيقبلون بك عضواً في الحزب الشيوعي؟ لست مثقفة كفاية سياسياً».

- «ما الذي يمنع أن أقرأه؟ لقد كتب أصلاً لأناس مثلي، للعمال».

- «أنت لست من الطبقة العاملة. أنت بورجوازية. أنت لا تستطيعين حتى الضرب على الآلة الكاتبة بصورة جيدة. ألا ترين الأغلاط التي ترتكبينها؟».

قالت فيكتوريا بوقار: «بعض أكثر الأشخاص ذكاء لا يحسنون التهجئة. ثم كيف أستطيع أن أعمل وأنت تكلمينني طوال الوقت؟!» طبعت بسرعة خارقة سطرأ كاملاً، لتكتشف بعدئذ وفي حزن انها كانت ضغطت على كبسة خطأ، وإن ما كتبته كان سطرأ كاملاً من علامات التعجب والأرقام والفواصل. سحبت الورقة من الآلة واستبدلتها بواحدة أخرى، ثم تابعت بتركيز حتى أنهت واجبها وحملت الأوراق متوجهة الى الدكتور راسبيون.

حدق في الأوراق وتمتم: «شيران تقع في إيران وليس في العراق - وعلى أية حال العراق تكتب بالقاف وليس بالكاف... ثم وازيت وليس ووزل - آه - شكراً يا فيكتوريا».

حين كانت على وشك مغادرة الغرفة ناداها من جديد:

- «يا فيكتوريا هل أنت سعيدة هنا؟».

- «آه أجل يا دكتور راسبيون».

عيناه القاتمتان تحت حاجبيه المرتفعين كانتا تحدقان فيها بإصرار شديد. وشعرت فيكتوريا بضيق متصاعد.

- «أخشى أننا لا ندفع لك ما يكفي».

ردت فيكتوريا: «لا يهم. أحب أن أعمل».

- «حقاً؟».

قالت: «آه. أجل. يشعر المرء أن هذا النوع من العمل يستحق التضحية».

واجهت نظرتها الهادئة عينيه السوداوين المشككتين ولم تتغير.

- «وهل تستطيعين تدبر عيشك بهذا القدر القليل؟».

- «آه. أجل. لقد عثرت على مسكن رخيص. مع بعض الأرمنيين.

أنا بألف خير».

- «هناك في بغداد حالياً نقص في عدد الضاربات على الآلة

الكاتبة». وأردف راسبون، «أعتقد أنك تعرفين أن في وسعي أن أجد لك وظيفة أفضل من هنا».

- «لكنني لا أرغب في وظيفة أخرى».

- «قد يكون قراراً حكيماً إن فعلت».

- «حكيماً؟» كررت فيكتوريا متلعثمة.

- «هذا ما قلته. مجرد إنذار - نصيحة».

كان هناك نبرة تهديد في صوته.

فتحت فيكتوريا عينيهما أكثر.

قالت: «في الواقع لا أفهم ما تقصده يا دكتور راسبون».

- «تكون الحكمة أحياناً في أن يمتنع الفرد عن التورط في أشياء

لا يفقهها».

لقد أيقنت هذه المرة أن التهديد واضح، لكنها تابعت تلعب دور البراءة.

- «لماذا جئت للعمل هنا يا فيكتوريا؟ أمن أجل إدوارد؟».

توردت فيكتوريا غضباً.

أجابت في سخط: «بالطبع لا». كانت منزعجة جداً.

هز الدكتور راسبون رأسه.

- «على إدوارد أن يشق طريقه الخاصة. ستمضي سنوات كثيرة قبل أن يحتل منصباً ذا فائدة. ولو كنت مكانك لما عدت وفكرت بإدوارد. هناك حالياً وظائف جيدة يمكنك الحصول عليها وبمرتب مرتفع وفي إمكانك أن تترقى فيها أيضاً. وستكونين بين أقران لك».

راود فيكتوريا أنه كان لا يزال يراقبها في دقة. أكان هذا اختباراً؟ قالت وهي تتظاهر بالحماسة: «ولكنني متحمسة جداً للعمل في «غصن الزيتون»».

هزّ عندها كتفيه بغير مبالاة وغادرت هي الغرفة ولكنها كانت تشعر بنظراته تلاحقها وهي تخرج.

أزعجتها المقابلة. هل حدث ثمة ما أثار ريبتها. هل حزر أنها قد تكون جاسوسة وضعت في «غصن الزيتون» لاكتشاف أسرارها؟ سلوكه وصوته جعلها تخاف. تلميح بأنها دخلت «غصن الزيتون» لتكون قريبة من إدوارد جعلها غاضبة وقتئذ، لكنها عادت وأدركت الآن أن اعتقاده هذا كان يضمن سلامتها أكثر من أي تلميح لمطلق علاقة لها مع داكين. على أية حال فإن احمرار وجهها

الأحمق لحظة ذكر إدوارد ربما جعل الدكتور راسبون يربط خفرها
بوجوده أكثر من أي شيء آخر. وهذا ما سَيّر الأمور إلى الأفضل.
في مطلق الأحوال توجهت ليلتها إلى النوم وفي قلبها خوف مرير.

الفصل السابع عشر

في اليوم التالي خرجت فيكتوريا وفي رأسها بضعة تفسيرات مبسطة. استعلمت عن مكان منزل مالك علي وعلمت انه منزل كبير مبني على ضفة النهر مباشرة في موقع متقدم على الضفة الغربية.

حتى ذلك الوقت لم يكن قد اتسع لفكتوريا الوقت الكافي لاكتشاف المنطقة المحيطة، وقد سرت وهي تتفاجأ عند نهاية الممر الضيق بأنها أصبحت تمشي مباشرة فوق ضفة النهر. انعطفت الى يمينها وتوجهت متمهلة نحو الحافة فوق الضفة المرتفعة. كانت أحياناً تتقدم حذرة لأن جدار الضفة كان متأكلاً في أجزاء منه ولم يكن رمم أو أعيد بناؤه مجدداً. كان لأحد البيوت أدراج كان يكفي أي خطوة إضافية عليها في الليل لتؤدي الى السقوط في مياه النهر. نظرت فيكتوريا الى الأسفل الى المياه وحولت مسارها مرة أخرى الى طريق رئيسة معبدة وواسعة.

كانت ترى بعض أبواب البيوت الامامية مشرعة وكانت تحدق الى داخلها مفتونة بالتناقضات التي تراها. ذات مرة حدقت في ساحة

منزل حيث كانت تتفرق نافورة مياه وحولها مقاعد بوسائد تحت اشجار بلح طويلة وحديقة في المؤخرة. بدت المقاعد وما حولها اشبه بديكور مشهد مسرحي. كان المنزل التالي يشبه تماماً من الخارج غير أن فناءه الداخلي كشف عن تداخل ممرات معتمة، وكان خمسة أو ستة أطفال يلعبون مرتدين ثياباً رثة. ثم صادفت حدائق تغصّ بشجر البلح. الى يسارها عبرت درجات غير متساوية تؤدي نزولاً الى النهر حيث جلس عربي في مركب للتجديف، وراح يؤشر ويهتف سائلاً إياها إن كانت تود عبور النهر الى ضفته الأخرى. رجّحت فيكتوريا أنها الآن في موقع مقابل فندق تيو على الضفة الأخرى. على الرغم من أن المنظر المعماري الشامل، بما فيه الفندق كان واحداً الى حد بعيد. أدركت الآن الطريق المنحدر نزولاً عبر اشجار البلح ومروراً بمنزلين مرتفعين مزيّنين بالشرفات. بعدها انبرى منزل ضخم ملتصق تماماً بالنهر تحيطه حديقة وشرفات. ثم اخترقت طريق الضفة المؤدية الى ما يفترض أن يكون بيت مالك علي.

بعد بضع دقائق اجتازت فيكتوريا مدخل حديقة البيت ووصلت الى قسم قذر. وكانت الاشجار مسورة بشرط شائك وصديء. الى اليمين بنيت بيوت متواضعة، من الطوب الموحل. بين أزقتها الضيقة كان الاطفال يلعبون بالقاذورات وكانت غيوم من الذباب تحلق فوق تلال من القمامة. عند طريق تشعبت من النهر، وقفت سيارة هناك - كانت السيارة تبدو معطوبة أو على شكل قنطرة. وكان إدوارد يقف الى جانبها.

- «ممتاز»، قال إدوارد، «لقد وصلت الى هنا. ادخلي».

سألت فيكتوريا وهي تدخل السيارة المعطوبة مبتهجة: «الى أين

نذهب؟»، استدار السائق بشيابه الرثة المبهرجة وابتسم لها مسروراً.

قال إدوارد: «نحن متوجهان الى بابل، أظن اننا نستحق أخيراً يوم عطلة».

اشتغل المحرك محدثاً قرقعة صاخبة ثم اندفعت السيارة بجنون فوق الطريق المرصوفة بالحجارة الصلبة.

صرخت فيكتوريا: «الى بابل؟ كم يبدو هذا بديعاً. أحقاً نتوجه الى بابل؟».

اتجهت السيارة نحو اليسار حيث أخذت تسير فوق طريق واسعة ومعبدة.

- «أجل لا تنأمل كثيراً. بابل - إن كنت تفهمين ما أعني - لم تعد تماماً مثلما كانت».

همهمت فيكتوريا منشدة:

كم من الاميال تبعد بابل
ثلاث مسافات وعشر
هل استطيع ادراكها مع العشية
اجل والعودة ايضاً.

- «كنت أغني هذه الأغنية حين كنت طفلة. كانت تسحرني دوماً. والآن نحن نتوجه فعلياً الى هناك».

وسنعود مع العشية. وربما لن نفعل. في الواقع لا أحد يعلم ماذا يمكن أن يحدث في هذه البلاد.

السيارة تبدو على أقل تقدير وكأنما ستتفكك في أية لحظة.

سوف يحصل هذا بالتأكيد. لقد تأكدوا تماماً من عدم صلاحية أي شيء فيها. هؤلاء العراقيون يجيدون جداً تربيط وتحزيم كل شيء وترديد «إنشاء الله» وتنطلق السيارة من جديد.

دائماً «إنشاء الله» اليس كذلك؟».

- «أجل. لا شيء غير القاء المسؤولية على الرب المبجل».

- «الطريق ليست مريحة، اليس كذلك؟»، تلفظت فيكتوريا وهي تهتف فوق مقعدها. لقد خيبت الطريق الواسعة المعبدة أملها. كانت واسعة إلا أن السيارة كانت تتأرجح فوقها بفعل الأخاديد والحفر.

هتف إدوارد: «سوف تسوء أكثر لاحقاً».

كانا يتأرجحان ويقفزان مغتبطين. كان الغبار يرتفع حولهم كالسحب. شاحنات ضخمة محملة ومغطاة كلياً بالرجال العرب كانت تتقدم متمهلة في وسط الطريق وغير آبهة إطلاقاً لزعيق البوق الملح.

عبروا حداثق مسورة ومروا بمجموعات من النسوة والأولاد والحمير. كان كل هذا جديداً بالنسبة لفىكتوريا، وجزءاً من سحر رحلتها الى بابل بصحبة إدوارد.

وصلوا الى بابل منهكين بعد ساعتين من الازمزاز. وقد أصيبت فيكتوريا بخيبة أمل كاملة. فقد كانت تتوقع رؤية اعمدة وقناطر شبيهة بصور كانت قد شاهدها لقلعة بعلبك في لبنان. ولكنها لم تر في بابل سوى كتل من الوحل المفتت والطوب المحترق.

شيئاً فشيئاً تضاءلت خيبتها وهم يعبرون كتلاً ونتوءات من أحجار الطوب المحترقة، كانت تصغي بنصف أذن الى شروحات

السائق الغزيرة. لكن بينما كانوا يتقدمون عبر الطريق نحو باب عشتار، عاودها شعور طفيف بالاستكانة أمام مشهد الحيوانات العملاقة على الجدران. تملكها فجأة شعور العظمة الغابرة ورغبة داخلية بمعرفة أشياء عن هذه المدينة الشاسعة المتعالية التي تتمدد الآن ميتة ومتروكة.

وبانتهاء القسم السياحي من الرحلة، جلسا تحت أسد بابلي عملاق يتناولان طعام الغداء الخاص والذي أحضره إدوارد معه. ابتعد دليهما مبتسماً في تسامح وقال لهما في وقار انه ينبغي أن يزورا المتحف في وقت لاحق.

قالت فيكتوريا بنبرة حادة: «هل يتوجب علينا هذا؟» حين توضع الأشياء وترتب داخل علب تبدو لي غير حقيقية بعض الشيء. لقد زرت المتحف البريطاني مرة، لقد كانت الجولة كارثة ومنهكة للقدمين».

قال إدوارد: «الماضي دائماً ممل، المستقبل هو أهم بكثير».

– «هذا ليس مضجراً البتة» قالت هذا وهي تلوح بسانديش في اتجاه مجموعة متنوعة من أحجار الطوب المتداخلة. «هناك احساس بالعظمة هنا. ما هي تلك القصيدة؟»

«حين كنت ملكاً في بابل وكنت أنا جارية مسيحية؟» ربما كنا هكذا. أنت وأنا. أعني».

قال إدوارد: «لا أعتقد انه كان في بابل ملوك أيام المسيحية. أظن ان بابل انتهت في زمن ما قبل خمسمئة أو ستمئة سنة قبل الميلاد. غالباً ما يقدم علماء آثار على القاء محاضرات في هذا الشأن، لكنني أنسى دائماً التواريخ الدقيقة».

– «هل تغريك فكرة انك كنت يوماً ملكاً على بابل يا إدوارد؟»

تنفس إدوارد عميقاً.

— «أجل، بالتأكيد».

— «إذاً سنعتبر أنك كنت. وأنت اليوم متجسد من جديد».

قال إدوارد: «كانوا يعرفون آنذاك كيف يكونون ملوكاً. لهذا كانوا يستطيعون أن يحكموا العالم وينظموه».

قالت فيكتوريا متاملة: «لا أعرف إذا كنت أحب أن أكون جارية».

قال إدوارد: «لقد كان ميلتون على حق. «من الأفضل أن تحكم في جهنم على أن تخدم في الجنة». لقد أعجبت باستمرار بشيطان ميلتون».

قالت فيكتوريا بنبرة اعتذار: «لم استطع أبداً الاعجاب بميلتون. لكنني ذهبت وشاهدت «كوموس» في المسرح، ولقد كان العرض جميلاً، ورقصت مارغو فونتين مثل ملاك من الجليد».

قال إدوارد: «لو كنت جارية يا فيكتوريا. لكنك أحررك وأضملك الى حريمي - هناك»، مؤشراً من غير تحديد الى كتلة من الانقاض.

تلايلات عينا فيكتوريا وقالت:

— «ما دمنا نتحدث عن الحريم...».

سألها إدوارد بسرعة: «كيف تجري أمورك مع كاترين؟».

— «كيف عرفت أنني كنت أفكر في كاترين؟».

— «حسناً. كنت تغفلين، أليس كذلك؟ بصراحة يا فيكي أريدك أن

تصبحي صديقة لكاترين».

- «لا تدعني فيكي».

- «حسناً. مهما كان. أريدك أن تصادقي كاترين».

- «كم هم الرجال أغبياء! يريدون دوماً أن تحب صديقاتهم بعضهن بعضاً».

جلس إدوارد برشاقة. كان ممدداً ويداه خلف رأسه.

- «لقد فهمت كل شيء بشكل مغلوط. يا عزيزتي. على أية حال فإن ربط هذا الشيء بمسألة الحريم استنتاج ساذج بكل بساطة».

- «لا. ليس كذلك. ان الطريقة التي تتوجه فيها حولك أولئك الفتيات، وتوقعن اليك يسببان لي الجنون».

- «رائع»، قال إدوارد، «أحب أن تغضبي. لكن لنرجع الى كاترين. السبب الذي يدفعني الى أن أطلب إليك أن تصادقيها هو أنني واثق أنها السبيل الأفضل للاقتراب من كل ما نريد اكتشافه. انها تعرف شيئاً ما».

- «هل فعلاً تظن هذا؟».

- «هل تذكرين ماذا سمعتها تقول عن أنا شيل؟».

- «لقد نسيت ذلك».

- «كيف حالك مع كارل ماركس؟ هل من نتيجة؟».

- «لا أحد الى الآن حاول الاتصال بي أو دعوتي الى أي شيء. في الواقع أخبرتني كاترين البارحة ان الحزب لن يقبل بي، لاني لست مثقفة سياسياً كفاية. وفي الحقيقة يا إدوارد لا جلد لي على قراءة كل هذه الأشياء المكربة».

ضحك إدوارد قائلاً: «ليس لديك أي وعي سياسي، اليس كذلك؟»

يا فتاتي المسكينة. حسناً. حسناً. قد تكون كاترين مسعورة وذكية
وشديدة الوعي السياسي. لكنه، بالنسبة لي، من الأفضل أن تكون
سكرتيرة صغيرة ولكنها لندنية فاشلة لا تستطيع تهجئة كلمة من
ثلاثة أحرف».

ارتعدت فيكتوريا فجأة. لقد أعادت كلمات إدوارد الى ذاكرتها
الحديث المثير الذي تبادلته مع الدكتور راسبون. روت تفاصيل ما
جرى لإدوارد. بدا أكثر انزعاجاً مما توقعت.

- «هذا خطير يا فيكتوريا. مهم جداً.. حاولي أن تخبريني
بالضبط ماذا قال».

حاولت فيكتوريا أكثر ما في استطاعتها استرجاع الكلمات
نفسها التي استخدمها الدكتور راسبون.

قالت له: «لكني لا أفهم لماذا يزعجك هذا الأمر الى هذا الحد».

«إيه»، رد إدوارد مشدوهاً، «أنت لا تفهمين. لكن يا فتاتي
العزيزة ألم تدري ان هذا يدل على أنهم اكتشفوا أمر. أنهم
يحذرونك. لا يعجبني هذا البيت يا فيكتوريا».

توقف ثم قال بصوت وقور: «الشيوعيون، كما تعلمين قساة جداً.
إن جزءاً من عقيدتهم يقوم على عدم التردد أمام أي شيء. لا يريدون
أن يضربوك على رأسك ويرموك في دجلة يا حبيبتي».

فكرت فيكتوريا كم يبدو غريباً أن يكونا جالسَيْن بين انقراض بابل
يتناقشان عما إذا كان من المحتمل أن يطيحوا برأسها في المستقبل
القريب ويرموها في دجلة. مغمضة عينيها نصف اغماضة كانت
تفكر حالة: «سوف استفيق عاجلاً وأجد نفسي في لندن في منتصف

حلم مأساوي رائع عن بابل الخطيرة». ربما. خطر لها مغلقة عينيها نهائياً: «أنا الآن في لندن... وسوف يرن جرس المنبه قريباً. وسوف أستيقظ وأتوجه الى مكتب السيد غرينهولز. ولن يكون هناك أي إدوارد...».

وعند هذه الفكرة الأخيرة فتحت عينيها مجدداً بسرعة لتتأكد من أن إدوارد كان فعلياً معها (وماذا كنت سأسأله في البصرة وقوطعنا ونسيت) ولم يكن الأمر حلماً. كانت الشمس تسطع منهمة في بريق في طريقة لا علاقة لها بالنور اللندني. وكانت أنقاض بابل شاحبة تضيئها خلفية من أشجار البلح القائمة. وكان إدوارد يجلس وظهره مدار قليلاً نحوها. ما أروع كيفية انسياب شعره بتجاعيده الصغيرة فوق رقبتة - وكم كانت رقبتة جميلة - حمراء برونزية بفعل الشمس - من دون أية شوائب عليها - غالباً ما تكون رقاب الرجال مشوهة ببثور أو باحمرارات يسببها احتكاك ياقاتهم بالجلد - مثلما كان قد حدث لرقبة السير روبرت على سبيل المثال. كانت البثرة ملتبهة على وشك الظهور.

فجأة خمدت أنفاس فيكتوريا. أذهلتها المفاجأة فتسمّرت في مكانها وكأنما هي في حلم نهاريّ وعادتها أشياء من الماضي.

استدار إدوارد وتطلع اليها متسائلاً:

- «ما الأمر يا عزيزتي؟».

- «لقد تذكرت للتو»، انبرت فيكتوريا قائلة: «الأمر المتعلق بالسير كروفتون لي».

وبينما حدق فيها إدوارد في ذهول تابعت فيكتوريا محاولة

إيضاح الفكرة التي تود تفسيرها له بوضوح كامل.

قالت: «كان هناك بثرة على رقبتك».

قال إدوارد محتاراً: «حبّة على رقبتك؟».

- «أجل. لقد كان قاعداً على المقعد أمامي في الطائرة. تذكرت تلك القلنسوة التي كان يعتمرها. لقد سقطت عن رقبتك ورأيت تلك الحبّة».

- «ما يمنع أن تكون لديه حبّة على رقبتك؟ انها مؤلمة. لكنها تصيب الكثير من الناس».

- «أجل. أجل بالطبع هذا يحصل. لكن النقطة الأساسية انها لم تكن هناك حين جلس ذلك الصباح على الشرفة».

- «لم تكن! وماذا إذن؟».

- «لم تكن تلك الحبّة موجودة. آه يا إدوارد حاول أن تفهم. في الطائرة كانت الحبّة موجودة، وعلى شرفة فندق تيو لم تكن هناك. كانت رقبتك ناعمة وغير مشوّمة. مثل رقبتك الآن».

- «حسناً. أعتقد انها كانت قد شفيت».

- «آه. لا يا إدوارد، لم يكن هذا ليحصل. كان مضى يوم واحد فقط وكانت على وشك الظهور حين رأيته. لا يمكن أن تختفي - ليس من دون أي أثر. هل تفهم ماذا أقصد».

- «أجل - هذا يعني بالتأكيد - ان الرجل الذي كان في فندق تيو لم يكن أبداً السير روبرت».

هرّأت رأسها بعنف وحدّقت فيها إدوارد.

- «أنت مجنونة يا فيكتوريا. لا بد وأنه كان السير روبرت. هل لاحظت أي اختلاف آخر فيه؟».

- «لكنك لا تفهم يا إدوارد، أنا لم أنظر إليه أبداً بدقة - نظرت فقط الى - حسناً - يمكنك أن تقول الى مظهره كاملاً. القبة، المعطف الفضفاض وسلوكه المتعالي. أقول ان استبدال شخص مزيف به أمر في غاية السهولة.

- «ولكن في السفارة. لقد عرفوا انه هنا...».

- «انه لم يمكث في السفارة، أليس كذلك؟ لقد جاء الى فندق تيو. لقد استقبله موظف صغير أو آخرون لم يروه من قبل. السفير موجود في انكلترا. الى جانب هذا فهو يسافر باستمرار وبقي وقتاً طويلاً خارج انكلترا».

- «ولكن ما السبب؟...».

- «بسبب كارمايكل بالطبع. كان كارمايكل قادماً الى بغداد لمقابلته - ليخبره ماذا اكتشف. ولم يكونا قد التقيا من قبل. وهكذا لم يعرف كارمايكل انه لم يكن الرجل الحقيقي. ولم يأخذ حذره منه. وهكذا فإن كارمايكل هو الذي طعن السير روبرت كرفتون لي (المزيف) آه يا إدوارد. كل هذا منطقي».

- «أنا لا أصدق أي كلمة من هذا. انه جنون. ثم لا تنسي أن السير روبرت قتل لاحقاً في القاهرة».

- «هناك حصل كل شيء. لقد عرفت الآن. آه يا إدوارد كم هذا بشع. لقد تصورت حدوثه».

- «تتصورين ما حدث يا فيكتوريا، أنت مجنونة كلياً».

- «لا، لست مجنونة البتة. اسمعني فقط يا إدوارد. لقد قرع بابي في فندق هيليوبوليس - أو هكذا خيل لي على الأقل فقممت وتطلعت ولكن لم يكن ذلك الطرق على بابي. وإنما على باب المجاور لي. باب غرفة السير روبرت كروفتون لي. لقد كانت إحدى المضيفات. طلبت اليه أن يحضر الى مكتب شركة الطيران عند آخر الممر. خرجت من غرفتي بعد وقت قليل من ذلك. عبرت الباب حيث وضعت إشارة مكتب الطيران. انفتح الباب وخرج السير روبرت. ظننت في حينه انه تلقى خبراً غير سار جعله يسير بطريقة مختلفة. هل تفهم يا إدوارد؟. لقد كان فحاً. كان البديل بانتظاره، وعلى أتم الاستعداد. ما إن دخل ضربوه على رأسه وخرج البديل في الحال ولعب دوره. أظن انهم احتفظوا به في القاهرة، ربما في الفندق بالذات أو أي مكان آخر. أبقوه مخدراً ثم قتلوه في الوقت المناسب عندما عاد البديل الآخر الى القاهرة».

- «إنها قصة رائعة»، قال إدوارد، «ولكن بصراحة يا فيكتوريا اعتقد انك لفقت كل هذه القصة. لا براهين فيها».

- «هناك الحبة».

- «آه. اللعنة على الحبة».

- «وهناك شيء أو اثنان آخران».

- «ماذا؟».

- «إشارة شركة الطيران على الباب. لم تكن هناك لاحقاً. لقد فوجئت حين اكتشفت ان مكتب شركة الطيران كان في مكان آخر قرب باحة مدخل الفندق. هذا أمر. وهناك أمر آخر. مضيفة الطيران تلك التي طرقت باب السير روبرت. لقد شاهدتها في وقت لاحق

- هنا في بغداد - وماذا بعد - في مركز «غصن الزيتون» بالذات،
أول مرة قمت بزيارة المركز. لقد أتت وتحديثت مع كاترين. خطر لي
يومها ان كنت شاهديتها من قبل».

بعد دقيقة صمت قالت فيكتوريا:

- «لذلك يجب ان تعترف يا إدوارد اني لم أتخيل كل هذا».

قال إدوارد متمهلاً:

- «كل هذا يعيدنا مجدداً الى «غصن الزيتون» - وإلى كاترين.
تبدو الامور معقدة يا فيكتوريا. ينبغي ان تتقربي من كاترين أكثر.
امدحيها، وافقيها ناقشها في الافكار البولشفية. حاولي بطريقة ما
ان تصبح علاقتكما حميمة لتتعرفي الى اصدقائها والامكنة التي
تذهب اليها والى الذين تتصل بهم خارج «غصن الزيتون»».

قالت فيكتوريا: «لن يكون هذا سهلاً. لكني سأحاول. ماذا في
شأن السيد داكين؟ هل ينبغي ان اطلعه على هذا؟».

«أجل بالطبع. لكن انتظري يوماً أو اثنين. قد نكتشف أشياء
أخرى». وتنهد إدوارد متابعاً، «سوف اصطحب كاترين الى ملهى
«لوسيلكت» لنشاهد عرضاً ما في ليلة ما».

هذه المرة لم تشعر فيكتوريا بأية غيرة. لقد قال إدوارد ذلك
بتصميم جدي مستبعداً أي هدف مبطن لمتعة شخصية.

- ٢ -

مبتهجة باكتشافاتها، لم تجد فيكتوريا في اليوم التالي أية

صعوبة في الترحيب بكاترين ببشاشة وود. رددت ان كاترين كانت لطيفة جداً بإطلاعها على مكان تستطيع فيه غسل شعرها الذي كان في أمس الحاجة الى غسيل (كان لا يمكن مناقشة ذلك، إذ انها كانت عادت من بابل وأصبح شعرها أحمر بفعل غبار الرمحل الحمراء بلون الصدا.

- «ان منظره يبدو مخيفاً. هذا صحيح». أجابت كاترين وهي تحديق في فيكتوريا بخبت. «لقد خرجت إذن البارحة بعد الظهر وسط عاصفة رملية؟».

قالت فيكتوريا: «لقد استأجرت سيارة وزرت بابل. كانت الرحلة مثيرة. لكننا تعرضنا في طريق العودة لعاصفة رملية ولقد صُدمت وكدت أفقد نظري».

- «هذا مثير. قمت بزيارة بابل. لكن كان ينبغي أن تذهبي مع مرافق لكي يشرح لك عن المكان بوضوح. أما بالنسبة لشعرك، فسوف آخذك الى تلك الفتاة الأرمنية هذا المساء. سوف تغسله بالشامبو. انه الأفضل».

قالت فيكتوريا: «لا أعرف كيف يمكنك أن تحافظي على رونق شعرك بهذا الشكل». كانت تنظر متصنعة. الاعجاب الى خصل شعرها الدبقة بالإفرازات الشحمية القبيحة.

ارتسمت ابتسامة على وجه كاترين المتجهم عموماً وراود فيكتوريا: «كم كان إدوارد على حق حين تحدث عن الاطراء»!

حين غادرتا «غصن الزيتون» تلك العشية كانت الفتاتان على وفاق تام. كانت كاترين تجتاز المعابر والأزقة الضيقة الى أن قرعت أخيراً على باب لا إشارة عليه لأي صالة تزيين أو ما يشابه.

استقبلتهما امرأة شابة بدت كفوءة وتحدثت بانكليزية بطيئة محترسة، ثم قادت فيكتوريا صوب حوض نظيف جداً وحوله حنفيات لماعة وكذلك مجموعة من زجاجات سائل الشامبو والسوائل الأخرى. غادرت كاترين وسلّمت فيكتوريا كتلة شعرها الى يدي الأنسة أنكوميان الرشيقتين. وسرعان ما تحول شعرها الى كتلة كبيرة من رغوة الصابون.

- «والآن إن كنت تسمحين....».

انحنى فيكتوريا فوق الحوض. كان الماء ينساب فوق رأسها ثم يكرر منزلقاً داخل فتحة التفريغ.

فجأة أفعم أنفها بعنف برائحة طيبة أو على الأصح مَرْضِيَّة ذكّرتها بشكل غير واضح برائحة المستشفيات. أحكمت ضمادة مبللة ومشبعة الاطباق على أنفها وفمها. قاومت بشراسة ملتوية ومنتفضة، غير أن القبضة الحديدية أبقت الضمادة في مكانها. بدأت تختنق، كان رأسها يدور بفعل الدوخة. وسمعت زئيراً عظيماً...

وبعد ذلك كان السواد عميقاً، وحالكاً جداً.

الفصل الثامن عشر

حين استعادت فيكتوريا وعيها أحست بمضيّ وقت شاسع. اضطربت في داخلها ذكريات مشوشة: اهتزازات في سيارة - ثرثرة وشجار بالعربية - أضواء سُلطت الى عينيها - غثيان مريع - ثم تذكرت بغموض انها تمددت على فراش وان أحدهم رفع ذراعها - ثم وخز إبرة موجه - ثم أحلام أكثر تشويشاً وعمّة ووراء كل هذا شعور متعاظم بالعجلة...

والآن تماسكت قليلاً - فيكتوريا جونز... شيء ما حدث لفىكتوريا جونز - منذ وقت طويل - أشهر - وربما سنوات... في النهاية، ربما منذ أيام.

بابل - الشمس - غبار - شعر - كاترين، كاترين أجل بالطبع. مبتسمة. عيناها الخبيثتان تحت خصلات شعرها القذرة. لقد ذهبت برفقتها لتغسل شعرها وبعدها - ماذا حدث؟ - الرائحة المريعة - انها لا تزال تشمها - مثيرة للغثيان - بالطبع انه الكلوروفورم - لقد خدروها بالكلوروفورم واختطفوها - إلى أين؟..

حاولت فيكتوريا الجلوس بحذر. بدا وكأنها متمددة على فراش - فراش قاس جداً. كان رأسها يؤلمها وشعرت بالدوخة. كانت

لا تزال نعسى، نعسى بشكل مربع... تلك الإبرة. إبرة. كانوا يحقنونها بالمخدر. كانت لا تزال نصف مخدرة.

حسناً. على أية حال لم يقتلوها، (لماذا لم يفعلوا)، إذن كان كل شيء حسناً. فكرت فيكتوريا ان افضل ما يمكن أن تفعله بما انها لا تزال نصف مخدرة هو النوم. وهكذا استسلمت له على الفور.

حين استفاقت مجدداً شعرت ان حالة رأسها كانت افضل. كان الوقت نهاراً واستطاعت الآن أن ترى بشكل افضل حيث كانت.

كانت داخل غرفة صغيرة ولكن مرتفعة مدهونة بلون رمادي مخضر كثيب. كانت الأرضية مجرد تراب مرصوص. كان الأثاث يتألف من السرير الذي استلقت عليه وبطانية متسخة ملقاة فوقها، طاولة صغيرة وطشت مطلّي فوقها. كان هناك نافذة بإطار خشبي. نهضت فيكتوريا بصعوبة من الفراش وكانت تشعر بألم طفيف في رأسها وبتوعك غريب، ودنت من النافذة. استطاعت أن تنظر عبر خشب النافذة المزخرف. رأت حديقة وخلفها أشجار نخيل. كانت الحديقة جميلة شرقية الطابع. احتوت نباتات من القطيفة برتقالية اللون، وأشجار أوكالبتوس مغبرة، وأشجار من نوع الطرفاء.

كان هناك ولد موشوم الوجه باللون الأزرق، كان يقفز في المكان متلاعباً بكرة ويرثم بأنفه نحيباً أشبه بصوت مزمار قصي.

التفتت فيكتوريا نحو الباب. كان كبيراً وضخماً. اقتربت منه وحاولت من دون أمل فتحه. كان الباب مقفلاً. رجعت وجلست الى طرف الفراش.

أين كانت؟ لم تكن في بغداد. كانت متأكدة. وما الذي ستفعله بعد هذا؟

خالجها بعد دقيقة شعور ان السؤال لم يكن مناسباً. كان السؤال الصحيح هو ماذا سيفعلون بها؟ ثم تذكرت مع ألم هزلي في معدتها توصية السيد داكين لها بالاعتراف بكل ما تعرفه. لكن ربما كانوا حصلوا على اعترافها بينما كانت لا تزال تحت تأثير المخدر.

على أية حال - عادت فيكتوريا مجدداً الى هذه النقطة بالذات بتصميم بهيج - كانت ما تزال حية ترزق. لو استطاعت البقاء على قيد الحياة الى أن يجدها إدوارد - ماذا سيفعل إدوارد حين يكشف انها اختفت؟ هل سيتوجه الى السيد داكين؟ هل سيتصرف بمفرده؟ هل سيهدد كاترين ويرغمها على الاعتراف؟ هل سيشتبه بكاترين؟ وأكثر من هذا حاولت فيكتوريا أن تتخيل صورة مطمئنة لردة فعل إدوارد. وهي تفعل ذلك، كانت صورة إدوارد تتوارى الى أن أصبحت مجردة. هل كان إدوارد ذكياً كفاية؟ هذا ما خلصت اليه في الواقع. كان إدوارد فاتناً. كان جذاباً. لكن هل هو ذكي؟ لأنه حسبما رأت من جراء ما أصابها فإن المسألة كانت في حاجة الى حذاقة.

السيد داكين في مطلق الأحوال ملك الحذاقة المطلوبة. ولكن هل سيتحرك بزخم من أجلها؟ أم انه سيشطب اسمها من الدفتر بكل بساطة أو يكتب وراءه «فلترقد بسلام». في النهاية لم تكن بالنسبة للسيد داكين سوى مجرد رقم بين جمهور كبير. لا لم تكن تتصور ان السيد داكين سيقوم بتنظيم عملية لانقاذها. على أية حال لقد كان قد أُنذرها.

والدكتور راسبون أُنذرها أيضاً. (أُنذرها أم هدهدها؟) وحين

رفضت التهديد سرعان ما قاموا بتنفيذه...

لكنها لا تزال على قيد الحياة، رددت فيكتوريا هذا مصممة على تبني الوجهة الايجابية للأمر.

اقتربت خطوات في الخارج، وبعد حرتقة مفتاح في القفل الخارجي الصدى، انزاح الباب وانفتح. ظهر من الفتحة رجل عربي. كان يحمل صينية عليها صحون.

كان يبدو منشراحاً، وراح يغمغم بلا مبالاة. لفظ بعض الملاحظات غير المفهومة بالعربية. وفي النهاية وضع الصينية، فتح فمه وأشار الى داخل حلقه وعاد ادراجه مقفلاً الباب خلفه.

اقتربت فيكتوريا من الصينية باهتمام. كان هناك صحن كبير من الارز وشيء يشبه وجبة الملفوف وقطعة كبيرة من الخبز العربي. وايضاً جرة ماء مع كوب من الزجاج.

بدأت فيكتوريا بشرب كوب من الماء ثم انقضت على الارز والخبز والملفوف الذي كان محشواً بقطع لحم متميزة الطعم. حين أنهت كل ما كان على الصينية شعرت ان حالها أفضل بكثير.

حاولت جاهدة ان تحلل الأمور بشكل أوضح. لقد خدّرت وخطفت، كم مضى على ذلك؟ بالنسبة لهذا الأمر لم تكن واثقة على الإطلاق. من الذكريات المشوشة عن صحواتها وغفواتها تصوّرت ان الفترة لم تتجاوز بضعة أيام. لقد أخرجوها من بغداد - إلى أين؟ هنا ايضاً لم تستطع ان تعرف. ولما كانت تجهل العربية لم يكن في الامكان أن تطرح أي سؤال. لم تكن تستطيع تحديد المكان أو الزمان.

تبع هذا عدة ساعات من الضجر القاتل.

عند العشيّة عاد سجّانها مع صينية أخرى من الطعام. حضرت معه هذه المرة امرأتان. ارتدتا ثوبين أسودين وكانتا محجّبتين. لم تدخلتا الغرفة بل وقفتا خارج الباب. كانت واحدة تحمل طفلاً بين ذراعيها. وقفت هناك تضحك. عبر شفافية حجابيهما رأت أعينهما تقومانها؛ كان الأمر مثيراً بالنسبة اليهما ومضحكاً أيضاً. هكذا شعرتا تجاه وجود امرأة انكليزية سجيّة هناك.

حدثتهما فيكتوريا بالانكليزية وبالفرنسية لكنهما أجابتا بالضحك. خطر لها انه أمر شاذ أن لا تستطيع التواصل مع كائنات من جنسها. تلفظت ببطء وبصعوبة إحدى الجمل التي كانت قد حفظتها:

– «الحمد لله».

كوفئت بفيض بهيج من الكلمات العربية. كانتا تهزان رأسيهما بمودة. تقدمت فيكتوريا نحوهما، ولكن الرجل العربي تراجع وقطع عليها الطريق. أشار الى الامراتين أن تتراجعا ثم خرج هو نفسه مغلقاً ومقفلاً الباب من جديد. قبل أن يفعل هذا، لفظ كلمة واحدة عدة مرات: «بُكرا، بُكرا...».

هذه الكلمة كانت فيكتوريا قد سمعتها من قبل، كانت تعني غداً.

جلست فيكتوريا على السرير تسترجع كل ما جرى.

غداً؟ غداً سيأتي أحد ما، أو سيحصل شيء ما! غداً ستنتهي فترة سجنها (وربما لا؟) – ولو انتهت فقد تنتهي هي أيضاً! موجزة كل ما حصل لها، لم تعد فيكتوريا مهتمة بما سيحصل نهار الغد.

حدست انه سيكون افضل لو أصبحت في الغد في مكان آخر.
لكن هل كان هذا معقولاً؟ وللمرة الأولى انتبهت لهذه المسألة
باهتمام. اقتربت من الباب وتفحصته. وبالطبع لم يكن أي شيء
ينفع معه. لم يكن قفله من النوع الذي يستطيع ملقط شعر خداعه.
هذا لو كانت تستطيع فتح مطلق قفل بملقط شعر، وكانت تشك
بقدرتها على ذلك.

بقيت النافذة. كانت النافذة كما اكتشفت بسرعة احتمالاً ممكناً.
كانت الزخرفة الخشبية الواقية آخر دفاع لها. ولو نجحت كلياً في
تحطيم الخشب العفن هذا والتسلل منه، فلن تستطيع تحقيق ذلك
من غير احداث ضجة كبيرة سوف تلفت اليها الانتباه بالتأكيد.
إضافة الى هذا كانت الغرفة حيث سجنتم في الطابق العلوي، وكانت
تحتاج الى حبل أو ما يشابه أو ستضطر الى القفز ويحتمل أن
تصاب من جراء هذا بكسر أو بالتواء في كاحلها. فكرت فيكتوريا
انهم في الروايات يصنعون حبلاً من الشراشف وهكذا نظرت بريية
الى بطانياتها السميكة القطنية والى حرامها البالي. لم يبد أي منهما
صالحاً لخدمة هدفها. لم يكن لديها ما تقطع أو تقص به البطانية،
وعلى الرغم من انها كانت تستطيع تمزيق الحرام فقد فكرت انه كان
من الممكن نظراً لحالته العفنة، أن يتمزق تحت وطأة ثقلها.

- «اللعة»، هتفت فيكتوريا بصوت مرتفع.

شغفت بفكرة الفرار أكثر وأكثر. كان سجانوها كما تخيلت اناساً
بسطاء يعتبرون انه بمجرد اقفال الباب ينتهي الأمر. لن يعتقدوا
أبداً انها ستهرب لسبب بسيط للغاية وهو انها سجينه ولن تستطيع
ذلك. ذاك الذي خذرها وربما نقلها الى هنا لم يكن في هذا المكان

الآن - وهذا كان أكيداً. كان يتوقع حضوره أو حضورها «بكرا». لقد تركوها في مكان ناء تحت حراسة أناس محليين بسطاء قد ينفذون الأوامر ولا يستجيبون أبداً للرقعة. ولم يكونوا حسب تقديرها واعيّن لمأساة فتاة أوروبية خائفة من الموت. حدثت فيكتوريا نفسها قائلة: «سوف أخرج من هنا».

قربت الطاولة وبدأت تتناول الطعام الجديد الذي أحضر لها. يجب أن تحافظ على قوتها أيضاً. كان هناك أرز وبضع برتقالات وبعض قطع اللحم في صلصة برتقالية اللون.

التهمت فيكتوريا كل شيء ثم شربت جرعة من الماء. وبينما كانت تضع الجرة على الطاولة اهتزت ووقع قليل من الماء على الأرض، فأصبحت الأرضية حيث سقط الماء على الفور بقعة من الوحل السائل. وهنا لمعت على الفورة الفكرة في دماغ الأنسة فيكتوريا جونز.

كان السؤال. هل ترك المفتاح في القفل الخارجي من الباب؟

كانت الشمس تغيب. عاجلاً ستكون عتمة. تقدمت فيكتوريا نحو الباب، ركعت وحذقت داخل ثقب المفتاح الواسع. لم تر أي نور. ما كانت تحتاجه الآن هو أي شيء لتلكز به المفتاح - قلماً أو رأس قلم من الرصاص. لقد أخذوا حقيبتها. تطلعت في الغرفة عابسة. لم تجد شيئاً مناسباً غير ملعقة ضخمة على الطاولة. لم تكن تلك تنفع لغرضها، إلا أنها قد تنفع في وقت لاحق. جلست فيكتوريا تحلل وتخطط. فجأة هلكت منتفضة. انتزعت حذاءها ونزعت عن جوفه الغطاء الجلدي. لفته جيداً. أصبح قاسياً إلى حد معقول.

عادت وتوجهت نحو الباب. ركعت وحشرت اللِّفَّة الجلدية في ثقب المفتاح. لحسن حظّها كان المفتاح الضخم غير مشدود داخل القفل. بعد ثلاث أو أربع دقائق استجاب لمجهودها وسقط أمام جهة الباب الخارجية. أحدث وهو يسقط ضجة قليلة على الأرضية الترابية.

فكرت فيكتوريا انه ينبغي عليها الآن أن تسرع قبل أن تظلم كلياً. أحضرت الجِرة وسكبت قليلاً من الماء في موضع تحت الباب خَمَّنت انه الأقرب الى المكان الذي كانت توقعت أن يكون سقط فيه المفتاح. ثم راحت تحفر بالملعقة وبأصابعها في البقعة الموحلة. شيئاً فشيئاً وبمساعدة مياه إضافية من الجرة استطاعت أن تحفر فجوة صغيرة تحت الباب. تمددت وحاولت التحديق عبرها لكن لم يكن سهلاً رؤية أي شيء. رفعت كمّها ووجدت انها تستطيع تمرير ذراعها تحت الباب. جعلت تتلمس بأصابعها وأخيراً لمست برؤوس أصابعها حجماً معدنياً. لقد عثرت على المفتاح لكنها لم تتمكن من مطّ ذراعها أكثر لالتقاطه. كان عليها أن تنتزع دبوساً كان يمسك شريط صدريتها. ثم جعلت تحاول التقاطه من جديد بواسطة الدبوس، ولما كانت على وشك أن تصرخ من الغيظ، أمسك الدبوس المفتاح وتمكنت من سحبه الى مستوى أصابعها، ثم جرّته عبر الحفرة الموحلة اليها.

بقيت فيكتوريا راكعة متأملة حذاقتها بإعجاب. أمسكت المفتاح بيديها الموحلتين وأدخلته في القفل. وانتظرت دقيقة وعندما بدأ كورس من الكلاب في الجوار نباحه أدارته. فأحدث الباب أزيزاً وهي تدفعه فانفتح قليلاً. تلصصت فيكتوريا بحذر عبر الفتحة. كان

وراء الباب غرفة أخرى صغيرة وباب مشرع عند نهايتها. انتظرت قليلاً ثم قطعتها منسلّة على رأس أصابعها. كان في هذه الغرفة فجوتان واسعتان في سقفها وواحدة أو اثنتان في أرضيتها. الباب الذي عند نهاية الغرفة كان يؤدي الى قمة درجات من الطوب كانت مرصوفة الى جانب المنزل وكانت تؤدي بالتالي الى الحديقة.

هذا ما رغبت فيكتوريا في رؤيته. عادت وتوجهت على رؤوس أصابع قدميها الى غرفة سجنها. لم يكن هناك أي احتمال بعودة أي كان لزيارتها الليلة. سوف تنتظر حتى يصبح الوقت ليلاً وتنام القرية أو البلدة وعندها ستنتقل.

لاحظت شيئاً آخر. كان هناك قماشة سوداء مكوّمة أمام الباب الخارجي. قدرت انها عباءة قديمة وستكون مفيدة لها لإخفاء زيّها الأودوبي.

لم تعرف فيكتوريا كم من الوقت انتظرت. خالتها ساعات لامتناهية. في النهاية خمدت كل الأصوات البشرية المحلية. توقف زعيق الاغاني العربية في الغراموفون أو الفونوغراف البعيد. لم تسمع لا أصوات شجار ولا بصاق ولا ضحك نساء بعيديات وأيضاً لا صراخ أطفال.

ما سمعته فقط كان عواء قصياً افترضت انه لثعالب، واندلاعات مفاجئة لنباح كلاب كانت أيقنت انها ستتابع معظم الليل.

وقفت فيكتوريا وقالت: «حسناً، هيا بنا!».

بعد برهة من التفكير أقفلت باب سجنها من الخارج وتركت المفتاح في القفل. ثم تحسست طريقها عبر الغرفة الخارجية،

انتشلت العبادة السوداء وخرجت الى قمة الدرجات. كانت ليلة مقمرة لكن القمر كان لا يزال منخفضاً. كان ضوءه كافياً لكشف طريقها. تدرّجت هابطة الدرجات. ثم توقفت قبل أربع درجات من نهايتها. كانت هنا بمستوى الجدار الطوبي المحيط بالحديقة. لو تابعت هبوط الدرجات لكان يتوجب عليها العبور الى جانب المنزل. استطاعت أن تسمع شخيراً في الغرف السفلية. ولو تابعت سيرها فوق حافة الجدار الخارجي لكان ذلك أفضل. كان الجدار سميكاً كفاية لتمشي فوقه.

اختارت الجدار وانسلت بخفة وحذر حيث انعطف في اتجاه اليمين ليدخل حديقة من أشجار النخيل، وينتهي هناك. شقت فيكتوريا طريقها هناك قافزة حيناً ومهولة حيناً آخر. كانت تشق طريقها بين شجرات النخيل حتى وصلت الى فتحة داخل جدار عند نهاية الشجرات. حين مرت من الفتحة وجدت نفسها في شارع ضيق وبدائي وأضيق من أن تقطعه سيارة، غير أنه يصلح بالتأكيد للحمير. اندفعت تجري بين الجدران الطوبية الموحلة. أسرعت فيكتوريا بكل ما أوتيت من قوة.

بدأت الكلاب تعوي مسعورة. انطلق كلبان من أمام باب واعترضا طريقها. تناولت عن الأرض حجارة وقذفتها بها. نباح ثم هربا. ركضت فيكتوريا مجدداً. لفّت منعطفاً ووصلت الى طريق بدا واضحاً انه الطريق الرئيسي. كان ضيقاً وقاسياً من كثرة الوطء. كان يمتد عبر قرية من البيوت الطينية التي بدت شاحبة تحت ضوء القمر. كانت أشجار النخيل منحنية فوق الحيطان وكانت الكلاب تنبح وتئن. تنفست فيكتوريا عميقاً وركضت. تابعت الكلاب تعوي،

لكن هذا لم يلفت انتباه أي مخلوق بشري في هذه الليلة الساكنة. بعد وقت قليل أطلّت على مساحة واسعة وعلى مجرى موحل - ارتفع فوقه جسر محدودب. قطعت فيكتوريا كل الطريق وتابعت الى حيث ظهرت مساحة لا متناهية - تابعت تركض حتى انقطعت انفاسها.

كانت القرية قد اصبحت الآن بعيدة وراءها. وكان القمر قد ارتفع في السماء، الى يسارها، يمينها وأمامها كانت الأرض صخرية جرداء. أرض غير مزروعة ولا علامة لأي سكن فوقها. لم تكن فيها أي نقطة ارتكاز ولم تعرف فيكتوريا الى أي اتجاه كانت تتقدم. ولم تكن تفقه بمسألة النجوم. كانت هذه المساحة الجرداء الشاسعة مثيرة للخوف ولكن العودة كانت مستحيلة. لم تكن تستطيع سوى المتابعة.

توقفت بضع دقائق لتسترجع انفاسها ولتطمئن متلثة الى الخلف فلربما اكتشفوا قريبا. وتابعت سائرة لمسافة ما يقارب الأربعة أميال باتجاه المجهول.

طلع الفجر أخيراً وكانت فيكتوريا منهكة، متورمة القدمين وعلى حافة الهستيريا. حين رأت اتجاه انبعاث النور تأكدت انها كانت تتوجه نحو الجنوب الغربي. وكونها لم تكن تفقه الى أين تتوجه لم تكن لهذه المعرفة أية قيمة.

على مسافة قليلة من السبيل الذي تبعته ارتفعت تلة أو هضبة صخرية صغيرة. انعطفت فيكتوريا وتوجهت نحو التلة التي كانت جنباتها حادة وتسلقها حتى القمة.

هناك تمكنت من رؤية كل المنطقة المحيطة، وتضاعف بذلك لديها الشعور المخيف بالضياع. لم يكن هناك أي شيء في أي اتجاه...

كان المنظر جميلاً تحت ضوء الفجر الباكر. تلوّنت الأرض والمدى
بظلال ضعيفة بلون المشمش والورد. كان المنظر جميلاً ومخيفاً في
آن واحد. خطر ليفيكتوريا: «أعرف الآن ماذا يعني أحدهم حين
يقول انه وحيد في العالم...».

لم تشاهد سوى بقعة قليلة من العشب وبعض الأشواك
المتيسسة، وغير ذلك لم تكن هناك أية مزروعات، أو دلائل حياة.
كانت هناك فقط فيكتوريا جونز.

لم تظهر أمام نظرها اطلاقاً القرية التي كانت قد هربت منها.
الطريق الذي سلكته توارى الى اتساع من الأرض البوار. لم تصدق
فيكتوريا انها اجتازت كل هذه المسافة. لبرهة راودتها نزعة أن تعود
ادراجها، لتكون بين البشر بشكل أو بآخر.

تماسكت. لقد كانت قررت الفرار. ونجحت في ذلك، غير أن
مشاكلها لم تنته في بساطة بمجرد انها ابتعدت أميلاً عن سجانيتها.
في وسع أي سَيّارة مهما كانت قديمة ومتداعية أن تقطع هذه
الأميال في وقت قصير. ما إن يكتشفوا فرارها، سوف ينطلق أحد ما
في إثرها.. فكيف بحق السماء ستختبئ. في بساطة لم يكن هناك
أي مكان للإختباء. كانت لا تزال تحمل العباءة السوداء الرثة.
لفتها عليها ورفعتها لتغطي وجهها. لم تعرف كيف بدت فيها إذ
لا مرآة في الجوار. إن خلعت حذاءها وجوربها ومشيت حافية ربما
لن يلحظ أحد اختلافها. لم يكن أحد يجروُ على اعتراض امرأة
محجبة مهما كانت ملابسها رثة أو فقيرة. كانت بمنتهى العار أن
يتحرش أي رجل بها. ولكن هل سيخدع تنكرها هذا العيون الغربية

التي ستنتشر بحثاً عنها في سيارات. في مطلق الأحوال كان هذا أملها الوحيد.

كانت تستطيع الاختباء خلف التلة وبهذا تكون اُحتجبت عن عابري الطريق.

من جانب آخر، كانت تريد بأي ثمن العودة الى المدينة، ولم تكن من وسيلة لتحقيق ذلك سوى أن تستوقف سيارة لأوروبيين وتطلب اليهم نقلها.

كانت منهكة تماماً. وكانت عطشى جداً ولكن تحقيق ذلك يبدو مستحيلاً الآن وأفضل ما يمكن أن تفعله هو الاستلقاء الى جانب التلة. وهناك تستطيع سماع اقتراب السيارة وتستطيع أيضاً أن ترى من في داخلها.

لكن كيف ستعرف أن أولئك الأوروبيين ليسوا أعداءها. كيف بحق الله ستأكد من ذلك؟

غفت فيكتوريا من شدة الاعياء لطول المسافة التي قطعتها وهي تفكر بقلق في هذه المسألة بالذات.

حين استفاقت كانت الشمس فوقها مباشرة. شعرت بالحر والعطش وبالدار. إلا أن عطشها كان هو الأشد وطأة. مهممت فيكتوريا، وما إن لفظت الهمهمة حتى تسمرت وأنصتت. سمعت ضجيجاً ضئيلاً انما متميزاً لاقتراب سيارة. رفعت رأسها بحذر. لم تكن السيارة قادمة من اتجاه القرية بل نحوها. هذا يعني انها لم تكن تطاردها. كانت تراها مجرد نقطة سوداء بعيدة. بقيت مستلقية

ومحتجبة قدر المستطاع، وراقبت السيارة تقترب. كم تمنّت لو كان في حوزتها منظار مكبر.

اختفت السيارة لدقائق قليلة في منخفض، ثم ظهرت مجدداً متسلقة هضبة قريبة قليلة الارتفاع. كان سائقها عربياً وجلس الى جانبه رجل في لباس غربي.

فكرت فيكتوريا: «الآن يجب أن أقرر»، هل كانت هذه فرصتها؟ هل ينبغي أن تركض الى الطريق وتستوقف السيارة؟

لحظة كانت تستعد لتفعل هذا، استوقفها ارتياح مفاجيء. لنفترض. لنفترض فقط ان هذا كان العدو؟

في النهاية، كيف كان لها أن تحذر؟ كانت تلك الطريق مقفرة جداً. لم تعبرها أية سيارة أخرى. ولا شاحنة. ولا حتى قافلة من الحمير. قد تكون هذه السيارة متوجهة الى القرية التي غادرتها في الأمس...

كيف ستتصرف؟ كان القرار فظيلاً وكان ينبغي أن تتخذه في غضون لحظات. لو كان هذا العدو فستكون النهاية. لكن ان لم يكن العدو فقد تكون هذه فرصتها الأخيرة للبقاء على قيد الحياة. لأنها لو تابعت تشردها هذا فقد تموت من العطش، من الشمس. ماذا كان ينبغي أن تفعل؟

وبينما تكورت مشلولة القرار حوّلت السيارة المقتربة مسارها. خففت سرعتها، ثم انعطفت لتخرج من الطريق وتتقدم نحو التلة الصخرية التي كانت تختبئ وراءها.

لقد شاهدوها! كانوا يبحثون عنها!

انزلت فيكتوريا فوق الأخدود ثم زحفت الى خلف التلة هرباً من السيارة المقتربة.. سمعتها تصل وتتوقف ثم صفق الباب بعد أن خرج منها أحدهما.

تلفظ بعدها أحد ما كلاماً بالعربية. بعد ذلك لم يحدث مطلق شيء. وفجأة ومن دون انذار ظهر أمامها رجل. كان يتمشى حول التلة عند وسطها تقريباً. كان محدقاً في الأرض وكان يتوقف بين الوقت والآخر منتشلاً شيئاً ما. ومهما كان الشيء الذي يبحث عنه، فهو ليس بالتأكيد فتاة تدعى فيكتوريا جونز. إضافة الى ذلك كان انكليزياً من دون أدنى شك.

تنفست فيكتوريا الصعداء وجهدت لتقف على قدميها واقتربت اليه. رفع رأسه وحدق فيها متفاجئاً.

«آه أرجوك» قالت فيكتوريا، «أنا سعيدة انك أتيت».
بقي مشدوهاً.

قال: «بحق السماء، هل أنت انكليزية؟ لكن».
ضاحكة خلعت فيكتوريا عنها العباءة.

قالت: «بالطبع أنا انكليزية. وأرجوك، هل تستطيع أن تعيدني الى بغداد؟».

- «لست متوجهاً الى بغداد. لقد جئت منها لتوي. ولكن ماذا تفعلين بحق الله هنا وحيدة في وسط الصحراء؟».

قالت فيكتوريا مقطوعة الأنفاس: «لقد اختطفوني، لقد توجهت لأغسل شعري، فخذروني بالكلوروفورم، وحين استيقظت وجدت نفسي في منزل عربي في قرية هناك وراء هذا الاتجاه».

- «في مندالي؟».

- «لا أعرف اسمها. لقد هربت ليلة أمس. لقد مشيت طوال الليل ثم اختبأت وراء هذه التلة حسببت انك أنت العدو».

كان مخلصها يحدق فيها وعلى وجهه ارتسمت تعابير الغرابة. كان رجلاً في الخامسة والثلاثين من العمر تقريباً، وافر الشعر وفي وجهه كبرياء ظاهر. كان حديثه أكاديمياً ومقتضباً. وضع الآن نظارتين وحدق فيها عبرهما في انزعاج. عرفت فيكتوريا ان هذا الرجل لم يصدق كلمة واحدة من قصتها.

انتفضت على الفور في سخط.

قالت: «ما أخبرتك صحيح. كل كلمة فيه حقيقية».

وبدا الرجل الغريب غير مصدق أكثر من أي وقت سبق.

قال في برودة، «هذا مميّز جداً».

توقفت فيكتوريا يائسة. كان ما يحصل غير منصف. كانت تنجح دائماً في جعل أكاذيبها قابلة للتصديق، في حين كانت تفشل باستمرار في سرد الحقائق بأسلوب مقنع. كانت تروي الأحداث الحقيقية بطريقة سيئة.

- «إن كنت لا تحمل معك ماء للشرب فسوف أموت من العطش»، وأضافت، «سأموت من العطش في مطلق الأحوال ان تركتني هنا وغادرت من دوني».

قال الرجل الغريب بجديّة: «بالتأكيد لن أفعل هذا حتى في الحلم. ليس بالأمر الملائم البتة أن تتجول امرأة انكليزية في البراري. يا للهول ان شفتيك مشققتان بشكل فظيع... يا عبد الله».

- «ماذا يا صاحبي؟».

أطل السائق من خلف التلة.

تلقى السائق الأمر بالعربية وعجل، وعاد بعد قليل من السيارة حاملاً «ترمس» ماء وكوباً صغيراً.

شربت فيكتوريا الماء بشراهة.

- «أوو»، وقالت: «هذا أفضل».

قال الرجل الانكليزي: «اسمي ريتشارد بايكر».

ردت فيكتوريا:

- «اسمي فيكتوريا جونز». ثم في محاولة لاسترجاع مصداقيتها الضائعة، وللاستبدال إشارة انتباهه بعدم تصديقه لها بشكل محترم. أضافت:

«باونسفوت جونز. أنا في طريقي للالتحاق بعَمِّي الدكتور باونسفوت جونز في موقع تنقيباته».

قال بايكر محدقاً فيها في ذهول: «يا للمصادفة الخارقة. أنا أيضاً في طريقي لأنقّب بنفسي. إن المكان يقع على بعد خمسة عشر ميلاً من هنا. لقد كنت الشخص المناسب لإنقاذك، اليس كذلك؟».

سيكون أمراً لطيفاً لو قلنا ان فيكتوريا تفاجأت بهذا. لقد صدمت كلياً، الى درجة انها لم تستطع التفوه بكلمة واحدة. تبعت ريتشارد خانعة وصامته الى السيارة وركبتها.

قال ريتشارد بعد أن جلس على المقعد الخلفي. الى جانب

اعتدته: «أعتقد انك عالمة آثار. سمعت انك قادمة لكني لم اتوقع حضورك في هذا الفصل».

وقف وجعل يخرج من جيوبه أجزاء أنية فأدركت فيكتوريا انها كانت تلك الأشياء التي التقطها فوق التلة.

ابتسم وقال لها: «انها تلة أثرية. أنا سعيد لأن مشاكلك لم تمنع حسك بالتنقيب من تفحص التلة».

فتحت فيكتوريا فمها ثم أغلقتها من جديد. أدار السائق السيارة وانطلقوا من جديد.

على أية حال ماذا في وسعها أن تقول؟ صحيح، انها ستنفذ ما أن يصلوا إلى مكان التنقيب. غير أن هذا أفضل من أن ينفذ أمرها للسيد بايكر في وسط اللامكان. يمكنها هناك أن تبتكر أعذاراً مبررة ادعاءها. أسوأ ما قد يفعلون بها سيكون ارجاعها الى بغداد. في مطلق الأحوال، فكرت فيكتوريا انها قد تستطيع اجترار تبرير ما قبل وصولها الى هناك. وتحركت مخيلتها على الفور. فقدان ذاكرة؟ هل تدعي هذا. لا، لقد فضلت مصارحة الدكتور باونسفوت جونز بالحقيقة.

قال السيد بايكر: «لن نمر مباشرة في مندالي سوف نحول في طريق داخل الصحراء تبعد قرابة الميل عنها. يصعب أحياناً الوصول الى الأمكنة بدقة من دون مساعدة نقاط ارتكاز معينة».

ثم توجه محدثاً عبدالله وتحول هذا الأخير بالسيارة الى خارج الطريق واندفع مباشرة داخل الصحراء. كان ريتشارد يشير الى عبدالله من غير أن تكون هناك أمامهم أية شارات: توجه إلى

اليمين - الى اليسار. بدا ريتشارد مرتاحاً.

قال: «توجّه الى الطريق يمينا».

لم ترفيكتوريا أي طريق، لكنها لمحت بتقطع آثار عجلتي سيارة.
حين انبرى أمامهم أثر واضح لعجلتين هتف ريتشارد وأمر
عبدالله بالتوقف.

- «هذا مشهد مهم يا فيكتوريا. خصوصاً لك: بما انك جديدة
في هذه البلاد لا بد وانك لم تشاهديه من قبل».

كان رجلان يقتربان في اتجاه السيارة من ناحية الأثر. كان
أحدهما يحمل مقعداً خشبياً على ظهره، وحمل الآخر شكلاً خشبياً
كبيراً يشبه البيانو.

لوح لهما ريتشارد بيده. حيّاه الاثنان بكل ما أتيح لهما من
علامات تهليل. قدم لهما ريتشارد السجائر وكان اللقاء أشبه
باحتراف.

ثم استدار ريتشارد متحولاً نحوها:

- «هل تحبين السينما؟ إذن سوف تشاهدين استعراضاً».

ثبّتا المقعد وأشارا لفيكتوريا ولريتشارد أن يجلسا عليه ثم ركزا
اختراعهما الخشبي الشبيه بالمنصة. كان يحتوي ثقبين مستديرين
وما إن رأت فيكتوريا هذا حتى صرخت:

- «انه يشبه الأشياء التي نراها على الارصفة البحرية. انه
صندوق الفرجة».

قال ريتشارد: «بالضبط. لكن من النوع البدائي».

الصقت فيكتوريا احدى عينيها بالعدسة الزجاجية. بدا احد الرجلين يحرك ذراع تدوير وراح الآخر يغني بطريقة تردادية أحد الألحان.

سألت فيكتوريا: «ماذا يقول؟».

راح ريتشارد يترجم لها بينما استمر الرجل يغني:
- «اقترب وهىء نفسك للسحر والبهجة. استعد لترى عجائب الدهر».

رات فيكتوريا صورة شبه ملونة لزنوج يحصدون القمح.

فسر لها ريتشارد مترجماً: «فلاحون في أميركا».

ثم توالى الصور:

- «زوجة الشاه الأعظم في بلاد الغرب. الامبراطورة أوجيني.
صورة قصر الملك في مونتني نيفرو. صورة المعرض الكبير».
توالى مجموعة كبيرة وغريبة من الصور. كلها غير مترابطة
ومفسرة بطريقة عجيبة:

الأمير كونسور، ديسرايلي، متزحلقون نرويجيون وسويسريون في
الماضي الغابر.

وأنهى زجل الاستعراض عرضه بالكلمات التالية:

«ونحن نعرض عليك اعاجيب وروائع الدهر من البلاد البعيدة،
فلتكن عطايك كريمة لتتناسب مع العجائب التي شاهدتها. لأن كل
هذه الأشياء صحيحة».

حين انتهى العرض، امتلأت فيكتوريا بهجة، وقالت: «لقد كان هذا بديعاً، شيء لا يصدق!».

كان صاحباً السينما الجواله يبتسمان بفخر. نهضت فيكتوريا عن المقعد فوقع ريتشارد الذي كان يجلس على الطرف الآخر منه على الأرض بطريقة مذلة. اعتذرت فيكتوريا لكنها لم تقسد بهجتها. كافأ ريتشارد رجلي السينما وودعهما وهما شاكران.

ركب ريتشارد وفيكتوريا السيارة مجدداً وابتعد الرجلان في الصحراء.

سألت فيكتوريا: «إلى أين يتوجهان؟».

- «انهما يجولان عبر كل البلاد. لقد التقيتهما أول مرة في الأردن وقد وصلوا مروراً بالبحر الميت. في الواقع، انهما متوجهان الى كربلاء. لكنهما يسلكان طرقاً فرعية لتقديم عروض في قرى نائية».

- «لو يقوم أحد ما بتوصيلهما».

ضحك ريتشارد.

- «أعتقد انهما لن يقبلا».

- «عرضت على رجل عجوز يوماً شيئاً من هذا القبيل فرفض شاكراً. كان يقطع الطريق بين البصرة وبغداد مشياً على القدمين. كان يرغب في الوصول بعد شهرين وكان المشي يناسبه تماماً. لا معنى للوقت هنا. انها قناعة مريحة».

- «أجل، اتخيل هذا».

- «لا يستطيع العرب أن يفهموا سبب تسرعنا لإنجاز أعمالنا. وطريقتنا في الدخول مباشرة الى الموضوع في الحوار يعتبرونها قلة تهذيب. يجب أولاً أن تتحدثي حوالى الساعة في مواضيع عامة - وان أردت يمكنك أن لا تتكلمي أبداً».

- «قد يكون هذا بمنتهى الشذوذ لو فعلنا هذا في المكاتب في لندن. انها مضيعة للوقت».

- «أجل ولكننا نعود هنا الى الموضوع الأساسي، ما هو الوقت؟ وما هي المضيعة؟».

فكرت فيكتوريا لبضع دقائق بهاتين النقطتين. كانت السيارة تتابع التقدم الى المجهول وبثقة كاملة.

قالت أخيراً: «أين يقع هذا المكان؟».

- «تلّ أسود»، انه في وسط الصحراء. سوف ترين الزكّورة بعد قليل. في هذا الوقت انظري نحو اليسار. هنالك هنالك حيث أشير».

سألت فيكتوريا: «هل هذه غيوم؟ لا يمكن أن تكون جبالاً!».

- «أجل انها جبال. جبال كردستان المكلفة بالثلج. يمكنك أن تريها فقط حين يكون الطقس صافياً».

خالج فيكتوريا شعور بهيج أشبه بالحلم. لو كانت فقط تستطيع المتابعة هكذا الى ما لا نهاية. لو لم تكن تلك الكاذبة البائسة. لقد خافت كطفل سوف يؤنب بعد قليل. كيف سيكون الدكتور باونسفوت؟ طويلاً بلحية بيضاء ومتجهماً. لا يهم في مطلق الاحوال لقد استطاعت سابقاً العيش مع كاترين وايضاً مع الدكتور راسبون.

قال ريتشارد: «ها قد وصلنا».

اشار الى نقطة أمامهم وحاولت فيكتوريا التحديق بعيداً في الأفق.

- «يبدو بعيداً جداً؟».

- «آه، لا، انه يبعد فقط بضعة أميال».

وبالفعل اقتربا بسرعة منه وبدت تلة كبيرة. الى جانبها ظهر بناء متدرج من الآجر.

قال ريتشارد: «هنا منطقة التنقيبات».

توقفا وسط نباح الكلاب وأحاط بهما خدم لاستقبالهما بابتسامات.

بعد تبادل التحيات قال ريتشارد:

- «من الواضح انهم لم يتوقعوا وصولك في هذا الفصل. لكنهم سيعدون لك فراشك، وسيحضرون لك مياهاً ساخنة. اظن انك في حاجة للاستحمام والراحة. الدكتور جونز موجود الآن فوق التلة. سوف أصعد اليه. عبدالله سيهتم بأمرك».

ابتعد ريتشارد وتبعته فيكتوريا عبدالله المبتسم الى داخل المنزل. كان الداخل معتماً في البداية بسبب انتقالها السريع من شمس الخارج. وصلت الى غرفة صغيرة فيها شباك صغير. فراش وصندوق بجوارير وطاولة مع جرة ماء وطشت وكربي. ابتسم عبدالله واحضر لها طشتاً من المياه الساخنة، ومنشفة سميكة. ثم ابتسم معتذراً وعاد بمرآة صغيرة وركزها على مسمار في الحائط.

فرحت فيكتوريا لأنه تسنى لها الاستحمام واكتشفت كم كانت منهكة ومتسخة.

حدثت نفسها قائلة: «أعتقد اني أبداً مخيفة»؛ وكانت تقترب من المرأة.

لداقائق حدثت في هيئتها مذهولة.

لم تكن هي. لم تكن فيكتوريا جونز.

ثم أدركت أن تلك الملامح الدقيقة كانت لفكتوريا جونز لكن شعرها الآن أشقر بلاتينياً!

الفصل التاسع عشر

- ١ -

عثر ريتشارد على الدكتور باونسفوت جونز في مركز التنقيب. كان يتنقل قرب معاونيه ويحفر بريشة من حديد فوق أحد الجدران.

حيًا الدكتور باونسفوت جونز زميله بشكل طبيعي.

- «أهلاً يا بني ريتشارد لقد وصلت أخيراً. ظننت أنك ستصل الثلاثاء. لست أعرف لماذا؟».

قال ريتشارد: «اليوم هو الثلاثاء».

قال الدكتور باونسفوت بلا مبالاة: «أهذا صحيح؟. تعال اقترُب وقل لي ما رأيك في هذا. لقد اكتشفنا جدارين متينين ولم نحفر بعد سوى ثلاثة أقدام. يبدو أن هناك آثار طلاء هنا. تعال انظر وقل لي ما رأيك. يبدو الأمر واعدًا».

ركع ريتشارد فوق الحفر وراح العالمان يتحدثان في اهتمام لمدة ربع ساعة.

قال ريتشارد أخيراً: «بالمناسبة. لقد أحضرت معي فتاة».

- «آه. حقاً؟ أي نوع من الفتيات؟».

- «تقول انها ابنة شقيقك».

- «ابنة شقيقي؟». فكر الدكتور باونسفوت متذكراً وجاهداً
لتحرير دماغه من هوس الآثار. «لا أظن ان لدي ابنة شقيق». قال
هذا محتاراً كما لو انه كان لديه واحدة ونسي كل ما يتعلق بشأنها.

- «لقد جاءت لتعمل معك هنا كما فهمت».

- «آه. بالطبع انها فيرونیکا».

- «أظنها قالت انها تدعى فيكتوريا».

- «أجل. أجل فيكتوريا. لقد بعث لي بشأنها إمرسون رسالة من
جامعة كامبردج. انها فتاة قديرة كما فهمت».

- «سمعت انك تتوقع وصول عالمة آثار شابة».

- «لم أسمع عنها شيئاً حتى الآن. نحن بالكاد بدانا بالطبع.
فهمت انها لن تأتي قبل فترة. لكنني لم أقرأ رسالتها جيداً، ثم
أضعتها لذلك لا أذكر جيداً ماذا كتبت فيها. ستصل زوجتي بعد
أسبوع. أو أسبوعين. أين يا ترى وضعت الرسالة. وأظن أن
فينيسيا كانت قادمة معها. قد أكون فهمت بشكل مغلوط. حسناً،
قد تستطيع مساعدتنا في مطلق الأحوال. سوف نعثّر على عدد كبير
من الاواني».

- «هناك شيء مريب بشأنها؟».

- «مريب؟»، حذق الدكتور باونسفوت فيه، «ماذا تقصد؟».

- «أهي تعاني من انهيار عصبي؟ أو أي شيء من هذا القبيل؟».

- «لقد أخبرني إمرسون كما أذكر انها كانت تحضّر بجهد لنيل

شهادة الدبلوم. لكن لا اعتقد انه أشار الى انهيار عصبي. لماذا تقول هذا؟».

- «في الواقع لقد التقطها في مكان ما هنا على الطريق كانت تتجول بمفردها. هناك عند التلة».

قال الدكتور باونسفوت: «أذكر تلك التلة. كنت اكتشفت بعض الأجزاء من آنية «نوزو» هناك. هذا غريب».

لم يرغب ريتشارد أن يتحوّل الحديث الى الآثار وقال بحزم:

- «لقد روت لي قصة مجنونة. قالت انها توجهت لغسل شعرها، وانهم خدروها واختطفوها الى قرية مندالي وسجنوها في بيت. ثم هربت في منتصف الليل إنها إحدى أغنى قصص الخيال التي سمعتها في حياتي».

هز الدكتور باونسفوت رأسه متعجباً.

قال: «لا يبدو هذا قابلاً للتصديق. هذه البلاد هادئة جداً، وآمنة. لا يوجد أكثر أماناً إطلاقاً».

- «بالضبط. لا بد انها تخيلت كل هذا. لهذا سألت إن كانت تعرضت سابقاً لأي انهيار عصبي. أظن انها إحدى الفتيات المجنونات اللواتي يدعين ان كهاناً أغرموا بهن، وان أطباء اغتصبنوهن، سوف تسبب لنا الكثير من المتاعب».

قال الدكتور باونسفوت بتفاؤل: «أظن انها ستهدأ الآن، أين هي في الوقت الحاضر؟».

قال متردداً: «لقد تركتها تستحم وتسرح شعرها. إنها لا تحمل أية حقائب».

- «لا تحمل ملابس؟ انها حقاً خرقاء. اهي تتوقع أن تستعير مني بيجامتها. ليس لدي سوى اثنتين. واحدة منهما ممزقة».

- «سوف نتصرف بقدر الامكان حتى وصول الشاحنة في الأسبوع المقبل. اني أتساءل ماذا كانت تفعل هناك وحيدة وتائهة في الصحراء».

قال الدكتور باونسفوت جونز: «ان الفتيات مدهشات في أيامنا هذه. يقلبن الامكنة رأساً على عقب حين يرغبن في تحقيق امر ما. آه. لقد توقف الرجال عن العمل. انه وقت الغداء. من الأفضل أن أعود الى المنزل».

- ٢ -

فيكتوريا التي كانت منتظرة ومذعورة، وجدت ان الدكتور باونسفوت مختلف تماماً عما تخيلته. كان رجلاً قصيراً ممتلئ الجسم، نصف أصلع. كانت عيناه تشعان ذكاء. فوجئت وهي تراه يتقدم نحوها ماداً ذراعه لمصافحتها.

- «أهلاً أهلاً يا فينيسيا - أقصد فيكتوريا. هذه مفاجأة سارة. لقد اعتقدت انك قادمة الشهر القادم. لكني سعيد برؤيتك. كيف حال إمرسون؟ كيف حاله مع الربو؟

استرجعت فيكتوريا تماسكها بسرعة وقالت انه على ما يرام.

قال الدكتور باونسفوت جونز: «انه يغطي عنقه كثيراً. هذا خطأ كبير. لقد قلت له ذلك. هؤلاء الأكاديميون يتسمرون داخل الجامعة

ويصبحون مهوسين في كل ما يتعلق بصحتهم. لا يجب التفكير في هذا. هكذا نبقى أصحاء. حسناً أرجو أن تستقري بشكل جيد. ستصل زوجتي بعد أسبوع أو اثنين. لقد كانت متوعدة. ينبغي أن أبعث إليها رسالة. أخبرني ريتشارد أنك فقدت متاعك. كيف ستصرفين؟ لا أستطيع أن أرسل الشاحنة قبل الأسبوع القادم؟» - «أظن اني أستطيع تدبر الأمر حتى ذلك الوقت. في الواقع أنا مجبرة».

همهم الدكتور باونسفوت.

- «لا نستطيع ريتشارد وأنا أن نعيرك أشياء كثيرة. ربما فرشاة أسنان. هناك دزينة في المستودع. وكنزة من الصوف. وبعض الجوارب والمحارم. لا شيء أكثر».

قالت فيكتوريا وهي تبتسم فرحة: «سأتدبر أمري».

قال الدكتور باونسفوت محذراً: «لم نجد لك بعد أية مقبرة. لقد اكتشفنا بعض الجدران. سوف نشغلك بطريقة ما. نسيت ان كنت تلتقطين صوراً فوتوغرافية؟».

قالت فيكتوريا بحذر وقد شعرت بارتياح لدى ذكر عمل تستطيع القيام به: «لدي بعض المعرفة في هذا».

- «جيد. جيد. هل تستطيعين تظهير الأفلام؟ أنا من الطراز القديم. ما زلت أستخدم الصفائح المعدنية. غرفة التظهير السوداء بدائية. كل الشبان الذين اعتادوا استخدام أدوات متطورة غالباً ما يجدون هذا الأسلوب البدائي كارثة».

أجابت فيكتوريا: «أنا لا أمانع».

أحضرت فيكتوريا من مستودع البعثة فرشاة ومعجون أسنان،
وإسفنجة.

كان رأسها لا يزال عاصفاً بالأفكار وحاولت أن تفهم بالضبط
وضعها، كان من الواضح انهم اعتقدوا انها فتاة أخرى تدعى
فينيسيا كانت قادمة لتشارك في التنقيب بكونها عالمة آثار. لم تكن
فيكتوريا تعرف حتى ماذا يعني «علم الآثار». لم يكن هناك قاموس
لترى. الفتاة الأخرى لن تصل ربما قبل أسبوع. جيد جداً. لمدة
أسبوع سوف تنتحل شخصية فينيسيا سينغامي حتى تتوجه
الشاحنة أو السيارة الى بغداد. لم تخف من الدكتور باونسفوت
وبدا لها ذا طباع غريبة إنما بطريقة إيجابية. لكن ريتشارد بايكر
أثار أعصابها. كرهت الطريقة المدعية التي كان ينظر اليها فيها
وراودها انه سيكشف ادعاءاتها ان هي لم تأخذ حذرهما منه. لحسن
الحظ كانت عملت لفترة قصيرة في لندن كسكرتيرة لمؤسسة أبحاث
أثرية وكانت تعرف الى حد ما المعجم المستخدم في هذا المجال. لكن
يجب أن تنتبه لزلّات لسانها. فكرت فيكتوريا ان الرجال ولحسن
الحظ يتعاملون بعنجهية مع النساء وان أي غلطة سترتكبها لن
تقابل بشكوك من قبلهم، بل كدليل جديد عن مدى غبائهن
وتشوشهن!

هذه الفترة ستكون لها بمثابة فترة نقاهة وكانت في حاجة ماسة
الى هذا. فكرت ان غيابها الطويل هذا سيكون مربكاً من وجهة نظر
«غصن الزيتون». لقد فرّت من سجنها ولكن ماذا فعلت بعدها وهذا
أمر سيصعب عليهم جداً اكتشافه. لم تعبر سيارة ريتشارد
ماندالي، وهكذا لن يحزر أحد انها الآن في تل أسود. لا، من وجهة

نظرها هي، لقد اختفت فيكتوريا كلياً. سوف يستنتجون بالتأكيد انها ماتت. انها تاهت في الصحراء وماتت من الإعياء.

حسناً فليعتقدوا هذا. وللأسف سوف يعتقد إدوارد هذا أيضاً! جيد جداً سوف يتحمل هذا. في مطلق الأحوال لن يتوجب عليه أن يحتمله طويلاً. ستعود اليه فجأة من بين الأموات وستنهي شقاءه وندمه كونه هو الذي جعلها تتقرب وتنخرط في مجتمع «غصن الزيتون». إلا أنها ستعود شقراء بدلاً من سمراء.

وهذا جعلها تفكر في السر الذي جعلهم يصبغون شعرها. لا بد من سبب لكنها عجزت عن إدراكه. كانت تفكر الآن انها ستبدو عجيبة حين ستنمو جذوره السوداء. شقراء مزينة دون بودة على الوجه ولا أحمر شفاه! هذا أسوأ ما قد يحصل لفتاة. لا يهم، أنا على قيد الحياة اليس كذلك؟ ولا أجد مانعاً من التمتع بهذا - على الأقل لمدة أسبوع. أمر ممتع أن تكون مع بعثة تنقيب ومشاهدة ما يحصل. هذا لو استطاعت فقط الحفاظ على سرها.

لم تجد دورها سهلاً. ينبغي أن تنتبه عند الحديث عن أي شيء يتعلق بعلم الآثار. لحسن الحظ كان المستمع الجيد موضع تقدير على الدوام. استمعت فيكتوريا بكل إصغاء للرجلين وشيئاً فشيئاً التقطت كل المفاتيح بسهولة.

جعلت تقرأ بجنون وهي وحيدة في المنزل. كان هناك مكتبة جيدة معظمها عن الآثار. كانت تختار المواضيع اللافته، وعلى عكس ما توقعت وجدت الحياة هنيئة معهم. كانوا يحضرون لها الشاي صباحاً. كانت تساعد ريتشارد في التصوير. يجمعان قطع الاواني ويلصقناتها. تراقب عمل الرجال وتمدح براعتهم. تستمتع بغناء

ومزاح الأولاد الذين كانوا يركضون لتفريغ جعبهم من التراب في الحفرة. أصبحت تعرف جيداً مواقيت العمل، المستويات المختلفة التي كان يجري فيها الحفر، وإضافة الى ذلك تنقيبات السنة الفائتة. لم يشرح لها أي من الكتب التي قرأتها كيف يمكن أن تعمل كعالة آثار. خطر لها أنها لو عثرت على عظام أو قبر فسوف ترتعد من الخوف. أو في أحسن الاحتمالات ستصاب بالصفراء وستنقل الى الفراش.

لكن لم تظهر أية قبور. لم يظهر سوى جدران قصر. كانت فيكتوريا مبهورة ولم تضطر الى استعراض أية خبرة أو ميزات خاصة.

ريتشارد بايكر لم يتوقف عن النظر إليها في فضول بين وقت وآخر. وكانت تحس بعدم رضاه الصموت. لكن سلوكه معها كان محبباً ولطيفاً وقد استمتعت بالفعل.

قال لها في أحد الأيام: «كل هذا جديد بالنسبة اليك كونك قادمة من انكلترا. أذكر كم كنت مندهشاً حين جئت للمرة الأولى». - «منذ متى كان هذا؟».

ايتم.

- «في الحقيقة منذ وقت طويل خمس عشرة. لا، ست عشرة سنة».

- «لا بد أنك تعرف هذه البلاد جيداً».

- «آه. ليس هنا فقط. سوريا وإيران أيضاً».

- «أنت تتكلم العربية جيداً اليس كذلك؟ لو لبست زيهم قد إخالك واحداً منهم؟».

هز رأسه غير موافق.

- «آه لا. هذا في حاجة الى ميزات أخرى. أشك ان في استطاعة أي انكليزي النجاح في ذلك. على الأقل ليس قبل مضي وقت طويل».

- «ولورنس؟»

- «لا أظن ان لورنس استطاع أبداً اعطاء هذا الانطباع. لا. الرجل الوحيد الذي أظن انه ليس في الامكان تمييزه عن أهل البلاد الأصليين هو رجل ولد في الواقع في هذه الأنحاء. كان والده قنصلاً في قشغروفي أماكن ناشئة أخرى. انه يستطيع التحدث بكل ضروب اللهجتين المحلية والهجينة ومذ كان صغيراً. أظن انه احتفظ لاحقاً بهذه القدرات».

- «ماذا حدث له؟».

- «لم أره إطلاقاً بعدما غادرنا المدرسة. كنا في المدرسة معاً. كان يدعو نفسه فقيراً لأنه كان يستطيع القعود من دون أدنى حركة وأن يغيب في نشوة غريبة. لا أعرف ماذا يفعل الآن - وإنما يمكن ان أتكهن بأنه....».

- «ألم تشاهده أبداً بعد المدرسة؟».

- «قد يكون هذا عجبياً، لكنني صادفته مؤخراً. كان ذلك في البصرة. لقد كان ما حدث في منتهى الغرابة».

- «غريباً، كيف؟».

- «أجل. لم اعرفه. كان يضع كوفية عربية ويرتدي ثوباً مقلماً

وأيضاً سترة كاكية عسكرية قديمة. كان يحمل سبحة من الخرز وكان يقطع بحباتها بأسلوب لافت. في الواقع كان يستخدم شيفرة عسكرية. شيفرة المورس. كان يقطع رسالة. رسالة إلي!..

- «ماذا قال؟».

- «اسمي، أو بالأحرى لقبى - وإيضاً لقبه. ثم اشارة لي بالاستعداد لأن هناك خطراً ما محققاً».

- «وهل حدثت أية مشكلة؟».

- «أجل. حين نهض وانطلق في اتجاه الباب، انتشل تاجر هادىء لا يثير الشبهات مسدساً. اندفعت ولويت ذراع هذا الأخير وهرب كارمايكل».

- «كارمايكل؟».

أدار رأسه بسرعة لدى سماعه نبرتها.

- «هذا كان اسمه الحقيقي. لماذا. هل تعرفينه؟».

فكرت فيكتوريا في نفسها - كم سيكون شاذاً لو قلت: «لقد مات في سريري».

- «أجل»، قالت ببطء «لقد عرفته».

- «عرفته؟ ماذا - هل؟».

هزت رأسها موافقة.

- «أجل»، قالت، «لقد مات».

- «متى مات؟».

- «في بغداد. في فندق تيو». وأضافت بسرعة، «لقد طمست الحادثة. لا أحد يعرف كيف».

أطرق رأسه في تمهل.

- «فهمت. لقد كانت مسألة سرية. لكن أنت كيف...» نظر إليها، «كيف عرفت؟».

- «لقد تورطت في القصة... بالصدفة».

حدق فيها متفحصاً.

سألت فيكتوريا فجأة:

- «هل كانوا يلقبونك في المدرسة لو سيفر؟».

فوجيء بالسؤال وأجاب:

- «لا. ليس لو سيفر. كانوا يدعونني اليوم. لأنني كنت أرتدي دائماً نظارات لَماعة».

- «هل تعرف أحداً يدعى لو سيفر في البصرة؟».

هز ريتشارد رأسه نافياً.

- «لو سيفر ابن الصباح - الملاك الساقط».

قالت فيكتوريا: «أتمنى لو تخبرني بالضبط ماذا حدث في البصرة؟».

- «لقد أخبرتك».

- «لا. اعني أين كنت أنت حين جرى هذا الحادث؟».

- «آه، فهمت. في الواقع كنت في غرفة انتظار في القنصلية. كنت

أنتظر لأقابل السيد كلايتون، القنصل».

- «ومن كان هناك غيرك؟ ذلك التاجر وكارمايكل؟ هل كان هناك أحد آخر؟».

- «كان هناك اثنان آخران. رجل فرنسي أو سوري أسمر نحيل، ورجل عجوز، إيراني».

- «لقد رفع التاجر مسدساً وأنت أمسكته. ثم هرب كارمايكل، كيف حدث ذلك؟».

- «توجه أولاً نحو مكتب القنصل. انه الى الناحية الأخرى من المعبر في الحديقة».

استوقفته قائلة:

- «أعرف. لقد أقيمت هناك لمدة يوم أو اثنين. في الواقع بعد أن تركت أنت مباشرة».

- «أهذا صحيح؟». ومرة جديدة حدق فيها جيداً. لكن فيكتوريا لم تنتبه لهذا. كانت ترى الرواق الطويل في القنصلية الذي يفتح على الشجرات الخضراء ونور الشمس.

- «حسناً. كما كنت أقول. تقدم كارمايكل الى ذاك الاتجاه أولاً. إلا أنه استدار فجأة واندفع في الاتجاه الآخر الى الشارع الخارجي. وكانت تلك آخر مرة أراه فيها».

- «وماذا في شأن التاجر؟».

هز زيتشارد كتفيه بلا مبالاة.

- «أذكر انه لفق قصة فحواها انه تعرض لسرقة في الليلة

السابقة وانه اشتبه بالرجل العربي، واعتقد انه كان سارقه. لم أسمع بعدها أي شيء عن الموضوع لأنني سافرت الى الكويت».

سألت فيكتوريا: «من كان يسكن في القنصلية وقتذاك؟».

- «كان هناك رجل يدعى كروسبي: أحد تجار النفط. ولا أحد آخر. آه. أجل. أظن انه كان هناك شخص آخر كان قدم من بغداد. لكنني لم ألتقه أبداً. ولا أذكر اسمه».

- «كروسبي؟». فكرت فيكتوريا. وتذكرت الكابتن كروسبي وشكله القصير والبدين وحديثه المنفر. رجل عادي جداً. لقد عاد الى بغداد ليلة قدوم كارمايكل الى فندق تيو. هل امتنع كارمايكل عن دخول مكتب القنصل لأنه رأى كروسبي أمامه في الممر. هل استدار بسببه فجأة وتوجه الى الطريق بدل أن يتابع نحو مكتب القنصل؟ كانت تفكر في هذا مأخوذة بعض الشيء. ثم شعرت ببعض الذنب حين تطلعت ورات ريتشارد يحدق فيها في انتباه.

سألها: «لماذا تريد أن تعرفي كل هذا؟».

- «مجرد فضول».

- «هل من أسئلة أخرى؟».

سألت فيكتوريا:

- «هل تعرف أحداً يدعى لوفارج؟».

- «لا. لا أعتقد هذا. هل هو رجل أم امرأة؟».

- «لا أعرف».

كانت تتساءل في شأن كروسبي. كروسبي؟ لو سيفر؟

هل لو سيفر يساوي كروسيبي؟

ذلك المساء بعدما قالت فيكتوريا «مساء الخير» وتوجهت الى سريرها، قال ريتشارد للدكتور باونسفوت جونز:

- «أود أن ألقى نظرة على رسالة إمرسون. أود أن أعرف بالضبط ماذا كتب عن هذه الفتاة».

- «بالطبع يا عزيزي. بالطبع. انها في مكان ما هنا. لقد كتبت بعض الملاحظات على المغلف كما اذكر. لقد اوحى بقدراتها المتميزة. أراها فتاة رائعة - بمنتهى الروعة. غريبة هي الطريقة التي تحدثت بها بلا مبالاة عن فقدائها حقيبتها. أي فتاة غيرها كانت ستصر على التوجه توأ الى بغداد لشراء ثياب جديدة. ان روحها رياضية. على فكرة كيف جرى ان فقدت حقيبتها».

- «لقد خدّرت واختلطت وسجنت في بيت عربي»، رد ريتشارد من دون اهتمام.

- «رباه. رباه. أجل لقد أخبرتني. اذكر الآن. كل هذا غير واقعي. هذا يذكرني بشيء - بماذا؟ آه. أجل. بيليزابيث كانينغ طبعاً. انت تذكر لقد لفقت حين غابت فترة قصة في منتهى الغرابة. عن عجر وأشياء مستحيلة. وكانت فتاة بسيطة. لا اعتقد انها كانت على علاقة برجل. والآن لدينا الصغيرة فيكتوريا، أو فيرونيكا - أعجز عن حفظ اسمها انها جميلة لافته. لا بد ان هناك رجلاً ما في مسألتها».

- «كانت ستبدو أجمل لو لم تصبغ شعرها»، قال ريتشارد بحدة.

- «هل تصبغه فعلاً؟ كم أنت عليم بهذه المسائل».

- «ماذا بشأن رسالة إمرسون يا سيدي...؟».

- «طبعاً.. طبعاً. لا أذكر أين وضعتها، يمكنك أن تبحث في كل مكان. أنا في حاجة أيضاً إليها لأنني كتبت عليها بعض الملاحظات».

الفصل العشرون

اثناء ما بعد ظهيرة اليوم التالي لفظ الدكتور باونسفوت جونز عبارات استهجان وهو يسمع اقتراب سيارة. رآها تترك وراءها غباراً كثيفاً عابرة الصحراء في اتجاه التل.

قال في احتدام: «زوار، وفي أسوأ الأوقات أيضاً. كنت سأتوجه للإشراف على تحليل الطلاء المستخرج من الحفرة. انهم بالتأكيد بعض الأغبياء القادمين من بغداد بحمولة من الثروة، ويتوقعون أن نجول بهم فوق كل بقعة التنقيب».

قال ريتشارد: «يمكننا في هذه الحالة أن نستفيد من مواهب فيكتوريا».

- «هل تسمعين يا فيكتوريا؟ لقد اخترتك لتقودي الجولة في المكان».

قالت فيكتوريا: «قد أقول أشياء مغلوطة. ليست لدي خبرة كبيرة كما تعرف».

قال ريتشارد ممازحاً: «أظن أنك ستنجحين في القيام بهذا. ملاحظتك هذا الصباح في شأن الأجر كانت وكأنها صادرة توأ من كتاب ديلونغاس».

تغيرَ لونها قليلاً وجهت ليكون جوابها دقيقاً. كانت نظراته المتفحصّة من خلال نظارتيه السميكتين تربكها باستمرار.

قالت بخفوت: «سأحاول بكل جهدي».

قال ريتشارد: «سوف نوكل اليك كل المهام الصعبة».

ابتسمت فيكتوريا.

رأت الزائرين وهما يصعدان من جانب التلة. تقدم ريتشارد لاستقبالهما ولحقت به فيكتوريا.

كانا رجلين فرنسيين مهتمين بالآثار وكانا يقومان بجولة عبر سوريا والعراق. بعد تبادل التحيات. اصطحبتهما في جولة حول أمكنة التنقيب، مرددة مثل ببقاء بليغة كل ما كان يجري. ولم تكن تستطيع أن تقاوم ااضفاء بعض الزخرفات المتنوعة من ابتكارها هي. وهذه كانت تضيف حسب اعتقادها بعض الإثارة الى الجولة.

لاحظت اثناء الجولة ان أحدهما كان ينجّر فوق المكان غير مهتم البتة. ثم اعتذر من فيكتوريا وقال إنه سيعود الى المنزل. لم يكن على ما يرام منذ الصباح، وكانت الشمس تزيد حالته سوءاً.

انطلق عائداً في اتجاه المنزل الخاص بالبعثة، ثم فسّر بصوت خفيض انه لسوء الحظ يعاني من ألم في معدته.

حين انتهت الجولة الاستكشافية، دعا الدكتور باونسفوت بإصرار ضيفيه الرجلين الى تناول الشاي قبل المغادرة. غير أن الرجل الفرنسي رفض الدعوة. لأنه ليس باستطاعته مع رفيقه ارجاء مغادرتهما حتى يحل الظلام. فهما لن يستطيعا حينئذ إيجاد طريق العودة. وافق ريتشارد بايكر على الفور وخرج الرجلان من المنزل

وانطلقت سيارتهما بسرعة قصوى.

قال الدكتور باونسفوت بصوت غليظ: «أعتقد أن هذه ليست سوى البداية. سوف يأتينا زوار يومياً من الآن فصاعداً».

تناول قطعة من خبز عربي ومرغها بمربي المشمش.

ذهب ريتشارد الى غرفته بعد تناول الشاي. كان عليه أن يكتب رسائل فقد كان متوجهاً الى بغداد في اليوم التالي.

ارتعد فجأة. لقد كان رجلاً في منتهى الترتيب، ولديه أسلوب خاص في توضيب ملابسه وأوراقه ولم يكن يتغير أبداً. رأى الآن أن كل جواريره كانت مبعثرة. كان متأكداً أنها لم تكن فعله الخدم. انا بالتأكيد ذاك الزائر المريض الذي ادعى المرض ليدخل المنزل ويعبث في هدوء بمقتنياته. لم يكن أي شيء ناقصاً، لقد تأكد من ذلك. لم يلمسوا المال. لا بد أنهم كانوا يبحثون عن شيء ما! تجهّم وجهه وقد خطر له ذلك.

توجّه الى غرفة المعدات حيث كانت الاختام الشمعية محفوظة. ابتسم في تجهّم. لم يمس أي شيء. كان كل شيء في مكانه. عاد الى غرفة الجلوس. كان الدكتور باونسفوت في الخارج على الشرفة مع مرافق. كانت فيكتوريا وحدها في الصالون منغمسة في قراءة كتاب.

انبرى ريتشارد دون مقدمات: «لقد قام أحد ما بتفتيش غرفتي».

تطلعت اليه فيكتوريا مندهشة.

- «ولكن لماذا؟ ومن؟».

- «الم يكن أنت؟».

- «أنا»، ردت فيكتوريا في غضب، «بالطبع لا؟ وما الذي يدفعني إلى التفتيش في أغراضك؟».

حدق فيها بقسوة ثم قال:

- «لا بد وأنه ذاك الغريب اللعين. ذاك الذي تظاهر بالمرض وعاد إلى المنزل».

- «هل سرق شيئاً ما؟».

- «لا»، وأردف ريتشارد، «لم يأخذ أي شيء».

- «ولماذا بحق السماء يقوم أحد ما...».

قاطعها ريتشارد ليقول:

- «اعتقدت أنك تعرفين السبب».

- «أنا؟».

- «حسناً حسبما أخبرتني، لقد حصل معك الكثير من الأمور الغريبة».

- «آه تلك - أجل»، بدت فيكتوريا مرتبكة. وقالت متمهلة، «لكنني لا أجد سبباً يدفعهم إلى تفتيش غرفتك. أنت لا علاقة لك بال...».

- «بماذا؟».

لم تجب فيكتوريا. بقيت صامتة لدقيقة أو اثنتين. بدت ساهمة.

- «أعتذر»، قالت أخيراً، «ماذا قلت، لم أكن أستمع؟».

لم يكرر ريتشارد سؤاله. بدلاً من ذلك سألها:

- «ماذا تقرئين؟».

- «لا خيارات كثيرة هنا. هناك «قصة مدينتين»، «الكبراء

والعجرفة» وواحدة أخرى. أنا أقرأ «قصة مدينتين».

- «الم تقرئنيها أبداً من قبل؟».

- «أبداً. كنت دائماً أعتبر ديكنز مملاً».

- «يا لها من فكرة!».

- «لكنني أجده مثيراً جداً».

- «إلى أين وصلت في القراءة». نظر من خلفها وقرأ بصوت مرتفع جملة مميزة في الصفحة.

قالت فيكتوريا: «أعتقد انها مخيفة جداً».

- «أتقصدين «مدام دوفارج»؟ أجل انها شخصية جيدة. أنا لا اتصور أبداً أن في مقدور أحد تذكر أسماء قطب الحك بالصنارة. ولكن في النهاية لست أتقن الحياكة». (كانت مدام دوفارج تحبك وتردد أسماء القطب في المقطع الذي قرأه).

- «آه اظن انك تستطيع»، وأضافت فيكتوريا في الموضوع نفسه، «انه أمر بسيط، مجرد حساب أرقام، تطرح أحياناً وتضيف أحياناً أخرى. أجل يمكنك أن تفعل هذا. قد ترتكب بعض الأخطاء. لا يهم».

وفجأة كمثل التماع اندفعت الى رأسها فكرتان واذهلتهما كانفجار كاسح. اسم - وتذكاري مرئي لرجل كان يضع شالاً مرقطاً مشغولاً باليد - تقريباً الشال هو نفسه الذي انتشلته وحشرته في الجارور. وأيضاً ذاك الاسم. دوفارج - وليس لوفارج - دوفارج. مدام دوفارج.

خرجت من ذهولها حين حدثها ريتشارد في لطافة قائلًا:

- «ماذا أصابك؟».

- «لا، لا شيء. لقد خطر لي أمر ما».

- «فهمت»، ورفع ريتشارد حاجبيه بطريقة متعجرفة.

فكرت فيكتوريا. غداً سوف يتوجهون كلهم الى بغداد. غداً ستنتهي فترة راحتها. لقد نعمت بالأمان والسلام لمدة أسبوع، لقد حان الوقت لتستجمع قواها. ولقد استمتعت بهذا الوقت - استمتعت به جداً. خطر ليفيكتوريا: «قد أكون جبانة، ربما هذا هو السبب». كانت طالما تحدثت في غبطة عن المغامرة لكنها لم تستمتع بها كثيراً حين حصلت عليها. لقد كرهت صراعها ضد الكلوروفورم واختناقها البطيء. ولقد أصيبت بالجزع، ارتعت حين قال ذاك الرجل العربي في الغرفة العليا: «بكرا».

والآن ينبغي أن تعود الى خضم الموضوع. لأن السيد داكين استخدمها ودفع لها المال، وكان يجب أن تستحق أجرها وتكون جريئة! قد يتوجب عليها أن تعود حتى الى «غصن الزيتون». ارتعدت قليلاً حين تذكرت الدكتور راسبون ونظراته القاتمة المشككة. كان حذرهما...

لكن، ربما لن تضطر الى العودة. قد يقول السيد داكين انه من المفضل أن لا تفعل - وقد اكتشفوا أمرها الآن. لكن ينبغي أن تعود لاسترجاع متاعها، وخصوصاً الشال الأحمر المحبوك بالصنارة، الذي كانت رمته بلا ميالة في حقيبتها... كانت وضعت كل شيء داخل الحقائق حين ذهبت الى البصرة. ستسلم ذاك الشال الى السيد داكين وبهذا قد تكون نفذت مهمتها على التمام. وقد يقول

لها كما في الأفلام السينمائية: «آه. لقد قمت باستعراض ممتاز يا فيكتوريا».

رفعت رأسها فوجدت ريتشارد بايكر يراقبها.

قال: «بالمناسبة. هل تستطيعين إحضار جواز سفرك غداً؟».

- «جواز سفري؟».

فكرت فيكتوريا ملياً في وضعها. فهي كالعادة لم تكن قررت بعد خطتها للتخلص من تورطها مع بعثة التنقيب. ولما كانت فيرونيكا (أو فينيسيا) الحقيقية ستصل قريباً من انكلترا، كان يجدر بها الانسحاب في هدوء. ولكن هناك فرقاً بين أن تختفي في بساطة ومن غير تفسير، وبين أن تعترف بخدعتها بواسطة أعذار مناسبة، وهو ما نوت أن تقوم به في الواقع، وهكذا لم تكن هذه المسألة حتى هذا الوقت مطروحة لديها. كانت تعتمد دائماً على حدوث ما قد يخربط الأمور.

- «في الواقع»، قالت مسائرة، «لست واثقة».

- «هذا ضروري»، فسر لها ريتشارد، «من أجل الشرطة. سوف يسجلون رقمه واسمك وعمرك وعلاماتك الفارقة الخ... وبما أننا لا نملك جواز سفرك يتوجب علينا أن نرسل لهم اسمك ومواصفاتك. بالمناسبة ما اسمك الثاني؟ أنا لم أدعك سوى «فيكتوريا»».

أجابت فيكتوريا بشهامة:

«دعك من هذا. أنت تعرفه أكثر مما أعرفه أنا».

رد ريتشارد: «هذا ليس صحيحاً». ارتسمت ابتسامته مع شيء

من القسوة، «أنا لا أعرف اسمك الثاني. أظن أن من يجهل هذا هو أنت بالذات».

راقبها من خلال نظارتيه. انبرت فيكتوريا:

- «طبعاً أعرف اسمي».

- «إذاً اتحداك أن تقولي لي. الآن».

أصبح صوته فجأة قاسياً وجدياً.

قال: «لا فائدة من الكذب. لقد انتهت اللعبة. لقد تحاذقت أكثر من اللزوم. لقد كنت وضعت لك بعض الفخاخ ولقد وقعت فيها. لقد قلت لك معلومات من دون معنى وكاذبة ولقد وافقتني عليها. أنت لست فينيسيا سيفيل. من أنت؟».

- «لقد قلت لك من أنا حين التقيتك للمرة الأولى. أنا فيكتوريا جونز».

- «ابنة شقيق الدكتور باونسفوت؟».

- «لست ابنة شقيقه - لكن اسمي الثاني هو جونز».

- «لقد أخبرتني أشياء كثيرة أخرى».

- «أجل لقد فعلت. وكانت كلها صحيحة! لكني رأيت أنك لم تصدقني. وهذا أغضبني. صحيح أنني أكذب أحياناً بل الواقع غالباً، لكن ما أخبرتك إياه لم يكن كذباً. ولهذا ولكي أدمع مصداقيتي قلت أنني أدعى باونسفوت جونز. لقد كنت ادعيت هذا اللقب أيضاً قبل وصولي إلى هنا. ولقد أفادني هذا جداً. ولم يخطر لي أبداً أنك قادم توأ إلى هنا».

قال ريتشارد متجهماً: «لا بد أن هذا صدمك قليلاً. لقد

استطعت لعب الدور بشكل ممتاز. كنت هادئة كخياره».

قالت فيكتوريا: «ليس في داخلي. كنت أرتجف بكليتي. ولكني شعرت انه لو انتظرت وفسرت الأمر لدى وصولي هنا - حسناً في مطلق الأحوال سأكون في مأمن».

- «آمنة؟». فكر ملياً في كلمتها. «اسمعي هنا يا فيكتوريا. هل كانت تلك القصة الغربية التي قلت فيها انهم خدروك حقيقية؟».

- «بالطبع كانت حقيقية! ألا تفهم. لو أردت أن ألق قصة لكنت ابتكرت واحدة أفضل بكثير، ولكنك رويتها بشكل أفضل!».

- «بما اني أعرفك أكثر الآن أستطيع أن اصدق! لكن يجب أن تعترف ان القصة لم تكن مقنعة أبداً حين رويتها لي أول مرة».

- «لكنك راغب في تصديقها الآن. لماذا؟».

قال ريتشارد ببطء:

- «لأنك إن كنت تورطت كما تقولين في مسألة مقتل كارمايكل. فقد يكون ما أخبرتني اياه صحيحاً».

قالت فيكتوريا: «هنا بدأ كل شيء».

- «من الأفضل أن تقصّي عليّ ما جرى».

حدقت فيه فيكتوريا جيداً.

قالت: «إنني أتساءل إن كان في وسعي الوثوق بك».

- «إننا نتبادل الأدوار! هل تعلمين أنه ساورتني شكوك مخيفة بأنك أرسلت الى هنا تحت اسم مزيف بهدف الحصول على معلومات مني؟ وربما هذا هو ما تقومين به بالفعل؟».

- «هل، هذا يعني انك تعرف شيئاً ما عن كارمايكل يريدون هم معرفته؟»

من يكون هؤلاء الـ«هم»؟».

قالت فيكتوريا: «ينبغي عليّ أن أخبرك كل شيء عن المسألة. لا توجد أي طريقة أخرى. ولو كنت واحداً منهم، فأنت تعرف هذا من قبل. ولا يهم ان فعلت».

أخبرته عما جرى ليلة مقتل كارمايكل. عن لقائها مع السيد داكين، ورحلتها الى البصرة. ثم عملها في «غصن الزيتون»، عن عداينة كاترين، عن الدكتور راسبون وعن تحذيره الأخير لها. وأخيراً عن سر شعرها المصبوغ. ما لم تكشفه له كان مسألة الشال الأحمر ومدام دو فارج.

- «الدكتور راسبون»، توقف ريتشارد عند هذه النقطة. «هل تعتقدان انه متورط في هذا؟ أو هو وراءه؟ لكن يا فتاتي العزيزة انه رجل مهم جداً. انه معروف في كافة أنحاء العالم. ان طلبات الاشتراك في مشاريعه تتدفق من كل أنحاء الكوكب».

سألت فيكتوريا: «ما حاجته للقيام بكل هذه الأشياء؟».

قال ريتشارد مفكراً: «لقد اعتبرته دائماً بغلاً مدعياً».

- «ان هذا تمويه ممتاز أيضاً».

- «أجل. أجل. أعتقد ان هذا صحيح. من هو هذا الـ«لوفارج» الذي سألتني عنه؟».

- «مجرد اسم آخر»، قالت فيكتوريا، «هناك أيضاً أنا شيل».

- «أنا شيل؟ لا. لم اسمع بها إطلاقاً».

قالت فيكتوريا: «انها مهمة. لكنني لا أعرف كيف ولماذا؟ الامر محير جداً».

قال ريتشارد: «قولي لي فقط مجدداً، من هو الرجل الذي ورطك أولاً بأول في كل هذا؟».

- «إدوا... آه. أنت تعني السيد داكين. انه يعمل في شركة نفط. أظن هذا».

- «هل هو رجل متعب، محني الكتفين، وعلى الأصح ذو وجه خال من التعابير؟».

- «أجل - لكنه ليس في الواقع فاقد التعابير».

- «ألا يكثر المشروب؟».

- «الناس يقولون هذا. لكنني لا أظن انه يفعل».

تراجع ريتشارد ونظر اليها.

- «فيليبس أوبنهايم، وليام لوكو، وعدد من المقلدين المتميزين منذ ذلك الوقت. هل هذا حقيقي؟ هل أنت حقيقية؟ هل أنت البطلة المضطهدة أم المغامرة الملعونة؟»

قالت فيكتوريا بنبرة مميزة:

- «المسألة الآن، ماذا سنقول للدكتور باونسفوت جونز في

شأني؟».

- «لا شيء»، وأضاف ريتشارد، «لا ضرورة لذلك».

الفصل

الحادي والعشرون

انطلقوا الى بغداد باكراً. كانت معنويات فيكتوريا ضعيفة لسبب ما. شعرت ببعض الحزن وهي تلتفت الى الوراء متطلعة الى منزل البعثة. في مطلق الأحوال كانت قعدتها البائسة في الشاحنة المترججة بجنون تمنع عنها التفكير سوى بعذابها الحالي. بدا لها غريباً أن تعبر مرة أخرى تلك الطريق العجيبة متجاوزة الحمير والشاحنات المغبرة المسافرة. مضى ما يقارب الثلاث ساعات حتى وصلوا مشارف بغداد. أنزلتهم الشاحنة عند فندق تيو، ثم غادرت بالطباخ والسائق للقيام بالتسوق. كانت كدسة كبيرة من الرسائل في انتظار الدكتور باونسفوت جونز وريتشارد.

ظهر ماركوس فجأة ضخماً ومشرقاً ورَّحَبَ بفِيكتوريا بحماسة الدائمة.

قال: «آه. لم أرك منذ وقت طويل. أنت لا تأتين الى فندقي. لقد مضى أسبوع أو أسبوعان. لماذا تفعلين هذا؟ ستتناولين طعام الغداء هنا اليوم. لدينا كل ما ترغبين؟ فراريج صغيرة؟ أم تحبين شرحة كبيرة من اللحم. ولكن ليس ديك الحبش المحشو بالرز واللحم، لأن هذا يحتاج الى كثير من التحضير».

بدا واضحاً ان لا أحد في فندق تيو كان على علم باختطاف فيكتوريا. من المحتمل ان إدوارد لم يبلغ الشرطة طبقاً لنصيحة من السيد داكين.

سألت: «هل تعرف ان كان السيد داكين في بغداد يا ماركوس؟»
- «السيد داكين؟ آه أجل. انه رجل لطيف جداً. طبعاً. انه صديق لك. كان هنا البارحة. لا، ما قبل البارحة. وإيضاً الكابتن كروسبي. أنت تعرفينه أليس كذلك؟ انه صديق للسيد داكين سيصل اليوم من كرمنشا».

- «هل تعرف أين يقع مكتب السيد داكين؟».

- «بالتأكيد أعرف. الكل يعرف شركة النفط العراقية - الإيرانية».

- «حسناً أريد التوجه الى هناك الآن. في سيارة تاكسي. لكني اريد التأكد أولاً من أن السائق يعرف الى أين يأخذني».
قال ماركوس في طواعة: «سأقول له ذلك بنفسي».

رافقها الى آخر المر وصرخ بطريقته العنيفة المعهودة. ركض اليه على الفور أحد موظفيه. أمره ماركوس بإحضار سيارة تاكسي. ثم رافق فيكتوريا الى التاكسي وتحدث الى السائق. ثم تراجع ملوحاً بيده.

قالت له فيكتوريا: «أريد أيضاً غرفة، هل أستطيع الحصول على واحدة؟».

- «نعم. نعم. سأعطيك غرفة جميلة وسأحضر لك شريحة كبيرة

من اللحم. والليلة لدي كافيار فاخر. وقبل ذلك سنتناول كأساً من المشروب».

- «هذا ممتاز»، وأضافت فيكتوريا، «آه يا ماركوس هل تستطيع أن تعيرني بعض المال».

- «بالتأكيد يا عزيزتي. تفضلي، خذي كل ما تحتاجينه».

انطلقت السيارة محدثة ارتجاجاً مخيفاً وانقلبت فيكتوريا فوق المقعد الخلفي وتبعثرت بين يديها أوراق وقطع النقد المعدنية.

بعد خمس دقائق دخلت مكاتب شركة النفط العراقية - الإيرانية، وسألت عن السيد داكين.

رفع السيد داكين رأسه وكان جالساً وراء مكتبه منشغلاً في الكتابة حين اطلت فيكتوريا. نهض وصافحها بطريقة رسمية.

- «آنسة.. آه.. آنسة جونز أليس كذلك؟ أحضر قهوة يا عبدالله».

حين انغلق الباب وراء الموظف قال بصوت منخفض.

- «ما كان ينبغي أن تأتي الى هنا. أنت تفهمين ما أعني».

قالت فيكتوريا: «اني مضطرة هذه المرة. هناك امر ينبغي أن اطلعك عليه فوراً قبل أن يصيبني شيء آخر».

- «يُصيبك شيء؟ هل حدث لك أي مكروه؟».

- «ألم تعرف؟»، سألت فيكتوريا، «ألم يخبرك إدوارد؟».

- «كل ما أعرفه انك لا تزالين تعملين في مركز «غصن الزيتون».

لم يقل لي أحد أي شيء».

هتفت فيكتوريا: كاترين.

أستمحك عذراً.

تلك الهرة كاترين! اراهن انها لفقت قصة ما لإدوارد وان ذاك الغبي صدّقها.

قال السيد داكين: «حسناً أطلعيني على الأمر. آه. ان كنت تسامحينني على ملاحظتي». ونظر بتكتم الى شعر فيكتوريا الأشقر، «أنا أفضلك سمراء».

قالت فيكتوريا: «هذا جزء من القصة».

قُرع الباب ودخل الموظف حاملاً فنجانين من القهوة الحلوة الطعم. حين غادر قال داكين:

- «أخبريني الآن مطوّل كل ما جرى. لا يمكن سماعنا هنا».

وانغمست فيكتوريا في رواية كل مغامراتها. وكما كانت تفعل على الدوام وهي تتحدث الى السيد داكين، جهدت أن تكون قصتها موجزة ومتماسكة. أنهت قصتها بالجزء المتعلق بالشال الأحمر الذي كان كارمايكل أوقعه، وكيف ربطت بينه وبين مدام دو فاراج.

ثم نظرت اليه قلقة.

بدا لها حين دخلت متعباً ومحبطاً. ورأت الآن بريقاً يشع من عينيه.

قال: «يجدر بي أن أقرأ ديكنز بين وقت وآخر».

- «إذن أنت تعتقد اني على حق؟ أتظن انه قال دو فاراج؟ وهل تعتقد ان هناك ثمة رسالة محبوبة على الشال؟».

قال داكين: «أعتقد هذا. ان هذه هي أول فرصة سنحت لنا منذ فترة لاكتشاف مفتاح ما - وينبغي أن نشكرك على هذا. لكن المهم الآن هو الشال. أين هو؟».

- «انه مع بقية متاعي. لقد حشرته في جاروري تلك الليلة. وحين وضّبت متاعي في الحقائب، أذكر اني وضعت فيها كل شيء ولم أترك شيئاً».

- «أولم يحصل ان ذكرت هذا الأمر امام أحد - امام اي كان - ان ذاك الشال كان يخصّ كارمايكل»..

- «لا. لأنني كنت نسيت كل ما يتعلق بشأنه. لقد حشرته في إحدى حقائبي مع أشياء كثيرة أخرى حين سافرت الى البصرة، ولم أفتحها منذ ذلك الوقت».

- «إذن ينبغي أن يكون هناك. حتى ولو فتشوا متاعك لا أظن أبداً أنهم سيهتمون بشأن شال قديم ومتسخ، إلا إذا كانوا انتبهوا لأمره سابقاً، وحسب ظني ان هذا مستحيل. ما يجب ان نفعله الآن هو جمع أغراضك وأرسالها الى... هل وجدت مكاناً تقيمين فيه؟».

- «لقد حجزت غرفة في فندق تيو».

هرّ داكين رأسه موافقاً.

- «هذا مناسب جداً لك».

- «هل ينبغي - هل تريدني - أن أعود الى «غصن الزيتون»؟».

نظر اليها داكين بإمعان.

- «هل أنت خائفة؟».

رفعت فيكتوريا ذقنها.

- «لا»، وقالت بتحدٍّ، «سأذهب ان كنت ترغب بذلك».

- «لا أظن ان هذا ضروري - أو حتى مستحسن. لا بد وان احدهم اكتشف نشاطاتك. ولهذا لن تستطيعي اكتشاف اي شيء جديد. من الأفضل أن تبتعدي».

ابتسمت.

- «هذا كي لا تصبجي حمراء الشعر حين سأراك في المرة القادمة».

هتفت فيكتوريا: «هذا ما أرغب معرفته بجنون. لماذا صبغوا شعري. لقد فكرت وفكرت ولم أستطع تفسير هذا. ما الهدف من هذا، هل تعرف؟».

- «هناك تفسير واحد وغير ممتع على الاطلاق. وهو لكي يصعب التعرف الى جثتك».

- «لكن إن كانوا أرادوا قتلي، لماذا لم يقتلوني على الفور؟».

- «هذا سؤال مثير للاهتمام يا فيكتوريا. انه السؤال الذي أريد أن أعرف جوابه بأي ثمن».

- «أوليس لديك أية فكرة؟».

قال داكين مبتسماً: «ليس لدي اي مفتاح للّغز».

قالت فيكتوريا: «وبما أننا نتكلم عن المفاتيح. هل تذكر حين قلت لك انني إرتبت لأمر ما بشأن السير روبرت كروفتون لي ذاك الصباح في فندق تيو؟».

- «أجل».

- «أنت لم تعرفه شخصياً، اليس كذلك؟».

- «لا أنا لم ألتقه من قبل».

- «لقد كنت واثقة من هذا. لأنه في الواقع لم يكن السير روبرت كروفتون لي».

ثم راحت تقص عليه من جديد وبطريقة مسرحية مسألة الحبة في مؤخر رقبة السير كروفتون لي.

قال داكين: «هكذا إذن أنجزوا الأمر. لم أستطع أن أتصور كيف ان كارمايكل لم يأخذ حذره تلك الليلة حين قتلوه. لقد وصل سليماً الى كروفتون لي ولقد طعنه هذا الأخير. لكنه استطاع الفرار واقتحام غرفتك قبل أن يموت. ولقد أمسك جيداً بالشال: كان أكثر ضراوة من الموت».

- «هل تظن انهم اختطفوني لأنني كنت سأتوجه لأخبرك هذا الشيء. لكن أحداً لم يعرف هذا غير إدوارد».

- «أظن انهم اضطروا الى أبعادك من هناك وبسرعة. كنت تشاهدين أكثر ممّا يجب في «غصن الزيتون»».

قالت فيكتوريا: «لقد حذّرنى الدكتور راسبون. لقد كان تهديداً أكثر منه تحذيراً. أعتقد انه اكتشف اني مزيفة».

قال السيد داكين بجدية: «ان راسبون ليس غيباً على الإطلاق».

قالت فيكتوريا: «يسعدني اني لست مضطرة الى العودة الى هناك. لقد تظاهرت الآن اني جريئة. لكنني في الواقع خائفة جداً. ولكن إن لم أذهب الى «غصن الزيتون» كيف سأستطيع الاتصال بإدوارد؟».

ابتسم داكين.

- «إن لم يأت محمد الى الجبل، فسوف يأتي الجبل اليه. اكتب لي رسالة الآن. قولي فقط انك في فندق تيو واطلبي منه أن يحضر لك متاعك الى هناك. سأذهب الى راسبون هذا الصباح وأسأله عن أحد اللقاءات في مركزه. سأستطيع في سهولة تمرير الرسالة الى سكرتيره. وهكذا لن تستطيع خصمك كاترين اخفائها. أما أنت فاذهبي الى فندق تيو واطلبي هناك و.. يا فيكتوريا».

- «أجل».

- «ان تعرضت لأي مشكلة - من أي نوع كانت - قومي بكل ما في وسعك من أجل نفسك فقط. سوف نقوم بحراستك قدر الإمكان، لكن خصومك خارقون. ولسوء الحظ أنت تعرفين أشياء كثيرة. حين يصل متاعك الى فندق تيو تكون انتهت كل التزاماتك معي. افهمي هذا جيداً».

قالت فيكتوريا: «الآن سأرجع توأ الى فندق تيو. سأقوم على الأقل بشراء بعض البودرة وأحمر الشفاه وغيرهما من المستحضرات. في النهاية...».

قال السيد داكين: «في النهاية لا تستطيع الواحدة لقاء حبيبها غير مسلحة».

- «لم يكن ريتشارد بايكر أبه كثيراً لهذا، ولكني أود أن يعرف اني أستطيع أن أبدو جميلة ان حاولت». وأضافت فيكتوريا، «ولكن إدوارد...».



الفصل

الثاني والعشرون

جلست فيكتوريا بشعرها المصفف وشفتيها المطليتين على شرفة
فندق تيو. ومرة جديدة شعرت انها جولييت معاصرة تنتظر روميو.
وجاء روميو في الوقت المحدد. أطل متقدماً فوق عشب الحديقة
ناظراً في الاتجاهات.

هتفت فيكتوريا: «إدوارد».

رفع إدوارد نظره الى فوق.

- «آه. انت هنا!».

- «اصعد الى هنا».

- «ها أنذا».

بعد دقيقة انبرى فوق الشرفة التي كانت مقفرة.

قالت فيكتوريا: «إن المكان هنا اكثر اماناً. سوف ننزل وسنطلب

إلى ماركوس أن يأتينا بالمشروب على الفور».

- «عذراً يا فيكتوريا يبدو شعرك مختلفاً. ما فعلت به؟».

تنهدت فيكتوريا متضايقة.

- «لو جاء أحدهم على ذكر شعري مرة ثانية فسوف أضربه على رأسه».

قال إدوارد: «أظن اني أحبه أكثر كما كان».

- «قل هذا لكاترين!».

- «كاترين؟ ما علاقتها بهذا؟».

قالت فيكتوريا: «ان لها علاقة بكل ما جرى لي. انت طلبت إلي أن أسايرها. وهكذا فعلت. وأعتقد انك لا تعرف ماذا فعلت بي».

- «أين كنت طوال هذه الفترة يا فيكتوريا؟ لقد كنت بدأت أقلق في شأنك».

- «آه، هل هذا صحيح؟ أين اعتقدت انه كان يمكن أن أكون؟».

- «في الواقع لقد أبلغتني كاترين رسالتك. قالت لي انك طلبت إليها أن تخبرني أنك توجهت الى الموصل فجأة، لأمر ضروري، وانك تلقيت أنباء جديدة. وانك ستتصلين بي لاحقاً».

قالت له فيكتوريا بنبرة مشفقة: «وأنت صدقت هذا؟».

- «اعتقدت انك انطلقت في أثر معلومات ما. كان من الطبيعي انك لم تستطعي اطلاع كاترين على أكثر من ذلك».

- «ألم يخطر لك البتة ان كاترين كانت تكذب. وانهم ضربوني على رأسي؟».

حدق فيها إدوارد متلفظاً: «ماذا؟».

- «لقد خدروني بالكلوروفورم....».

جال إدوارد بنظره في حدة حولهما.

- «يا الهي. لم اكن لأحلم - اسمعيني. لا أحب أن نتكلم هنا مع كل هذه النوافذ حولنا. ألا نستطيع الذهاب الى غرفتك؟».

- «أجل بالطبع. هل أحضرت معك متاعي؟».

- «أجل لقد سلمتها للحمال».

- «لأنك تعرف ماذا يعني أن يبقى الواحد في بدلة واحدة لأكثر من اسبوع».

- «ما الذي كان يحدث يا فيكتوريا؟ أعرف. معي سيارتي هنا. هيا بنا نخرج الى ديفونشاير. أنت لم تذهبي أبداً إلى هناك، اليس كذلك؟».

قالت فيكتوريا محدقة في ذهول: «ديفونشاير؟».

- «آه، انه مجرد اسم لمكان ما خارج بغداد. انه رائع في هذه الفترة من السنة. هيا تعالي. أشعر وكأنني لم أختل بك منذ دهر».

- «لم نكن وحدنا منذ رحلة بابل. ولكن ماذا سيقول الدكتور راسبون وجماعة «غصن الزيتون»؟».

- «سحقاً للدكتور راسبون. ضقت ذرعاً بهذا البغل العجوز».

نزلا الدرجات وخرجا الى حيث كانت سيارة إدوارد متوقفة. قاد إدوارد عبر بغداد في اتجاه الجنوب. ثم انعطف في مكان ما وراح يلتوي ويدور عبر مساحات مزروعة بشجر النخيل وذات جسور كثيرة. في النهاية وصلا لمفاجأة فيكتوريا الى بقعة حرجية غريبة محاطة بسواق متعرجة. كانت البقعة مشجرة باللوز والمشمش وكانت براعم الأشجار تتفتح زهوراً.

كانت بقعة مثالية. وراء الأشجار ترقرق نهر دجلة.

قالت فيكتوريا متنهدة بعمق: «هذا رائع. هذا يشبه انكلترا في الربيع».

كان الهواء ناعماً ودافئاً. جلسا على جذع شجرة منحنية، كانت زهورها وردية اللون وتدلّت فوق رأسيهما.

قال إدوارد: «والآن يا حبيبتي أخبريني ماذا كان يحدث لك. لقد كنت تعيساً جداً طوال تلك الفترة».

- «هل هذا صحيح؟». وابتسمت هائئة.

ثم أخبرته. عن الفتاة التي غسلت شعرها. عن رائحة الكلوروفورم ومقاومتها لها. عن صحتها مخدرة ومريضة. عن طريقة هربها وعن لقاءها المثير مع ريتشارد بايكر، وكيف ادّعت أنها فيكتوريا باونسفوت جونز وهما في طريقهما الى مركز التنقيب. وكيف حلت مكان تلميذة علم الآثار التي كانت ستأتي من لندن.

عند هذا الجزء من القصة انفجر إدوارد ضاحكاً.

- «أنت رائعة يا فيكتوريا! ان ما يخطر لك، ما تبتكرينه في منتهى الروعة».

قالت فيكتوريا: «أعرف وخصوصاً مسألة العمين تلك. الدكتور باونسفوت جونز ومن قبله الأسقف».

وفي هذه اللحظة بالذات تذكرت فجأة ماذا كانت على وشك أن تسأل إدوارد في البصرة لحظة قاطعتهما السيدة كلايتون.

قالت: «لقد أردت أن أسألك هذا من قبل. كيف عرفت بمسألة الأسقف؟».

شعرت أن يده التي تمسك يدها تتقلص فجأة. وقال بسرعة.
بسرعة كبيرة.

- «لقد أخبرتني أنت، أليس كذلك؟».

نظرت اليه فيكتوريا. وفكرت في أمر لاحق كم كان غريباً أن
تجعلها زلة لسان طفولية تنجر الى كل ما فعلته.

لقد فوجيء كلياً. لم يكن قد أعدّ سابقاً تبريراً لهذا. صار وجهه
مستسلماً ومن غير قناع.

وحدثت فيه. أصبح كل شيء واضحاً ومرتباً بالتسلسل. ورات
الحقيقة. ربما لم تكتشف ذلك فجأة. ربما كان ذاك السؤال في
لاوعيتها، «كيف عرف إدوارد بشأن الأسقف؟» طالما أقلقها وشغل
بالها هذا السؤال وكانت تقترب ببطء الى الجواب الوحيد والذي لم
يكن في المقدور تحاشيه... لم يعرف إدوارد عن قصة الأسقف لانفو
التي ابتكرتها منها هي. كان يمكن أن يعرف فقط عبر شخصين
وحيدين هما السيد والسيدة هاميلتون كليب. وكان من المستحيل
أن يكون التقاهما عند وصولها الى بغداد، لأنه كان وقتذاك في
البصرة. إذن لقد أخبراه ذلك قبل أن يغادر هو نفسه انكلترا. لا بد
وانه كان يعرف منذ البدء انها قادمة مع السيدة كليب - وان تلك
المصادفة الرائعة لم تكن أبداً بالمصادفة. لقد كان الأمر مخططاً له
ومقصوداً.

وبينما نظرت الى وجه إدوارد الفاقد القناع، أدركت فجأة ماذا
عنى كارمايكل بكلمة لوسيفر. عرفت ماذا رأى ذاك النهار حين نظر
امامه في الرواق المؤدي الى حديقة القنصلية في البصرة. لقد كان

راى ذاك الوجه الجميل الفتى، الذي تنظر هي اليه الآن - لأنه كان
وجهاً جميلاً:

«لو سيفر. يا ابن الصباح. كيف سقطت هكذا؟».

لا لم يكن الدكتور راسبون - بل إدوارد ! إدوارد الذي كان يلعب
دوراً ثانوياً، دور السكرتير لكنه كان يسيطر ويخطط ويدير الأمور
مستخدماً الدكتور راسبون كمجرد واجهة - ولقد حذرهما راسبون
وسألها المغادرة قبل فوات الأوان...

وبينما كانت تنظر الى ذلك الوجه الجميل الشرير، اضمحل فجأة
كل حبها الغبي المراهق، وأدركت أن ما شعرت به تجاه إدوارد لم
يكن أبداً حباً. كان مجرد شعور تملكها مرة تجاه همفري يوغارت
ومرة نحو دوق أدنبره. كان مجرد انبهار. وإدوارد لم يحبها أبداً.
لقد مارس جاذبيته وألقه عليها عن قصد. لقد اختارها ذلك اليوم
مستخدماً وسامته في بساطة وفي كل عفوية لكي تقع في غرامه من
دون مقاومة. لقد كانت مغفلة.

أمر خارق أن تتوارد صور كثيرة في رأس المرء خلال ثوان قليلة.
لم يكن من الضرورة أن تفكر حتى في تلك الأشياء. انها تتوارد
كمعرفة كاملة وفورية. لأنه ربما انت في أعماقك كنت تعرف هذه
الحقيقة طوال الوقت...

وفي الوقت نفسه حرك حدس فيكتوريا، أو حس البقاء عندها
دماغها لردة فعل وقائية سريعة جداً. فأبقت على وجهها ذلك التعبير
الساذج المنذهل ظاهرياً فقط. لأنها أيقنت على الفور انها في خطر
عظيم. كانت لديها ورقة وحيدة كان يمكن أن تلعبها، وهذه الورقة
وحدها قادرة على انقاذها. ولعبتها بسرعة.

قالت له: «أنت كنت تعرف طوال الوقت. لقد عرفت اني سأصل الى هنا. لا بد وانك أنت خططت لذلك. آه يا إدوارد انك رائع جداً!». كانت تعابير وجهها مثل البلاستيك ولكنه يعكس احساساً وحيداً لا بل شعوراً بالافتتان العارم. ورأت ردة الفعل - تلك الابتسامة الهزيلة الساخرة. وشعرت بالارياح. شعرت كأنه يقول لنفسه: «تلك الصغيرة الحمقاء! يمكن أن تصدق أي شيء! استطيع أن أفعل أي شيء بها».

سألته: «ولكن كيف خططت لإنجاز كل هذا. لا بد انك رجل خارق. أنت مختلف تماماً عما تدعيه. أنت كما قلت ذاك النهار - أنت ملك بابل».

رأت وجهه وقد شغ بالفخر. رأت القوة والطاقة والجمال وأيضاً القسوة التي كانت محتجبة خلف مظهر الشاب المتواضع واللطيف.

وخطر لفيكتوريا «وأنا لست سوى جارية مسيحية». ثم قالت بسرعة وبقلق وكأنما لاضفاء لمسة فنية أخيرة على إنجازها (ولم يكن أحد يعلم كم كلفها ذلك من كبريائها)، «ولكنك تحبني اليس كذلك؟».

كان احتقاره لها ظاهراً الآن. هذه الغبية الصغيرة - كل هذه النساء الغيبات! من السهل جداً أن تجعلهن يعتقدن انك تحبهن. وهذا وحده كان يهمهن في النهاية! ليس بمقدورهن تصوّر عظمة انشاء عالم جديد. لم يكن همهن سوى الحب! انهن جاريات وأنت تستخدمهن كجاريات لتحقيق أهدافك.

قال: «بالتأكيد أنا أحبك».

- «ولكن أخبرني كل شيء، قل لي حقيقة ما يجري يا إدوارد. أريد أن أفهم».

- «انه العالم الجديد يا فيكتوريا. عالم جديد سيطلع من ركام ورماد العالم القديم».

- «أخبرني».

روى لها كل ما يجري ولقد كانت مأخوذة بالأمر رغماً عنها، كانت وكأنها في حلم، ستكون الحرب بين أولئك «العجائز الأثرياء» المتمسكين بثرواتهم من جهة والشيوعيين الأغبياء الذين يريدون بناء جنة كارل ماركس. سوف تكون الحرب شاملة وسيدمر كل شيء. ومن بعدها ستتشنأ الجنة والأرض الجديدة. ولن يبقى سوى عصابة صغيرة من البشر المختارين، العلماء، خبراء الزراعة، والمختصين - أناس شبان مثل إدوارد - وحدهم سكان العالم الجديد. كلهم شبان وكلهم مؤمن بأنه رجل خارق. حين سيحل الدمار، سوف يخرجون ويسيطرون على العالم.

كان هذا جنوناً. لكنه جنون بناء.

قالت فيكتوريا: «ولكن ألا تفكر في كل هؤلاء الناس الذين سيموتون؟».

قال إدوارد: «انت لا تفهمين. هذا الأمر لا أهمية له».

لا يهم - لقد كانت هذه عقيدة إدوارد. كل هذه الآلاف من الناس العاديين الذين لا همّ لهم سوى الحياة بشرف، هؤلاء الذين يزرعون الأرض ويعملون بجهد لتربية عائلاتهم. كل ضحكاتهم وكل بكائهم وصحواتهم المبكرة ورقادهم لا معنى لها بالنسبة لإدوارد. وهي

بعكسه تماماً حيث يهتمها هؤلاء الناس وليس أولئك الملائكة الملاحين الذين يريدون إنشاء عالم جديد غير أبيهين بكل ما سيحصل من قتل ودمار.

وتابعت بحذر شديد. لأنها شعرت ان الموت هنا في ديفونشاير قريب جداً، وقالت:

- «أنت رائع يا إدوارد. ولكن ماذا في شأني؟ ماذا أستطيع أنا أن أفعل؟».

- «هل تريدين - مساعدتنا؟ هل تؤمنين بهذا؟».

اصبحت حذرة. تحولها هذا السريع قد يكون مريباً بعض الشيء.

- «أظن اني أومن بك فقط! سأفعل كل ما تريدين أن أفعله يا إدوارد».

قال: «أنت فتاة عاقلة».

- «لقد جئت الى هنا لنخطط لأمر ما. لا بد من سبب لمجيئنا؟».

- «بالتأكيد هناك سبب مهم. هل تذكرين حين نظرت اليك يوم التقينا لأول مرة؟».

قالت فيكتوريا: «أجل أذكر».

(ايها الغبي. كم كنت متعجباً، لقد تكلفت الابتسام يومذاك).

- «لقد صدمني تكوين وجهك من الجنب، شبهك بأحد ما. لقد حددت فيك يومها لأتأكد من الشبه».

- «من أشبه؟».

- «تشبهين امرأة سببت لنا الكثير من المتاعب - انها أنا شيل».

– «آنا شيل؟» وحدقت فيه فيكتوريا في ذهول كامل. كان هذا آخر ما كان يمكن أن تتوقعه، «هل تعني انها تشبهني؟».

– «أجل الى حد بعيد وخاصة البروفيل. تقريباً الملامح نفسها. وهناك أيضاً أمر خارق. ان لديك وشماً صغيراً على شفتك العليا من ناحية الشمال».

– «أعرف. لقد كنت وقعت عن حصان خشبي وأنا طفلة. لكنه لا يظهر كثيراً وخصوصاً حين أضع أحمر شفاه».

– «آنا شيل أيضاً لديها الوشم نفسه وفي المكان عينه. هذه كانت نقطة مهمة جداً. ان لها تكوينك ووزنك، لكنها أكبر منك بأربع أو خمس سنوات. الفرق الوحيد البارز بينكما هو لون الشعر. هي شقراء وانت سمراء. وطريقتك في تزيين شعرك مختلفة تماماً عنها. زرقة عينيك أعمق، لكن هذا يمكن أن يسوى بواسطة عدستين لاصقتين ملونتين».

– «ولهذا أردتني أن احضر الى بغداد؟ لأنني أشبهها».

– «أجل خطر لي ان هذا التشابه سيكون مفيداً في أحد الأيام».

– «إذن لقد خططت للأمر منذ البداية... وعائلة كليب - من كانا؟».

– «لا أهمية لهذا. إنهما ينفذان فقط الأوامر».

أحست فيكتوريا بضيق كما لو انه قال بلامبالاة غير إنسانية: «إنهما يطيعان فقط».

كان هذا المشروع المجنون برمته يوحي بنكهة دينية مغايرة. خطر لها «ان إدوارد هو إله نفسه. وهذا كان مخيفاً جداً».

وقالت بصوت مرتفع:

- «لقد قلت لي ان أنا شيل كانت الرئيسة، ملكة النحل. هل هي معك أو ضدك؟».

- «لقد قلت لك هذا لأضلك. كنت تعرفين إن ذاك أكثر من اللزوم».

- فكرت فيكتوريا: «لولم أكن أشبه أنا شيل لكنت الآن في عداد الموتى». ثم أردفت، «من هي في الحقيقة؟».

- «إنها سكرتيرة أوتو مورغانثال الخاصة. انه رجل مصارف اميركي. ولكن ليس هذا كل ما تفعله. انها دماغ مصري خارق. نعتقد انها استطاعت اكتشاف عدد كبير من عملياتنا المصرفية. ثلاثة أشخاص شكلوا خطراً علينا وهم روبيرت كروفتون لي وكارمايكل اللذان تخلصنا منهما. ولم يبق هناك سوى أنا شيل. سوف تصل بعد ثلاثة أيام الى بغداد. انها الآن مختلفة».

- «اختفت؟ أين؟».

- «في لندن. لقد اختفت ظاهرياً عن صفحة الكرة الأرضية».

- «الا يعرف أحد أين هي؟».

- «أعتقد ان داكين يعرف أين؟».

فكرت فيكتوريا: «ولكن داكين لا يعرف. كانت فيكتوريا تعلم ذلك. إذاً أين هي أنا شيل؟».

سألته: «أليست لديك أدنى فكرة عن مكان وجودها؟».

قال إدوارد في ببطء: «لدينا فكرة».

- «حسناً».

- «من الضروري أن تأتي أنا شيل الى بغداد لحضور

الاجتماع . انه سيحصل كما تعرفين بعد خمسة أيام» .

- «أبهذه السرعة . لم أكن أعرف» .

- «اننا نسجل أسماء كل الداخلين الى هذه البلاد . لن تأتي بالتأكيد باسمها الحقيقي . ولن تحضر في طائرة تابعة للحكومة . لدينا وسائلنا للتأكد من هذا . لقد تحرينا عن كل الحجوزات الخاصة . هناك حجز في شركة الطيران البريطانية باسم غريتا هاردن . لقد تحرينا في شأنها واتضح ان ليس هناك أحد بهذا الاسم . انه اسم مزيف . والعنوان مزيف أيضاً . اننا نعتقد ان غريتا هاردن هي آنا شيل بالذات» .

وأضاف :

- «سوف تحط طائرتها في دمشق بعد غد» .

- «وماذا سيحصل؟» .

نظر اليها إدوارد فجأة وقال :

- «هنا يأتي دورك يا فيكتوريا» .

- «أنا؟» .

- «سوف تحلين مكانها» .

تلفظت فيكتوريا في تمهل : «مثملاً حدث مع روبرت كروفتون لي» .

همست لنفسها : لقد قتلوا كروفتون بالأسلوب عينه . وبالتأكيد

سقتل آنا شيل أو غريتا هاردن ان هي حلت مكانها .

كان إدوارد ينتظر . ولو خامره الشك لحظة في ولائها لكانت

ستموت حتماً . وستموت من غير ان يتسنى لها تحذير احد .

لا يجدر بها أن توافق بل يجب أن تتحين فرصة للإتصال
بداكين.

تنفست عميقاً وقالت:

- «أنا. أنا. آه، لكن يا إدوارد لا يمكنني أن أفعل ذلك سوف
يكتشفون أمري. لا أستطيع التحدث بلهجة أميركية».

- «ليس لدى أنا شيل أية لهجة معينة. على أية حال ستقولين
انك تعانين من التهاب في الحنجرة. وسيثبت ذلك أحد أهم
الأطباء».

فكرت فيكتوريا: «ان لديهم عملاء في كل المجالات».

سألته: «ماذا يتوجب علي أن أفعل؟».

- «ستسافرين من دمشق الى بغداد بدل غريتا هاردن. ثم
تتوجهين مباشرة الى سريرك. سوف يقوم أحد الأطباء المشهورين
بزيارتك مباشرة قبل وقت الاجتماع، وسيسمح لك بمغادرة الفراش.
وبعدها ستتوجهين الى الاجتماع وستقدمين المستندات التي
حملتها معك».

سألت فيكتوريا: «المستندات الحقيقية؟».

- «بالطبع لا. سوف نستبدل بها مستندات مزيفة».

- «ماذا كانت ستكشف تلك المستندات؟».

ابتسم إدوارد وقال: «ان فيها تفاصيل أضخم مخطط للشيوعية
في أميركا».

فكرت فيكتوريا: «يا له من مخطط بارع».

وقالت بصوت مرتفع: «هل تعتقد فعلاً يا إدوارد اني سأنجح في هذا؟».

كانت تلعب دوراً. كان من السهل عليها أن تدعي الجدية والقلق.

- «أنا واثق انك تستطيعين. انك بارعة في هذا المجال ومقنعة الى حد بعيد».

قالت فيكتوريا بغصة، مخاطبة نفسها: «كم كنت غبية حين صدقت قصة عائلة هاميلتون كليب».

ضحك هو في كبرياء.

فيكتوريا التي أبقت فوق وجهها قناع الإفتتان به، فكرت لنفسها بخبث: «لكنك كنت أحمق أيضاً حين زل لسانك بقصة الأسقف البصرة. لو لم تفعل لما كنت اكتشفتك على حقيقتك البتة».

قالت له فجأة: «ماذا في شأن الدكتور راسبون؟».

- «ماذا تعنين بذلك؟».

- «هل هو مجرد واجهة؟».

عض إدوارد شفثيه مبتهجاً وفي قسوة.

- «راسبون مضطر الى التعامل معنا. اتعرفين ماذا كان يفعل كل هذه السنوات. كان يستخدم ثلاثة أرباع المداخل التي كانت تتدفق عليه من كل أنحاء العالم لأغراضه الشخصية. انه مخادع. لقد كشفنا أمره وهو رهينة بين أيدينا. نستطيع أن نشهر به في أي وقت. وهو يعرف هذا جيداً».

شعرت فيكتوريا للحال بعرفان جميل تجاه الرجل العجوز. قد يكون محتالاً - لكنه يعرف الشفقة - ولقد حاول أن ينقذها في الوقت المناسب.

قال إدوارد: «كل شيء يسير الآن لمصلحة عالمنا الجديد».

راود فيكتوريا: «إدوارد هذا الذي يبدو عاقلاً جداً، هو مجنون في الواقع. قد يصبح أي واحد مجنوناً إن حاول أن يتصور أنه إله. يقولون دائماً أن التواضع هو فضيلة مسيحية، والآن يمكنني أن أعرف لماذا. إن التواضع هو الذي يحفظ الإنسان عاقلاً لا بل مخلوقاً بشرياً...».

نهض إدوارد.

قال: «حان الوقت للذهاب. يجب أن نوصلك الى دمشق لأز مخططنا هنا سينفذ بعد الغد».

نهضت فيكتوريا في رشاقة. ستكون في مأمن من إدوارد ما أن يبتعدا عن ديفونشاير ويعودا الى بغداد حيث الازدحام، وفندق تيو، وماركوس الزاعق طوال الوقت. كان عليها أن تلعب دوراً مزدوجاً. أن تتابع خداع إدوارد بطاعتها العمياء والمرضية له، وأن تحاول في سرية تدمير مخططاته.

قالت له: «هل تعتقد أن السيد داكين يعرف مكان اختباء أنا شيل؟ ربما أستطيع أنا أن أكتشف هذا منه. أن أحصل على مفتاح ما لهذا السر».

- «لا أعتقد هذا. في مطلق الاحوال أنت لن تري داكين بعد الآن».

قالت فيكتوريا وهي تكذب وقد هزتها ارتعاشة من الخوف: «لقد طلب إلي أن ألتقيه هذه الليلة، سوف يرتاب إن لم أفعل».

قال إدوارد: «لا يهمننا ما قد يخطر له في هذه المرحلة. لقد أعدنا الخطة. لن يراك أحد في بغداد بعد الآن».

- «لكن يا إدوارد. ان متاعي كله موجود في فندق تيو! لقد حجزت غرفة».

الشال. الشال الثمين.

- «لن تحتاجي إلى متاعك الآن، ليس قبل انتهاء العملية. لقد جهّزت لك ثوباً خاصاً. تعالي».

ركبا في السيارة من جديد. وفكرت فيكتوريا: «كان يجب أن أعرف أن إدوارد ليس غيباً ليسمح لي بالاتصال بداكين بعد أن اكتشفت أمره. انه يعتقد اني مغرمة ومأخوذة به. أجل أظن انه واثق من هذا. لكنه في مطلق الأحوال غير مستعد للمجازفة».

قالت له: «ألن يفتشوا عني، ان أنا اختفيت فجأة؟...».

- «سوف نهتم بهذا. ظاهرياً سوف تودعينني عند الجسر وستوجهين لزيارة أصدقاء عند الضفة الغربية من النهر».

- «وماذا سيحدث بالفعل؟».

- «انتظري وسترين».

جلست فيكتوريا صامئة بينما راحت السيارة تنعطف قاطعة طرقات غير معبدة وبساتين نخيل وجسوراً.

تمتت فيكتوريا: «لو فارح، لو فقط نعرف ماذا قصد كارمايكل بذلك».

ثم قفز قلب فيكتوريا فجأة وانبرت:

- «آه. نسيت أن أخبرك. لا أعرف ماذا يعني هذا، ولكن أ. م. لوفارج جاء في أحد الأيام الى مركز التنقيب في تل أسود».

- «ماذا؟». وكاد إدوارد يوقف السيارة من شدة إثارته: «متى حدث ذلك؟».

- «آه! من أسبوع تقريباً. قال انه جاء من موقع ما للتنقيب في سوريا. حيث ينقب العالم باروث على ما أظن».

- «هل حضر رجلان يدعيان، أندريه وجوفيه حين كنت هناك؟».

- «آه. أجل كان أحدهما مريضاً. لقد دخل الى المنزل ليستريح».

قال إدوارد: «لقد كانا من رجالنا».

- «لماذا ذهبا الى هناك؟ أليبحثا عني؟».

- «لا. لم نكن نعرف انك هناك. لكن ريتشارد بايكر كان في البصرة حين كان كارمايكل هناك. نعتقد ان من المحتمل أن كارمايكل سرب له شيئاً ما».

- «قال ريتشارد ان أغراضه فتشت، هل وجدتم أي شيء؟».

- «لا. الآن فكري جيداً يا فيكتوريا. هل أتى لوفارج قبل أوبعد قدوم الرجلين؟».

جعلت فيكتوريا تفكر متظاهرة بالاهتمام الشديد، وكانت في الواقع تفكر في تلفيق تصرفات ما ستنسبها لهذا «الوفارج» الاسطوري.

- «أجل لقد جاء قبل يوم واحد من حضور الرجلين».

- «ماذا فعل؟».

- «حسناً. لقد ذهب الى مركز التنقيب مع الدكتور باونسفوت جونز. ثم توجه مع ريتشارد بايكر الى المنزل ليشاهد شيئاً ما في غرفة المعدات».

- «هل توجه الى المنزل مع ريتشارد بايكر. هل تحدثا الى بعضهما؟».

- «بالطبع. أعني. هل يمكن أن يشاهد معاً شيئاً ما صامتين، هل تتصور هذا؟».

تمتم إدوارد: «لوفارج. من هو لوفارج. لماذا لم ننجح أبداً في اكتشافه؟».

تاقت فيكتوريا لأن تقول: «انه شقيق السيدة هارس» لكنها امتنعت. لقد ابتهجت لتلقيها قصة السيد لوفارج، كانت تستطيع الآن تخيل شكله. رجل نحيل جداً، أسود الشعر بشارين قليلين. وحين سألها إدوارد عن مواصفاته، جعلت تكرر له هذا في دقة.

كانا يتقدمان الآن في ضواحي بغداد. ثم انعطف إدوارد ليتابع في طريق جانبية تحيط بها فيلات حديثة أوروبية الطراز محاطة بحدائق وشرفات. أمام أحد البيوت وقفت سيارة كبيرة فتوقف إدوارد خلفها وخرجاً هو وفيكتوريا من السيارة. ثم صعدا الدرجات أمام الباب الخارجي.

خرجت امرأة نحيلة سمراء للقائهما وتحدث اليها إدوارد معجلاً باللغة الفرنسية. لم تكن فرنسية فيكتوريا جيدة لتفهم كلياً ماذا قال لها، ولكنها فهمت ما معناه، ان هذه هي الفتاة وانه ينبغي تنفيذ خطة التبديل على الفور.

استدارت المرأة نحوها قائلة في تهذيب بالفرنسية: «تعالى معى ان كنت تسمحين».

قادت فيكتوريا الى داخل غرفة نوم حيث شاهدت ثوب راهبة قد بسط فوق السرير. أشارت اليها المرأة، فخلعت فيكتوريا ملابسها وارتدت الثوب الجوخ الضخم الأسود اللون. ثم سوت لها المرأة الفرنسية غطاء الرأس. نظرت فيكتوريا الى نفسها في المرأة. بدا وجهها أوما تبقى منه تحت القماشة البيضاء التي غطت ذقنها نقياً وملائكياً. ثم انتعلت حذاء واسعاً جداً وعجيب الشكل وخرجت لتعود الى إدوارد مجدداً.

قال موافقاً: «يبدو شكلك مقنعاً. أبقي عينيك خفيضتين وخصوصاً في حضور الرجال».

ثم انضمت المرأة الفرنسية اليهما بعد قليل وكانت ترتدي ثوباً مشابهاً لثوبها. وخرجت الراهبتان من المنزل وصعدتا في السيارة الكبيرة، حيث جلس رجل طويل أسمر في ثياب أوروبية وراء المقود.

قال إدوارد: «اننا نعتمد عليك الآن يا فيكتوريا. تصر في تماماً كما قلت لك».

شعرت فيكتوريا بنبرة مهددة في كلماته.

قالت فيكتوريا في بساطة، «ألن تأتي معنا يا إدوارد؟».

ابتسم لها. وقال: «سوف ترينني بعد ثلاثة أيام. ثم تتم بطريقته المراوغة المعهودة: «لا تخيبي ظنّي يا حبيبتي. أتمنى أن تنجزى الأمر. أحبك يا فيكتوريا. لن أجرؤ على تقبيل راهبة، لكنى أحب أن أفعل هذا».

أخضت فيكتوريا عينها موافقة وكأنما هي راهبة بالفعل. ولم يكن ذلك إلا لإخفاء غضبها الذي ما استطاعت إخفاءه في تلك الدقيقة.

فكرت: «يا له من يوحاس مخيف».

عوضاً عن ذلك قالت بطريقة جدية: «حسناً، يبدو انني حقاً جارية مسيحية».

قال إدوارد، «هذه هي فتاتي»، وأضاف، «لا تجزمي ان أوراقك الثبوتية المزيفة منجزة بشكل ممتاز. لن تلاقي أية صعوبة مع الجمارك السورية. اسمك الجديد كونك راهبة هو الأخت ماري دو أونج. الأخت تيريز التي ترافقك معها كل المستندات وهي المسؤولة عن كل شيء بحق السماء أطيعي الأوامر. وأحذر في صراحة وإلا ستدفعين الثمن».

تراجع، لَوَّح بيده في حيوية وانطلقت السيارة الكبيرة. تراجعت فيكتوريا واتكأت على المقعد وراحت تفكر في كل الاحتمالات. يمكنها وهم يعبرون بغداد أو عند نقطة التفتيش الحدودية أن تقوم بحركة ما، أن تصرخ طالبة النجدة، وأن تشرح انها اختطفت رغماً عنها. أو ادعاء أي احتجاج من أي نوع.

ماذا سيحقق لها ذلك؟ في مطلق الأحوال لن يحقق ذلك سوى نهاية فيكتوريا جونز. لقد كانت لاحظت أن الأخت تيريز حشرت تحت ساعدها مسدساً صغيراً من النوع الأوتوماتيكي. بالتأكيد لن يفسحوا لها المجال لتنفوه بأي حرف.

أو انها تستطيع الانتظار حتى يصلوا الى دمشق؟ وهناك تنفجر

صارخة. ولكن ماذا يمنع أن يصيبها المصير نفسه. أو أن الراهبة الأخرى والسائق سوف يدحضان ادعاءها بواسطة الأوراق الثبوتية. قد يقدمان أوراقاً تثبت أنها متخلفة عقلياً.

كان أفضل حل لها هو أن تتابع الى آخر الأمر - وأن تستسلم للمخطط.

أن تعود الى بغداد بدل أنا شيل وأن تلعب دورها حتى النهاية، ولو فعلت هذا لا بد أن تحين فرصة أو مناسبة لن يستطيع إدوارد خلالها مراقبة لسانها أو تصرفاتها. ولو استطاعت أن تتابع مقنعة إدوارد أنها ستنفذ الأمور حسب رغبته، فستصل الى الوقت الذي ستقف فيه مع مستنداتها المزيفة أمام أعضاء الاجتماع - ولن يكون إدوارد هناك.

ولن يستطيع أحد منعها عن قول: «أنا لست أنا شيل وكل هذه الأوراق مزورة وغير صحيحة».

تساءلت في نفسها: هل يعقل أن هذا الأمر لم يكن قد خطر ببال إدوارد. ولكنها تذكرت أن نية الشر غالباً ما تكون عمياء. ومن ناحية أخرى كان من الضروري أن يكون لدى إدوارد وجماعته أنا شيل أخرى ان نجحت خططهم في اختطافها. لم يكن أمراً سهلاً بالنسبة اليهم العثور على فتاة تشبه أنا شيل وأن يكون لديها وشم الشفة العليا نفسه. لا ان هؤلاء الرجال «السوبرمان» في حاجة ماسة الى فيكتوريا جونز السكرتيرة. وكان هذا يضعها في مركز قوة وليس العكس.

أسرعت السيارة فوق الجسر. نظرت فيكتوريا الى دجلة في حنين.

ثم انطلقوا معجلين على الأوتوستراد الواسع والمغبر. مررت فيكتوريا
أناملها فوق السبحة وقد أعطاهما هذا شعوراً مطمئناً.

فكرت فيكتوريا وقد غمرها فجأة شعور بالاطمئنان: «في النهاية
أفضل أن أكون شهيدة مسيحية على أن أكون ملكة بابل. ويبدو أن
هناك احتمالاً كبيراً في أن أصبح شهيدة. آه. حسناً في مطلق
الأحوال لن تأكلني الأسود. أنا أكره الأسود».

الفصل الثالث والعشرون

- ١ -

هبطت الطائرة الضخمة من طراز سكاي ماستر وحطت على المدرج بشكل ممتاز. ثم نزل الركاب. وانفصل أولئك المتوجهون الى البصرة عن الذين كانوا سيركبون طائرة ستقلهم بعد وقت الى بغداد.

في المجموعة الثانية المتوجهة الى بغداد كان هناك أربعة ركاب، بينهم رجل أعمال عراقي ثري المظهر، وطبيب انكليزي شاب وامرأتان.

تقدمت فتاة سمراء ذات شعر أشعث ووجه متعب.

- «السيدة باونسفوت جونز؟ بريطانية. أجل. للالتحاق بزوجك ما هو عنوانك في بغداد لو سمحت؟ أي نوع من العملة تحملين؟».

ثم جاء دور المرأة الثانية.

«غريتا هاردين. أجل. ما جنسيتك؟ دانماركية. من لندن. ما هدف زيارتك؟ مدلكة في مستشفى؟ ما العنوان في بغداد؟ أي نوع من العملة تحملين؟».

كانت غريتا هاردن شابة نحيلة جميلة الشعر وكانت تضع نظارة سوداء. كان أحمر الشفاه يخفي الوشم على شفرتها. كانت ترتدي ثياباً أنيقة انما قديمة بعض الشيء. كانت تتكلم الفرنسية بشكل سييء وكانت تسأل أحياناً أن يعيدوا عليها طرح السؤال.

أبلغ الركاب الأربعة أن الطائرة المتوجهة الى بغداد ستنتقل بعد الظهر. وانهم سينقلون الى فندق العباسية للاستراحة وتناول طعام الغداء.

كانت غريتا هاردن جالسة على سريرها حين طرق الباب. فتحتة ووجدت أمامها امرأة طويلة سوداء ترتدي زي شركة الطيران البريطانية.

- «أنا آسفة يا آنسة هاردن. أرجو أن تحضري معي الى مكتب شركة الطيران البريطانية. هناك إشكال بسيط يتعلق ببطاقة سفرك. تقدمي من هنا إن سمحت».

تبعث غريتا هاردن المضيفة عبر الرواق. الى حيث ارتفعت فوق باب وبأحرف ذهبية لوحة عليها اسم شركة الطيران البريطانية. فتحت المضيفة الباب ثم ابتعدت لتدخل غريتا هاردن. وبسرعة أقفلت الباب من الخارج وانتزعت اللوحة.

ما إن دخلت غريتا هاردن حتى انقض عليها رجلان من الخلف وغمرا رأسها بقطعة من القماش. ثم حشرا في فمها قطعة كبيرة من القطن. رفع أحدهما كمها وغرز إبرة في ذراعها.

بعد دقائق قليلة تراخى جسمها وفقدت الوعي.

ثم قال الطبيب الشاب في انشراح: «هذه الإبرة سيستمر

مفعولها لست ساعات. والآن قوما أنتما بتنفيذ الباقي».

ثم هز رأسه متطلعاً الى اثنتين أخريين في الغرفة. كانتا راهبتين قاعدتين من دون حراك قرب النافذة. خرج الرجال من الغرفة. توجهت الأكبر سنأ الى غريتا هاردن وخلعت عنها ثيابها. الراهبة الشابة ارتجفت بعض الشيء وبدأت تخلع هي أيضاً رداءها. كانت غريتا هاردن ممددة على الفراش ومرتدية ثياب راهبة. وكانت الراهبة الشابة في ملابس غريتا هاردن.

انتهت الراهبة الأكبر سنأ الى شعر رفيقتها الأشعث. حملت صورة فوتوغرافية وراحت تمشط وترتب لها شعرها مرسله إياه الى الخلف بعيداً عن جبهتها ليسترسل فوق رقبتها.

ثم تراجعت وقالت بالفرنسية:

«أمر مذهل كيف تغير هذه التصفيفة شكلك! ضعي النظارة السوداء. عينك زرقاوان وقامتان. أجل هكذا رائع».

سمع طرق خفيف على الباب ثم دخل الرجلان مجدداً. كانا يبتسمان.

قال أحدهما: «ان غريتا هاردن هي فعلياً أنا شيل. لقد عثرنا على المستندات لقد كانت موضبة بعناية بين نشرات دانماركية عن رسالة المستشفيات. والآن يا أنسة هاردن»، وانحنى بسخرية أمام فيكتوريا أتشرف بدعوتك لتناول الغداء معي».

تبعته فيكتوريا الى الخارج وعبر الرواق ورأت امرأة أخرى تحاول ارسال برقية. كانت تقول: «لا. ب. ا. ن. س. ف. ف. ث. الدكتور باونسفوت جونز. سأصل اليوم الى فندق تيو. رحلة موفقة».

نظرت اليها فيكتوريا فجأة في اهتمام. لا بد وانها زوجة الدكتور باونسفوت وهي قادمة للانضمام اليه. لقد أتت قبل أسبوع من الموعد، لكن هذا لم يفاجم فيكتوريا لأن الدكتور باونسفوت تدمر أكثر من مرة بسبب فقدانه رسالتها التي تحدد فيها موعد قدومها. ولكنه كان شبه أكيد انه السادس والعشرون من الشهر.

لو تستطيع بطريقة أو بأخرى ارسال رسالة فقط عبر السيدة باونسفوت الى ريتشارد بايكر..

وكما لو أن الرجل الذي كان يرافقها قرأ أفكارها، فأمسكها بذراعها وأبعدها عن المكتب الذي وقفت عنده السيدة باونسفوت. - «الأحاديث ممنوعة مع المسافرين الآخرين يا آنسة هاردن». وأردف قائلاً، «لا نريد هذه المرأة الطيبة أن تلاحظ انك لست تلك التي حضرت معها في الطائرة من انكلترا».

ثم اصطحبها الى خارج الفندق لتناول طعام الغداء. وحين عادا كانت السيدة باونسفوت جوائز تنزل الدرج داخل الفندق. حيث كانت فيكتوريا من غير أن تشك أبداً في أي شيء.

«هل كنت في رحلة استطلاعية؟»، وأضافت، «أنا متوجهة الى الاسواق».

فكرت فيكتوريا: «لو استطيع أن ادس شيئاً ما فقط في حقائبها...».

لكنها لم تترك وحدها دقيقة واحدة.

انطلقت طائرة بغداد عند الساعة الثالثة.

كان مقعد السيدة باونسفوت جونز في المقدمة. وكان مقعد فيكتوريا في مؤخرة الطائرة قرب الباب. وبينهما في وسط المسافة تقريباً جلست سجانتهما. كان من المستحيل أن تصل فيكتوريا الى المرأة الأخرى أو أن تدس في متاعها رسالة.

لم تكن الرحلة طويلة. ونظرت فيكتوريا مرة أخرى الى منظر المدينة من الجو. كانت رآته أيضاً منذ أقل من شهر. وكم جرت أحداث منذ ذلك التاريخ!

بعد يومين سوف يلتقي هنا رجال يمثلون الأيديولوجيتين المسيطرتين على العالم. وسوف يناقشون مستقبل العالم. وسيكون لها هي فيكتوريا جونز دور في هذا.

- ٢ -

قال ريتشارد بايكر: «في الحقيقة أنا قلق في شأن تلك الفتاة».

قال الدكتور باونسفوت جونز في غرابة:

- «أي فتاة؟».

- «فيكتوريا».

- «فيكتوريا؟». حدّق الدكتور باونسفوت في الاتجاهات، «أين

هي؟ - بحق الله. لقد عدنا من دونها في الأمس».

قال ريتشارد: «أتساءل ان كنت لاحظت ذلك».

- «يا لي من مهمل. لقد انغمست كلياً في ذاك التقرير الذي

وصلني من البعثة التي تعمل على تل بمدار. ألم تعرف هي مكان

وجود الشاحنة؟».

قال ريتشارد: «كان من المستحيل أن تعود الى هنا، في الواقع انها ليست فينيسيا سافيل».

«ليست فينيسيا سافيل؟ هذا عجيب. لكني أذكر انك قلت ان اسمها هو فيكتوريا».

- «هذا صحيح. لكنها ليست عالمة آثار. وهي لا تعرف إمرسون. في الحقيقة كان كل الامر مجرد سوء تفاهم».

- «آه. يبدو الامر غريباً جداً. أتمنى - هل أنا مذنب؟ أعرف اني ساهم معظم الوقت. لقد قرأت ربما رسالة أخرى؟».

قال ريتشارد بايكر مرتعداً وغير آبه للدكتور باونسفوت: «لا أستطيع أن افهم. لقد غادرت في سيارة مع شاب، ويظهر انهما لم يعودا. أكثر من هذا، فقد كانت حقائبها هناك ولم تكلف نفسها بفتحها. يبدو الامر مريباً - ان أخذنا بعين الاعتبار الوضع الصعب الذي تواجهه لقد اتفقنا أن نلتقي بعد الغداء... لا أستطيع ان افهم. أتمنى أن لا يكون حصل لها أي سوء».

ثم أردف ريتشارد: «لقد اختطفوها مرة من قبل. ما الذي سيمنعهم من اختطافها مجدداً؟».

قال الدكتور باونسفوت: «هذا غير معقول. هذا غير معقول».

- «لو أستطيع أن اذكر فقط اسم ذاك الرجل في شركة النفط. هل كان ديكون؟ ديكون، داكين؟ أو ما يشابه هذا».

قال الدكتور باونسفوت: «لم أسمع به البتة».

- «هل يزعجك يا سيدي لو عدت غداً الى بغداد؟».

- «غداً؟ ولكلك كنت هناك البارحة؟».

- «أنا قلق بشأن تلك الفتاة. أنا قلق جداً».
- «رباه، يا ريتشارد، لم أكن أعرف أن بينكما شيئاً من هذا النوع».

- «أي نوع؟».

- «أنا على علاقة معها. هذه ظاهرة سيئة احضار نساء الى بقعة تنقيب. وخصوصاً الجميلات منهن. ان فيكتوريا أو فينيسا جذابة جداً ولطيفة أيضاً. أنت تملك ذوقاً جيداً يا ريتشارد. اعترف بهذا هذا غريب، انها أول فتاة تنال إعجابك من بين اللواتي أعرفهن».
رد ريتشارد وقد احمر خجلاً: «ليس بيننا أي شيء من هذا النوع. اني فقط.. آه.. قلق في شأنها. يجب أن أعود الى بغداد».
قال الدكتور باونسفوت: «حسناً إن كنت ستذهب غداً، احضر معك تلك الاشياء التي نسيها هذا السائق الغبي هناك».

انطلق ريتشارد الى بغداد باكراً عند الفجر وتوجه مباشرة الى فندق تيو. وهناك أعلموه أن فيكتوريا لم تعد بعد.
قال ماركوس: «لقد كنت على موعد معها لتناول طعام العشاء، ولقد حجزت لها غرفة جيدة. هذا غريب اليس كذلك؟».

- «هل أعلمت الشرطة؟».

- «آه. لا. يا عزيزي. لن يكون هذا لطيفاً، قد لا يعجبها ذلك. أنا متأكد انها ستنزِع من هذا».

استعلم ريتشارد عن مكان وجود السيد داكين وتوجه الى مكتبه.

لم تخذله ذاكرته في استرجاع الصورة التي رسمتها له فيكتوريا

عن الرجل. كان رجلاً محدودباً، ساهم الوجه. اعتذر من السيد
داكين وسأله إن كان رأى الأنسة فيكتوريا جونز.

- «لقد حضرت إلي منذ يومين».

- «هل تستطيع أن تعطيني عنوانها الحالي».

- «أظن أنها في فندق تيو».

- «ان حقائبها هناك لكنها ليست موجودة».

رفع السيد داكين حاجبيه قليلاً.

قال ريتشارد مفسراً: «لقد كانت تعمل هنا في التنقيبات في تل
أسود».

- «آه. فهمت. أعتقد اني لا أعرف شيئاً قد يساعدك. ان لديها
الكثير من الأصدقاء في بغداد. أعتقد هذا. ولكن معرفتي بها ليست
وثيقة الى درجة اني أعرف أسماء أصدقائها».

- «هل من المعقول أن تكون في مركز «غصن الزيتون؟»».

- «لا أعتقد هذا، يمكنك أن تسأل».

قال ريتشارد: «اسمعني هنا. أنا لن أغادر بغداد حتى أجدها».

عبس في وجه السيد داكين وأسرع خارجاً من الغرفة.

ما إن انغلق الباب خلف ريتشارد، حتى ابتسم السيد داكين
وهز رأسه.

همهم قائلاً: «آه منك يا فيكتوريا».

مندفعاً داخل فندق تيو التقى ريتشارد ماركوس وكان هذا
الآخر مبتسماً.

هتف ريتشارد متلهفأ: «لقد عادت، أليس كذلك».

«لا. لا انها السيدة باونسفوت جونز. انها ستصل اليوم في الطائرة، لقد سمعت هذا للتو. لقد قال لي الدكتور باونسفوت انها قادمة في الأسبوع المقبل».

- «انه يخطيء دائماً في المواعيد. ماذا عن فيكتوريا جونز؟».

تجهم وجه ماركوس مجدداً.

- «لا لم اسمع عنها شيئاً. وهذا لا يعجبني أبداً يا سيد بايكر. هذا بشع. انها فتاة صغيرة جداً. وجميلة جداً. ومرحة وفاتنة».

- «أجل، أجل»، قال ريتشارد مجفلاً، «من الأفضل أن أنتظر لأرحب بالسيدة باونسفوت جونز».

وتساءل: «ماذا بحق الله أصاب هذه الفتاة».

- ٣ -

- «أنت!» قالت فيكتوريا بعدائية فاضحة.

كانت فيكتوريا سعدت الى غرفتها في فندق قصر بابل. وأول شخص رآته كان كاترين.

أحنت فيكتوريا رأسها بكراهية موازية.

قالت: «أجل. هذا أنا. والآن ان سمحت الى الفراش. سيصل الطبيب قريباً».

كانت كاترين ترتدي زي ممرضة مستشفى وكانت تقوم بواجباتها بجدية. وبدا واضحاً انها مصممة على عدم الابتعاد عن

فيكتوريا لحظة واحدة. استلقت فيكتوريا على الفراش ممتعة وتمتعت:

- «لو أستطيع فقط الاتصال بإدوارد».

- «إدوارد، إدوارد، رددت كاترين ساخرة، «إن إدوارد لم يهتم بأمرك أبداً أيتها الفتاة الانكليزية الحمقاء. انه يحبني أنا».

نظرت فيكتوريا الى وجه كاترين العنيد بغير مبالاة.

وتابعت كاترين:

- «لقد كرهتك منذ لحظة حضورك يوم جئت وسألت بفضاظة عن الدكتور راسبون».

فتشت فيكتوريا عن كلام مثير للغضب وقالت: «في مطلق الاحوال ان دوري أساسي؛ في مقدور أية واحدة أن تلعب دور ممرضة مستشفى. لكن الامر برمته يتعلق بالدور الذي ألعبه أنا».

قالت كاترين بازدياء:

- «لا أحد أساسياً. هذا ما تلقناه».

- «في الواقع. أنا مهمة جداً. بحق السماء اطلبي وجبة إضافية. ان لم تحضري لي الطعام كيف تتوقعين مني أن ألعب بنجاح دور سكرتيرة مصري أميركي مهم، حين يحين وقت ذلك؟».

قالت كاترين: «أظن انه ينبغي أن تأكلي كلما سنحت لك الفرصة».

لم تهتم فيكتوريا للملاحظة كاترين الغامضة.

قال الكابتن كروسبي:

- «أفهم منك أن الأنسة هاردن وصلت للتو؟».

أحنى الموظف الشاب في فندق قصر بابل رأسه موافقاً.

- «أجل يا سيد. لقد جاءت من انكلترا».

- «انها صديقة لشقيقتي. هل تستطيع أن توصل اليها بطلاقتي؟».

كتب بضع كلمات على البطاقة وبعثها الى فوق داخل مغلف.

عاد الآن الفتى الذي كان صعد بالبطاقة.

- «ليست السيدة على ما يرام يا سيدي. لديها التهاب في حنجرتها. سيأتي الطبيب عاجلاً. يوجد في الغرفة معها ممرضة مستشفى».

استدار كروسبي مغادراً. توجه الى فندق تيو حيث استقبله ماركوس.

- «آه. يا عزيزي تعال نتناول كأساً من المشروب. فندقي هذه الليلة محجوز كلياً. هذا بسبب الاجتماع. ولكن للأسف، لقد غادر الدكتور باونسفوت جونز الى مركز التنقيب ما قبل البازحة، ولقد وصلت زوجته وكانت تتوقع انه سيكون في انتظارها. وهي ليست سعيدة البتة. لا! قالت انها أخبرته انها ستصل في هذه الطائرة. هل تعرف من يشبهه. انه يشبه ذاك الرجل هناك. انه يخطيء دائماً في التواريخ وفي التوقيت. لكنه رجل لطيف جداً».

- «تبدو بغداد مجنونة اليوم».

- «الشرطة منتشرة في كل مكان. انهم يتخذون اجراءات أمنية صارمة. يقولون - هل سمعت؟ ان هناك مخططاً شيوعياً لاغتيال الرئيس. لقد اعتقلوا عدداً كبيراً من التلامذة. هل رأيت رجال الشرطة الروس؟ انهم يرتابون في أي كان. لكن كل هذا جيد للأعمال. جيد جداً بالفعل».

- ٥ -

رن جرس الهاتف وأجيب عليه في الحال.

- «السفارة الأميركية».

- «هنا فندق قصر بابل. هل الأنسة آنا شيل مقيمة عندكم؟».

- «آنا شيل؟». كان من يتكلم أحد موظفي السفارة. «هل تستطيع الأنسة شيل التحدث معي؟».

- «الأنسة شيل مريضة في الفراش، لديها التهاب في حنجرتها. أنا الدكتور سمول بروت. اني أعطني بها شخصياً. ان لديها مستندات مهمة وترغب في أن يحضر مسؤول من السفارة ويأخذها. حالاً؟ شكراً. سوف أكون في انتظارك».

- ٦ -

ابتعدت فيكتوريا عن المرأة. كانت ترتدي ثوباً أنيقاً جداً. كان شعرها الأشقر مصففاً بعناية. كانت عصبية المزاج ولكن منتبهة جداً.

حين استدارت رأت بريق ابتهاج في عيني كاترين، وأخذت

حذرهما على الفور. لماذا كانت كاترين مبتهجة؟

ماذا كان يجري؟

سألتها: «ما الذي يُبهجك؟».

- «سترين بعد وقت قريب».

كان الخبث واضحاً على وجهها.

قالت كاترين ساخرة: «هل تظنين انك حذقة؟ انك تعتقدين ان كل شيء متعلق بك. باه. انك لست سوى حمقاء».

قفزت فيكتوريا قفزة واحدة، أمسكتها من كتفها وغرزت أظافرها فيها.

- «قولي لي ماذا تعنين أيتها الفتاة البشعة».

- «آخ. انك تؤلميني».

- «قولي لي».

سمعت قرعاً على الباب. طريقة مزدوجة ثم بعد توقف طريقة وحيدة.

صرخت كاترين: «سوف ترين الآن».

فتح الباب وانسل رجل الى الداخل. كان رجلاً طويلاً مرتدياً زي بوليس دولي. أقفل الباب خلفه ونزع المفتاح. ثم تقدم نحو كاترين.

قال: «أسرعي».

انتشل حبلاً رفيعاً وقصيراً من جيبه وفي استسلام كلي من جانب كاترين قيدها إلى الكرسي. ثم أحضر قطعة من القماش وكَمَ فمها.

ثم تحول في اتجاه فيكتوريا. رأت الهراوة الثقيلة التي كان يحملها وعرفت فوراً ماذا كانت خططهم الحقيقية. لم تكن نيتهم ابداً أن تلعب هي دور آنا شيل في المؤتمر. لم يكن من المعقول أن يقوموا بهكذا مجازفة. كانت فيكتوريا معروفة جداً في بغداد. لا. كانت الخطة انهم سيقتلون آنا شيل في اللحظة الأخيرة وبطريقة بشعة لا يمكن بعدها التعرف الى ملامحها. لن يبقى سوى المستندات التي أحضرتها معها - تلك المزورة بعناية - وحدها المستندات ستبقى.

استدارت فيكتوريا في اتجاه النافذة - وصرخت. وتقدم اليها الرجل مبتسماً.

ثم حدثت أمور كثيرة. تحطم زجاج. قبضة انهالت على رأسها - رأت نجوماً - وظلمة.. ثم وهي تخرج من الظلمة سمعت صوتاً انكليزياً مطمئناً.

سألها الصوت: «هل أنت بخير يا آنسة؟».

تمتمت فيكتوريا شيئاً ما.

سأل صوت آخر: «ماذا قالت؟».

حكَّ الرجل الآخر رأسه.

قال مرتاباً: «لقد قالت انه من الافضل أن نخدم في الجنة، من ان نحكم في الجحيم».

قال الآخر: «هذا مثل رائج، لكنها التقطته مغلوطاً».

قالت فيكتوريا: «لا. هذا ليس صحيحاً». ثم غابت عن وعيها.

رَنَ جرس الهاتف فرفع داكين السَّاعة. قال صوت: «لقد تمت عملية فيكتوريا بنجاح».

قال داكين: «جيد».

- «لقد أمسكنا كاترين سركيس والطبيب. الرجل الآخر ألقى بنفسه عن الشرفة. لقد أصيب بجروح خطيرة».

- «هل الفتاة على ما يرام».

- «لقد فقدت وعيها. لكنها بخير».

- «لا اخبار بعد عن آ. ش. الحقيقية؟»..

- «لا اخبار إطلاقاً».

وضع داكين الساعة.

على أية حال فإن فيكتوريا بخير. لا بد وأن أنا الحقيقية قد قتلت... لقد كانت أصرت على أن تتصرف بمفردها، وأنها كررت انها ستكون في بغداد في التاسع عشر من الشهر. اليوم هو نهار التاسع عشر ولم تطل بعد. ربما كانت محقة في عدم ثقتها بالمسؤولين الرسميين - لم يكن متأكدًا. بالتأكيد كان هناك تسرب معلومات. خيانات. ولكن الواضح أن حذقتها الفطرية لم تصل بها الى نتيجة أفضل.

ومن دون أنا شيل كانت البراهين غير كاملة.

حضر ساعٍ حاملاً ورقة صغيرة كتب عليها: السيد ريتشارد بايكر والسيدة باونسفوت جونز.

قال داكين: «لا أستطيع أن أقابل أحداً الآن. قل لهما اني
اعتذر. أنا مشغول».

انسحب الساعي، ولكنه عاد سريعاً وناول داكين رسالة.

فتح داكين الرسالة وقرأ:

«أريد أن أراك لأمرٍ يتعلق بهنري كارمايكل. - الامضاء. ر.
ب.».

قال داكين: «أدخله».

دخل ريتشارد بايكر والسيدة باونسفوت جونز. قال ريتشارد
بايكر:

- «لا أريد أن اضيع وقتك، ولكنني كنت في المدرسة مع رجل يدعى
هنري كارمايكل. ثم ما عدنا التقينا لسنوات مديدة. ولكنني حين
كنت في البصرة منذ أسابيع التقيته في القنصلية في غرفة الانتظار.
كان متكرراً في ثياب عربية ومن غير أن يظهر أية معرفة بي، نجح
في الاتصال بي. هل هذا يهمك؟».

قال داكين: «هذا يهمني جداً».

كان فحوى الرسالة انه كان واثقاً انه في خطر شديد. وسرعان
ما تحقق هذا الخوف. لقد هاجمه رجل بواسطة مسدس ونجحت أنا
في إمساك يد ذاك الرجل. فرّ كارمايكل ولكنه قبل أن يفعل دس شيئاً
ما في جيبه، وقد اكتشفت ذلك لاحقاً. لم تبدُ الورقة ذات أهمية
بدت وكأنها مجرد تفاهة - انها ورقة أو شهادة توصية لواحد يدعى
أحمد محمد. ولكنني تصرفت على أساس أن هذه الورقة كانت مهمة
بالنسبة لكارمايكل ولما لم يعطني أية توجيهات. احتفظت بها بعناية

معتبراً أنه سيعود ويطلبني بها يوماً ما. ومنذ بضعة أيام عرفت من فيكتوريا أنه مات. وهذه كانت إحدى القصص الكثيرة التي أخبرتني إياها. ولقد قررت بناء على قصتها أنك الرجل المناسب الذي يجب أن أسلمه هذا الغرض.

نهض ووضع قطعة الورق المتسخة التي كتب عليها كارمايكل على مكتب داكين.

«هل تعني لك هذه الكلمات أي شيء؟».

تنهد داكين بعمق.

قال: «أجل. إنها تعني أكثر مما يمكنك أن تتصوره».

نهض من مكانه.

قال: «اني ممتن لك كثيراً يا بايكر. اعتذر لاني مضطر أن أقطع هذا اللقاء ولكن ينبغي أن أهتم بأمور كثيرة ولا يمكنني تضيق دقيقة واحدة». صافح السيدة باونسفوت جونز قائلاً: «أظن أنك ستلتحقين بزوجك في مكان التنقيب. أتمنى لك موسماً طيباً».

قال ريتشارد: «أمر جيد أن الدكتور باونسفوت جونز لم يحضر معي إلى بغداد هذا الصباح. المسكين لا يعرف ابداً ما الذي يجري حوله. ولكنه ربما سيلاحظ الفرق بين زوجته وشقيقتها».

نظر داكين متفاجئاً بعض الشيء إلى السيدة باونسفوت جونز. فقالت بصوت خفٍ وجميل:

«إن شقيقتي إليسي لا تزال في انكلترا. لقد صبغت شعري وسافرت حاملة جواز سفرها. اسم شقيقتي قبل الزواج هو إليسي شيل. يا سيد داكين أنا أدعى أنا شيل».



الفصل الرابع والعشرون

تغيّرت بغداد كلياً. ملأت الشرطة الشوارع. كان رجال الشرطة يتوافدون من الخارج. شرطة دولية. رجال شرطة روس وأميركيون وقفوا جنباً الى جنب بوجوههم الخالية من التعابير.

كانت الإشاعات تنتشر باستمرار. لن يأتي أي من الزعيمين حطت الطائرة الروسية مرتين - واتضح انها لم تكن تحمل سوى الطيار الروسي الشاب!

ولكن انتشر أخيراً في بغداد أن الأمور تسير بشكل جيد. لقد وصل رئيس الولايات المتحدة والديكتاتور الروسي الى بغداد. انهما في فندق ريجنت.

أخيراً سوف تقام القمة التاريخية.

وفي غرفة صغيرة كانت تحدث أمور كان يمكن أن تحوّل مجرى التاريخ. ومثلما يجري دائماً في اللقاءات المهمة لم تكن الاجراءات مثيرة البتة.

قدم الدكتور آلان بريك من معهد هارويل للعلوم الذرية مجموعة من المعلومات بصوت دقيق وباختصار. كان السير كروفونون لي ترك

له بعض العينات ليحللها. لقد كان السير كروفتون جلبها أثناء إحدى جولاته في الصين وكردستان وتركستان حتى العراق. الدكتور بريك يقدم الآن براهين علمية تقنية. كان الأمر يتعلق بمعدن خام يحتوي على كمية كبيرة من مادة الأورانيوم. لم يكن مكان هذه المعادن محدداً بالضبط إذ أن دفتر ملاحظات السير روبيرت ومذكراته كان قد أتلف أثناء الحرب بواسطة عملاء للعدو.

ثم تكلم السيد داكين وأخبر قصته. بصوته المتعب اللطيف. أخبر مغامرة هنري كارمايكل البطولية. وعن تصديقه لبعض الاشاعات والقصص الغريبة عن انشاءات هائلة وعن مختبرات أقيمت تحت الأرض في واد بعيد جداً وراء حدود المدينة. ثم عن بحثه عن المكان وعن نجاحه في اكتشافه. وكيف أن الرحالة العظيم السير روبيرت كروفتون لي، الذي صدّق كارمايكل لأنه كان يعرف تلك المناطق، وقَبِلَ أن يأتي إلى بغداد، وعن مقتله. وكيف لقي كارمايكل مصرعه على يد رجل ادعى زيفاً أنه السير روبيرت كروفتون لي.

لقد مات السير روبيرت ومات أيضاً هنري كارمايكل. لكن هناك شاهداً ثالثاً لم يزل على قيد الحياة وهو هنا اليوم. ودعا الأنسة آنا شيل لتقديم شهادتها.

قدّمت آنا شيل في هدوء وفي صرامة، كما كانت تتصرف في مكتب السيد مورغانثال، قوائم بأسماء وأرقام. وراحت تفسر انطلاقاً من معرفتها العميقة بالأمور المالية كيف عملت تلك الشبكة المالية السرية على سحب السيولة المالية من السوق، وصبّتها في تمويل نشاطات تسعى لتقسيم العالم المتمدن إلى قسمين متنازعين. لم

يكن هذا مجرد احتمال . ثم بيّنت وقائع وحسابات تدعم كل أقوالها .
اثباتاتها تلك زادت مصداقية قصة كارمايكل الغربية .

وتحدث داكين مجدداً :

«لقد مات هنري كارمايكل . لقد أحضر معه من رحلته الخطرة
براهين ثابتة ومحددة . لم يجرؤ على ابقاء تلك البراهين في عهده .
كان أعداؤه قريبين جداً منه . لكن كان لديه الكثير من الأصدقاء .
وبواسطة صديقين بعث تلك البراهين الى مكان أمين عند صديق
آخر . رجل يجلّه ويحترمه كل العراقيين ولقد شرفنا بحضوره الى هذا
اليوم . انه الشيخ حسين الزيارة من كربلاء» .

كان الشيخ حسين الزيارة مشهوراً جداً عبر كل العالم
الإسلامي كرجل دين وكشاعر معروف . كان الكثيرون يعتبرونه
تقياً . وقف الآن وكان وجهه جذاباً بلحيته البنية المحنّة . كانت
سترته مزنة بشرط ذهبي اللون . كان يضع فوق رأسه كوفية
خضراء يلفها عقال ذهبي . تكلم بصوت رخم:

«كان كارمايكل صديقي . عرفته صبيّاً ودرس عندي اشعار
شعرائنا العظام . حضر رجلاً الى كربلاء . رجلاً يجولان في البلاد
بصندوق للفرجة . انهما رجلاً بسيطان ولكن مؤمنان . أحضرا لي
رزمة قالوا ان صديقي كارمايكل طلب اليهما تسليمها لي باليد . كان
عليّ أن احتفظ بها سرّية وبأمان وأن أسلمها فقط لكارمايكل
بذاته . او الى رسول سيردد كلمات معينة . ان كنت أنت حقيقة
الرسول يا بني . قل لي هذه الكلمات» .

قال داكين : «يا سيدي . الشاعر العربي المتنبّي ، الذي ادعى

النبوة، والذي عاش قبل ألف عام كتب هذه القصيدة الى سيف الدولة في حلب وجاء في القصيدة:

زِدْ هَشْ بِشْ هَبِ اغْفِرْ ادِنْ سُرَّ صِلْ^(*).

قدم الشيخ حسين الزيارة مبتسماً الرزمة الى داكين.

- «سأقول كما قال سيف الدولة: «ستنال مبتغاك...»».

قال داكين: «سادتي توجد هنا أفلام أحضرها كارمايكل كإثباتات لقصته».

ثم تكلم شاهد آخر - وكان شخصاً بهيئة مأساوية محطمة. رجل عجوز كان يوماً رجلاً محترماً ومحبوباً في كل أنحاء العالم.

قال: «أيها السادة. قد أكون مجرد محتال من بدون شأن. ولكن هناك أشياء لا يمكنني أن أقبلها. هناك عصبية من الرجال. معظمها من الشبان يملكون في قلوبهم وفي أهدافهم كمية من الشر ما لا يمكن تصديقه».

ثم رفع رأسه وقال بصوت عظيم:

- «انهم مهرطقون. وأقول ان هذا ينبغي أن يتوقف. يجب أن نحصل على السلام. السلام لنشفي جروحنا ونقيم عالماً جديداً. ونفعل ما في وسعنا لنفهم بعضنا بعضاً. لقد كنت أنشأت مؤسسة لاكسب المال. ولكنني أقسم بالله اني انتهيت مؤمناً بما أبشر به. على

(*) هذا عجز بيت المتنبي التالي:

اقِلْ اِنْلِ اقْطع اِحْمِلْ عَلى سَلِّ اَعِذْ

زِدْ هَشْ بِشْ هَبِ اغْفِرْ ادِنْ سُرَّ صِلْ

الرغم من اني لا أمدح الأساليب التي استخدمتها. محبة بالله أيها السادة. دعونا نبدأ من جديد ونحاول أن نتشارك....».

حل صمت لبرهة ثم تكلم واحد بصوت رسمي، وقال في برودة بيروقراطية: «سوف نقدم هذه البراهين الى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، والى رئيس اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية».



الفصل الخامس والعشرون

قالت فيكتوريا: «ما يزعجني هو أمر تلك المرأة الدانماركية المسكينة التي قتلت خطأ في دمشق».

قال السيد داكين بمرح: «آه. انها بخير. ما إن أقلعت طائرتك، حتى قبضنا على المرأة الفرنسية وأخذنا غريتا هاردن الى المستشفى. انها بخير. كانوا سيبقونها مخدرة لبعض الوقت الى أن يتأكدوا من نجاح خطتهم في بغداد. لقد كانت بالطبع من جماعتنا».

- «هل هذا صحيح؟».

- «أجل. حين اختفت أنا شيل. كان ينبغي أن نشغل الطرف الآخر بأمر ما. وهكذا حجزنا بطاقة باسم غريتا هاردن وتقصدنا أن لا يكون لديها أي سجل. لقد وقعوا في الفخ. واستنتجوا على الفور ان غريتا هاردن لا بد وأن تكون أنا شيل. ولقد حملناها كدسة من الأوراق المزيفة لاثبات هذه الخدعة.

في هذا الوقت بقيت أنا شيل في هدوء كامل في المصحة الى أن حان وقت التحاق السيدة باونسفوت جونز بزوجها هنا.

أجل مخطط بسيط ولكنه فعال. لقد تصرفنا حسب الاعتقاد

الشائع الذي يقول انه في اوقات الشدة لا تستطيع ان تعتمد سوى على اهلك. انها امرأة ذكية جداً».

قالت فيكتوريا: «لقد ظننت حقاً انه قضي عليّ. هل كنتم تراقبونني؟».

- «طوال الوقت. لم يكن صاحبك إدوارد ذكياً جداً كما كان يعتقد. في الواقع لقد كنا نراقب تحركاته منذ وقت طويل. حين أخبرني قصتك ليلة مقتل كارمايكل. لقد قلقت جداً عليك، أقولها بكل صراحة.

كان أفضل ما يمكن أن أفكر فيه هو أن أرسلك عمداً الى عقر دارهم كجاسوسة. ولو عرف إدوارد انك على اتصال معي فستكونين في مأمن، لأنه كان سيعرف عبرك بما كنا نفكر فيه. ستكونين أئمن من أن تقتلي. وسيكون في وسعه أن يمرر لنا معلومات خاطئة عبرك. لقد كنت بسيطاً. ولكنك حين اكتشفت مسألة بديل السير كروفتون، فضل إدوارد أن يبعثك الى حين يحتاج اليك (لو انه احتاج اليك) كبديل عن أنا شيل. أجل يا فيكتوريا أنت محظوظة جداً جداً كونك جالسة بيننا الآن وتأكلين الفستق».

- «اعرف هذا».

قال السيد داكين: «هل كان يهكم أمر إدوارد... كثيراً؟».

حدقت فيه فيكتوريا بثبات.

- «لا. أبداً. لقد كنت مجرد حمقاء. لقد سمحت له أن يخذعني وأن يغويني. لقد افتتنت به كتلميذة صغيرة، تصورت أنني جولييت وكل تلك الأشياء الغبية».

- «لا يجدر بك أن تلومي نفسك كثيراً. إن لدى إدوارد موهبة طبيعية في جذب الفتيات».

- «أجل، ولقد استخدمها جيداً».

- «لقد استخدمها بالتأكيد».

قالت فيكتوريا: «حين سأغرم في المرة القادمة. لن أنجذب أبداً الى مظهره الخارجي ولا الى تألقه. أريد رجلاً حقيقياً - لا واحداً يتفوه بكلام فقط بكلام جميل. لن يهمني ان كان أصلع أو يضع نظارة طبية أو ما شابه. أريده أن يكون مهماً - وأن يعرف أشياء مهمة».

سأل داكين: «هل تريدينه في الخامسة والثلاثين أم في الخامسة والخمسين؟».

حملت فيه فيكتوريا.

قالت: «آه. في الخامسة والثلاثين».

- «لقد ارتحت الآن. خطر لي لوهلة انك تطلبيني للزواج».

ضحكت فيكتوريا.

- «أيضاً - أعرف انه لا ينبغي علي أن أسأل. لكن هل كانت هناك فعلياً رسالة محبوبة على الشال؟».

- «كان هناك اسم الـ «الحابكات» والتي كانت السيدة دوفارج احداهن، وكانت تحبك مسجلة الأسماء. كان الشال والورقة المتسخة هما نصفاً مفتاح اللغز. أحدهما أعطانا اسم الشيخ حسين الزيارة من كربلاء. والآخر كلمات السر التي كانت ضرورية ليعطينا الشيخ الرزمة الأمانة. لم يكن هناك مكان أكثر أماناً لاختفاء

هذه الأفلام من مدينة كربلاء المقدسة.

ولقد حملها عبر البلاد رجلا السينما أو صندوق الفرجة الجواله
- لقد كنا التقيناهما في الواقع.

أجل رجلان مشهوران. لا علاقة لهما بالسياسة. انهما
صديقان شخصيان لكارمايكل. كان لديه الكثير من الأصدقاء». -
«لا بد انه كان لطيفاً جداً. أنا آسفة انه مات».

قال السيد داكين: «لا بد اننا سنموت في أحد الأيام. وان
كانت هناك حياة بعد هذه. وهذا ما أؤمن به كلياً فسوف يكافأ
بأن يكتشف أن ايمانه وشجاعته قد أنقذا العالم بأسره من
الدمار والبؤس والموت».

قالت فيكتوريا متأمة: «انه امر غريب اليس كذلك؟ ان
يمتلك ريتشارد أحد نصفي السر، وأمتلك أنا النصف الآخر.
يبدو الأمر وكأننا...».

أنهى السيد داكين كلامها فرحاً: «كما لو انه قدركما. وماذا
ستفعلن الآن. إن سمحتِ بسؤالتي؟».

قالت فيكتوريا: «يجب أن أفتش عن وظيفة. يجب أن أبدأ على
الفور؟».

قال السيد داكين: «لا تفتشي كثيراً. أعتقد ان هناك واحدة آتية
اليك».

ثم انزاح في لطف ليفسح مكاناً للسيد ريتشارد بايكر.

قال ريتشارد: «اسمعيني يا فيكتوريا. لن تتمكن فينيسيا سافيل
من القدوم. في الواقع انها مصابة بالإكتئاب. لقد كنت مفيدة جداً

لنا في بقعة التنقيب. هل ترغبين في العودة الى هناك؟ لن نستطيع سوى أن نأويك، وربما أيضاً نؤمن لك بطاقة العودة إلى لندن، سنتحدث عن هذا لاحقاً. السيدة باونسفوت آتية في الأسبوع المقبل. ماذا تقولين؟».

هتفت فيكتوريا: «آه. هل تريدونني فعلياً؟».

لسبب ما أصبح ريتشارد بايكر أحمر الوجه. سعل وتحسّس نظارته.

قال: «أظن أنك ستكونين - آه - مفيدة جداً».

قالت فيكتوريا: «كم أحب هذا!».

قال ريتشارد: «في هذه الحالة، يجب أن تجمعني متاعك لنعود الى التلة الآن. هل تريدان البقاء في بغداد بعض الوقت؟».

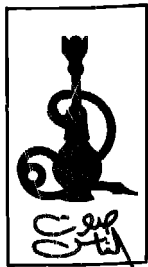
قالت فيكتوريا: «لا أريد أبداً».

قال الدكتور باونسفوت جونز: «ها أنت أخيراً يا عزيزتي فيرونيكا. لقد أصيب ريتشارد بالهلع من أجلك. جيد. جيد - أتمنى لكما السعادة العارمة».

سألت فيكتوريا منذهلة ما أن غادر الدكتور باونسفوت جونز: «ماذا كان يعني؟».

قال ريتشارد: «لا شيء. أنت تعرفينه جيداً، إنه - ناضج قبل أوانه».





اكتشف العميل السري البريطاني، أن سلاحاً سرياً قد تم
تصنيعه، وأن هناك كميات هائلة من الأموال قد سرقت
وكذلك كمية من الجواهرات.
سلسلة من المزامم المترابطة شغلت مجموعة من الأشخاص
الذين اقتضت تلابسات التحقيق بالتفاهل في بغداد بحثاً عن
حل، والجواب كان في لغز مكتوب، ... جعل أيمن محفل
بالشعر.



1855131544